ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام



عبد الوهاب عزام

ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام

ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام

تأليف
عبد الوهاب عزام

هنــداوي

ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام

عبد الوهاب عزام

رقم إيداع ٨٢٧١ / ٢٠١٤
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٨٠٨ ٠

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: خالد المليجي.

المحتويات

إلى أبي الطيب

أبا الطيب انقاد الزمان على هدَى وصرت برغم الدهر للدهر سيدا
وأعطاك ما أمَّلته من إمارة ولكن على عرش الزمان مُخلَّدا
مضتْ ألف عام أبلتِ الملك كلَّه وملكُك لا يزداد إلَّا تجدُّدا
طلبتُ على الغبراء قبرك جاهدًا فألفيتُه ذكرًا عليك مشيَّدا[1]
تدوِّي به الآفاق شعرًا وحكمة وتجري به الأزمان مجدًا وسؤددا
فتربتُك الغبراء إن شئت مرقدًا وقبَّتك الزرقاء إن شئت معبدا
تنبَّأتَ أن تحيا بشعرك خالدًا فصدَّقت الأجيالُ قولًا مسدَّدا
وقامت لك الأعياد في كل بقعة فأنشِد على عرش الخلود مردِّدا
«وما الدهر إلَّا من رُواة قصائدي إذا قلتُ شعرًا أصبح الدهر منشدا
وسار به مَن لا يسير مشمِّرا وغنى به من لا يغني مغرِّدا»[2]

عبد الوهاب عزام

[1] تحريت المكان الذي قتل فيه الشاعر وقبره: ينظر الفصل الثامن عشر.

[2] نظمت في بغداد سنة ١٩٣٦م.

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تعالى، وأسأله أن يهبَ لي السداد والإخلاص في الفكر والقول والعمل، وأن يجنبني الرياء والغرور واتباع الهوى، وهو حسبي ونعم الوكيل.

١

في الخريف الماضي اتفقت أنا وزملائي أساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية أن نحتفل بمرور ألف عام على وفاة الشاعر الكبير أبي الطيب المتنبي، وأن نلقي محاضرات في سيرته وأدبه، وتقسَّمنا الموضوعات بيننا، وبدا لي حينئذ أن أكتب كتابًا عن أبي الطيب.

وبعد قليل دُعيتُ إلى العمل في العراق، فلبيت الدعوة — وما يغترب من يبرح القاهرة إلى بغداد وإنما يترك أهلًا إلى أهل ووطنًا إلى وطن — فما كان انتقالي حائلًا دون ما عزمت عليه في ذكرى أبي الطيب، بل رأيت من سعادة الجد أن يُقسَم لي إحياء ذكرى الشاعر العظيم في مدينة السلام، فألقيت خمس محاضرات في سيرته، وعزمت على أن أضم إليها أبحاثًا في آرائه وعلمه وأدبه وأخرج كتابًا في بغداد أجعله ذكرى للشاعر العظيم والمدينة العظيمة، على بعدي من المراجع المهمة في دار الكتب المصرية ومكتبة الجامعة، ومن بعض كتبي الخاصة.

قدمت ما كتبت إلى المطبعة، على أن أكتب ما بقي أثناء الطبع، فلم ألبث أن سافرت للتفتيش في مدارس العراق فغبت مدة في جنوبي العراق ثم شماليه، وعدت إلى بغداد وقد اقتربت نهاية الدراسة، وكثرت الأعمال، فلم أستطع الفراغ للكتابة والتصحيح كما أريد، فاضطررت إلى إجمالٍ في الفصول الأخيرة، ووقعت غلطات مطبعية في أثناء الكتاب.

٢

ومهما يكن فقد بذلت الجهد، وأودعت الكتاب من تفصيل سيرة الشاعر والكشف عن جوانب مجهولة من سيرته وأدبه، ما يسوِّغ لي أن أقدمه للقراء راجيًا أن يجدوه أهلًا لذكرى أبي الطيب، ويروه أجمع وأدق وأجدى مما كتب عن الشاعر منذ عاش إلى عامنا هذا، عام الاحتفال بمضي ألف عام على وفاته.

والله ولي الهدى والتيسير.

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب ألفته في بغداد، وجعلته ذكرى لمرور ألف سنة على وفاة أبي الطيب المتنبي، ولما تم طبعه بادرت فحملت بعض نسخه إلى دمشق فشاركت في المهرجان الكبير الذي اجتمع في دمشق وغيرها من مدائن الشام احتفالًا بهذه الذكرى.

وإنما أردت بتأليف هذا الكتاب لهذه الذكرى أن أوفي حق الشاعر العبقري على الأدب العربي والأمة العربية وعلى الأدب الإنساني عامة، وأنا معجب بأبي الطيب منذ عرفته.

وقد نفدت نسخ الطبعة الأولى بعد قليل، وشغلت عن الكتاب بكتب أخرى ألفتها وحالت أسفار متوالية دون الفراغ له.

ثم يسر الله نشره حينما اتفقت مع «دار المعارف» هذا العام على نشره، فأعدت النظر فيه وغيرت فيه قليلًا حاشا الفصل الأخير فقد أعدت كتابته.

ووجدت الكتاب بعد هذه المدة الطويلة، كما وصفته في مقدمة الطبعة الأولى ولم يتغير رأيي فيه، فهو جدير بعناية كل مَعْنِي بسيرة أبي الطيب وشعره، حقيق بثقة كل قارئ.

وأصدُق القارئ أني أردت أن أحذف من مقدمة الطبعة الأولى دعوى أن هذا الكتاب أجمع وأدق ما كُتب عن الشاعر، واتفق أن جاء إلى كراجي، وأنا أعد الكتاب للطبعة الثانية، صديقنا العلامة الشيخ عبد العزيز الميمني الراجكوتي، وهو من أوسع الناس

معرفة بالشاعر، وكان يحفظ ديوانه كله فأخذ الكتاب فقرأه ثم نهاني عن حذف الجملة التي هممت بحذفها، وقال: دعوى صدق فلماذا تمحوها؟

والله أسأل أن يهبنا الرشاد والسداد، ويلهمنا العلم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

عبد الوهاب عزام

كراجي

٤ صفر سنة ١٣٧٤هـ

٢ تشرين الأول سنة ١٩٥٤م

مدخل

الفصل الأول: مصادر تاريخ أبي الطيب

تراجم أبي الطيب وأخباره كثيرة في كتب المتقدمين والمتأخرين، ولكن كثيرًا منها قول مُعاد ينقله اللاحق عن السابق لا يُعنى فيه بنقد ولا ترتيب، وقلَّ أن يذكر سنده من راو أو كتاب، فينبغي للباحث في تاريخ هذا الشاعر أن يردَّ الروايات المكررة إلى أصولها، ثم يقارن هذه الأصول بعضها ببعض ليعرف وجوه الوفاق والخلاف فيها، ثم يتبين الرواية الوثقى من بينها.

والمراجع التي أعدها أصولًا لتاريخ أبي الطيب هي:

أولًا: كتب المعاصرين:

(١) شرح أبي الفتح بن جني لديوان الشاعر، وكان أبو الفتح صديقًا له، وقرأ عليه ديوانه، وسأله، وجادله في كثير من أبياته، وأثبت هذا في شرحه: ولد أبو الفتح قبل سنة ٣٣٠ وتوفي سنة ٣٩٢.

(٢) وترجمة الشاعر في كتاب إيضاح المشكل من شعر المتنبي لأبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني الذي ألفه ليردَّ على ابن جني بعض تفسيره لديوان أبي الطيب. وقد أدرك الأصفهاني أبا الطيب وعاصر ابن جني، وألَّف كتابه هذا لبهاء الدولة بن بويه.

وهذه الترجمة مثبتة باختصار في الجزء الأول من خزانة الأدب للشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي، ولم أقف على الإيضاح نفسه.

(٣) وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (٢٩٠–٣٦٦هـ)، وهو كتاب نقد ليس فيه من أخبار الشاعر شيء.

(٤) ويلحق بكتب المعاصرين كتاب يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر لأبي منصور محمد بن عبد الملك الثعالبي النيسابوري (٣٥٠–٤٢٩هـ)، وفيه فصل مسهب في شعر أبي الطيب افتتحه واختتمه ببعض أخباره.

ثانيًا: كتب الثقات من رجال القرن الخامس الهجري وهي:

(١) شرح أبي العلاء المعري لديوان الشاعر وهو الشرح المسمى «معجز أحمد» وفيه تفصيل كثير من الحوادث التي قيلت فيها القصائد، وكثير من الروايات يرجع إلى الشاعر نفسه، ولا أظن القصص التي بالشرح من رواية أبي العلاء ولكنها روايات أثبتت في نسخة الديوان التي شرحها.

وقد عاش المعري بين سنة ٣٦٣ و٤٤٩هـ.

(٢) وشرح علي بن أحمد الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨هـ، وفيه نُتف قيِّمَة من أخبار الرجل، ويظهر أنه رواها عن شيخه أبي الفضل العروضي (أحمد بن محمد بن عبد الله بن يوسف) وقد روى العروضي ديوان أبي الطيب عن رواة كثيرين.

(٣) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ، وترجمة أبي الطيب في الجزء الرابع منه، وهي منقولة في طبقات الأدباء لابن الأنباري، مع زيادة.

ثالثًا: من كتب المتأخرين:

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي؛ وليس فيها ترجمة لأبي الطيب، ولكن شذرات عنه متفرقة في تراجم الأدباء.

(٢) والصبح المنبي عن حيثية المتنبي للشيخ يوسف البديعي المتوفى سنة ١٠٧٢هـ، وهذا ليس أصلًا فيما يرويه ولكنه تضمن روايات كثيرة مفيدة، عن كتب مفقودة.

رابعًا: نسخ الديوان المشتملة على أخبار الشاعر، والحوادث التي قيل فيها الشعر، ولا سيما النسخة المكتوبة سنة ٦٠١هـ، المحفوظة بدار الكتب المصرية (٥٣٠ – أدب) فيها كثير من أخبار الشاعر، وتفصيل الحادثات التي نظمت فيها القصائد، وفيها كذلك تفسير مثبَت بين أبيات القصائد مروي عن الشاعر نفسه؛ ولكن النسخة ناقصة، وصفحاتها مختلة الترتيب، ثم النسخة (٥٤٢ – أدب) بدار الكتب أيضًا.

وتشبه النسخة الأولى نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد كتبت سنة ١٠٤٧هـ، وهي كثيرة التحريف كتبها نَسَّاخ جاهل لا يفرق بين النظم والنثر، وتشبه في كثير من أخبارها نسخة شرح المعري كذلك.

الفصل الثاني: القرن الرابع الهجري

أبو الطيب المتنبي من شعراء القرن الرابع الهجري، نشَّأته آدابه وعركته حوادثه، وكان لأحوال ذلكم القرن أثر بيِّن في شعره، فيجمل أن أقدم كلمة عن الحال السياسية والأدبية إذ ذاك، ولا أفيض في هذا، فجمهور المتأدبين يعرفون ما لا بد من معرفته منه، وإنما هي تذكرة أمَهد بها للكلام في سيرة ذلكم الشاعر العظيم:

(١) الحال السياسية

كان سلطان الأمويين قائمًا في البلاد الإسلامية كلها، فلما أديل منهم للعباسيين استقلت الأندلس فلم يقم فيها للعباسيين سلطان.

وفي عهد هارون الرشيد خامس الخلفاء العباسيين (١٧٠–١٩٣هـ) نشأت للعلويين دولة في المغرب الأقصى هي الدولة الإدريسية (١٧٢–٣٧٥هـ) فخشي الرشيد أمر هذه الدولة الناجمة في أقصى الأرض فأقام إمارة بني الأغلب في إفريقية (١٨٤–٢٩٥هـ).

ثم منح المأمون قائدَه طاهر بن الحسين ولاية خراسان سنة ٢٠٥، فنشأت لبني طاهر إمارة استمرت إلى سنة ٢٥٩.

ثم كان عهد الدول الكبيرة التي استقلت بالسلطان على رغم الخلفاء وإن اعترفت لهم بالخلافة.

قامت الدولة الصفارية في فارس (٢٥٤–٢٩٦هـ)، ثم نسختها دولة السامانيين في فارس وما وراء النهر (٢٦٩–٣٨٩هـ).

وفي مصر والشام نشأت الدولة الطولونية (٢٥٣–٢٩٢هـ)، وبعد ثلاثين سنة من انقضاء هذه الدولة استقل محمد بن طغج بمصر ولقَّبه الخليفة الراضي بالله العباسي

بالإخشيد، وبعد قليل استولى على الشام والحجاز. وكان الأمر بعد وفاة الإخشيد سنة ٣٣٤ في يد مولاه كافور وصيًّا إلى أن انتحل الملك سنة ٣٥٥، وفي كافور يقول أبو الطيب:

يصرِّف الملك من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الشام فالنُّوب
إذا أتتها الرياح النُّكب من بلد فما تهبُّ بها إلا بترتيب
ولا تجاوزها شمس إذا شرقت إلا ومنه لها إذن بتغريب
يصرِّف الأمر فيها طينُ خاتَمه ولو تطلَّس منه كل مكتوب

وبعد قليل من وفاة كافور استولى الفاطميون على مصر، وقد قامت دولتهم في إفريقية وما يليها إلى الغرب سنة ٢٩٧ واتسع ملكها حتى استولت على مصر سنة ٣٥٨ ومدَّت سلطانها على الحجاز ومعظم الشام، وكان في شمالي الشام وما يليه دولة بني حمدان، وسنذكرهم من بعد.

ففي النصف الأول من القرن الرابع، وهو عصر المتنبي، لم يكن في أيدي العباسيين إلا العراق والجزيرة، ولم يكن الأمر في هذه البقاع بأيدي الخلفاء، بل كان السلطان للمتغلبين من القوَّاد والكبراء. وحدث سنة ٣٢٤ لقب أمير الأمراء يلقِّب به الخليفةُ الأميرَ المتغلب على دار الخلافة حتى استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤، وقد بقي سلطانهم بها إلى سنة ٤٤٧.

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٣٢٤: «وتغلب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة، ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم في جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم.

وأما باقي الأطراف فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان في يد علي محمد بن إلياس، والري وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه وفي يد وشمكير أخي مرداويج يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طُغُج، والمغرب وإفريقية في يد أبي القاسم القائم بأمر الله ابن المهدي العلوي وهو الثاني منهم ويلقب بأمير المؤمنين، والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموي، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني، وطَبَرستان وجُرجان في يد الديلم، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي.»

وكان القرن الرابع الهجري قرن ثورات وفتن ونزاع ومحاربة، كثر فيه الثائرون من العلويين والمتخذين الدعوة العلوية وسيلة إلى المجد والسلطان، وكثرت غارات الأعراب والخوارج، وكثرت كذلك دعاوى المتنبئين وأصحاب المقالات الضالة.

وكانت الدعوة الشيعية التي اشتدت في القرن الثالث قد أدت في أواخره إلى قيام الدولة الشيعية الكبيرة دولة الفاطميين، فقويت بها دعوة الشيعة في المشرق وعظمت آمالهم.

وقد ذكر أبو الطيب الفاطميين في القصيدة التي مدح بها طاهر بن الحسين العلوي بالرملة سنة ٣٣٦:

كذا الفاطميون الندى في أكفِّهم   أعزُّ امِّحاءً من خطوط الرواجب

وذلك قبل استيلائهم على مصر والشام بنحو خمس وعشرين سنة. وقد كثرت الدعوات العلوية في ذلك العصر.

يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٣٠٣: «ظهر بالجامدة رجل زعم أنه علوي فقتل العامل بها ونهبها وأخذ من دار الخراج أموالًا كثيرة.»

ويقول في حوادث سنة ٣١٢: «ظهر عند الكوفة رجل ادعى أنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وهو رئيس الإسماعيلية، وجمع جمعًا عظيمًا من الأعراب أهل السواد واستفحل أمره في شوال فسُيِّر إليه جيش من بغداد فقاتلوه فظفروا به وانهزم وقتل كثير من أصحابه.»

وفي ذلك العصر ظهر أعظم الفرق إفسادًا، القرامطة الذين لبثوا زهاء ثلاثين سنة ينشرون الفزع في جزيرة العرب والحجاز والشام، ولا تكاد تخلو سنة في ذلك العصر من غارة لهم على بلد أو قطع طريق على الحجاج وغيرهم. وقد أغاروا على مكة سنة ٣١٧هـ، تحت إمرة أبي طاهر وقتلوا الحجاج وأخذوا الحجر الأسود.

ثم توالت الوقائع حتى اضطر الخلفاء العباسيون أن يراسلوا أبا طاهر ليقرُّوه على البلاد التي في سلطانه ويردَّ الحجر الأسود ولا يتعرض للحجاج، فأجاب إلى مسالمة الحجاج، وأبى ردَّ الحجر.

وقد لقيت الكوفة بلدة أبي الطيب منهم أهوالًا، أغاروا عليها سنة ٣١٢ ثم رجعوا سنة ٣١٥ فهزموا جند الخلافة وأسروا قائده يوسف بن أبي الساج، وأخذوا الأنبار وتوجهوا نحو بغداد ففزع أهلها ولكنهم لم يدخلوها، وكذلك توجهوا إلى الكوفة سنة

٣١٦ فوُجه إليهم الجند فانصرفوا عنها، ولكن جماعة ممن يرون رأيهم ظهروا في جهات من العراق ونزلوا بظاهر الكوفة وجبوا الخراج، ولم تسلم الكوفة من غاراتهم سنة ٣١٩ و٣٢٣ و٣٢٥.

وكان إلى هذه المصائب غارات الأعراب، وظهور بعض الخوارج: في سنة ٣١٥ دخل جماعة من الأعراب الكوفة وأخربوا سورها وأخربوا الحيرة أيضًا. وسنة ٣١٨ أغار بنو نمير وبنو كلاب وعاثوا بظاهر الكوفة فخرج إليهم أمير الكوفة فأسروه.[١]

ولما رجع أبو الطيب إلى وطنه بعد خروجه من مصر شهد غارة بني كلاب على بلدته واشترك في حربهم، وتتصل بهذه الحادثات قصيدته في مدح القائد دلير، كما في الفصل الخامس عشر، وكذلك سجلت كتب التاريخ حوادث لبعض الخوارج في ذلك الوقت.

وكذلك كثرت دعوات المتنبئين في ذلك العصر: ففي سنة ٣٢٢ قبل الواقعة التي سجن فيها أبو الطيب بسنتين ظهر بباسند من أعمال الصغانيان رجل ادَّعى النبوَّة فقصده فوج بعد فوج، واتبعه خلق كثير وحارب من خالفه فقتل خلقًا كثيرًا ممن كذبه فكثر أتباعه،[٢] وفي السنة نفسها قُتل في بغداد أبو جعفر الشلمغاني الذي ذهب مذهبًا غاليًا في التشيُّع والتناسخ وحلول الألوهية فيه.

وكان لهذا الاضطراب في السياسة والآراء، ولهذه الثورات الكثيرة والدعوات المتوالية أثر بالغ في نفس أبي الطيب الثائر الطموح كما سنرى.

(٢) الآداب والعلوم

لا ريب أن العلوم والآداب تنمو وتزدهر في ظلال الأمن والرخاء وفي رعاية الدول الرشيدة التي ترفع شأن العلماء والأدباء وتحرضهم على الجد والاستقصاء، وتوفر لهم من أسباب العيش والكرامة ما يمكنهم من العكوف على الدرس والتأليف، فعظمة الأمة السياسية، واستقرار الأمور ورغد العيش فيها تستتبع اهتمام الناس بالعلوم، وكلفهم بها، ولكن نمو العلوم والآداب وازدهارها ثم ذبولها وجفافها يتقلب في أطوار مديدة بطيئة لا تساير الأطوار السياسية، فإذا نمت العلوم في أمة قوية لا تؤتي ثمارها إلا بعد زمن مديد، وربما

[١] ابن الأثير والطبري حوادث سنة ٣١٨.

[٢] ابن الأثير.

يوافق ازدهارُها زمن الضعف السياسي في الدولة التي نمت في ظلالها، وكذلك أطوار ضعفها وزوالها تتم في عصور طويلة، فلا ينبغي أن تقاس حال العلوم والآداب بالأحوال السياسية، ولا يجوز أن تلتمس في التاريخ مسايرة رقي العلوم وتدليها للقوة السياسية والضعف وإن يكن لاضطراب السياسة أثر سيئ في العلوم والآداب، ولاستقرارها أثر حسن فيهما.

وكذلك كان القرن الرابع الهجري: اضطربت فيه السياسة وكثر المتغلبون، واضطرمت بينهم نيران الحرب، وكثرت الثورات والغارات؛ ولكنه كان مع ذلك عصرًا مخصبًا بالعلوم والآداب، فما زال العلماء والأدباء منذ القرن الثاني الهجري يفكرون ويبحثون ويؤتون الناس ثمار عقولهم، ويخلِّدونها في الكتب ميراثًا لمن بعدهم، حتى كان القرن الرابع، فإذا ثروة عظيمة زاد العلماء عليها واجتهدوا في نقدها وترتيبها.

ثم كثرةُ الدول أدَّت إلى تنافس الملوك في المجد وحسن السمعة وبعد الصيت فحرَص كل ملك على أن يجذب إليه العلماء والأدباء، ويكثر حوله الشعراء ليَذيع صيته ويَخلد اسمه بما يؤلَّف من الكتب له، وما ينظم من الشعر في مدحه، ويكفي في هذا نظرة إلى الأدباء والعلماء الذين التفوا حول أمراء المسلمين في المشرق والمغرب.

انظر كيف ازدحم العلماء والأدباء والشعراء حول سيف الدولة على ضيق ملكه، وقلة ثروته.

كان القرن الرابع يموج بالشعراء ولكنهم كانوا أقلَّ ابتكارًا وأصالة من شعراء القرن الثالث، وإذا استثنينا أبا الطيب لم نجد فيهم من يُقاس بأبي نواس وأبي تمام والبحتري.

وأما الكتابة فكانت في هذا القرن أوسع موضوعًا، وأصفى أسلوبًا، وأبعد فكرًا، وأوضح منطقًا، وتناولت أغراض الشعر المألوفة من المدح والهجاء والغزل والوصف والمواعظ وغيرها، فاتسع المجال في النثر لذوي الأفكار الثاقبة، والقلوب الفياضة، خلصوا فيه من الأوزان والقوافي، ولكنهم جمَّلوه بالتقسيم والسجع، فنبغ في هذا القرن أئمة الكتاب في المشرق والمغرب.

وليس يتسع المجال لتفصيل الكلام عن شعراء القرن الرابع وكتَّابه فحسبي أن أذكر من شعراء المشرق، الشريف الرضي وتلميذه مهيارًا، وأبا فراس الحمداني، وابن نُباتة السعدي، وأبا العلاء المعري، وأبا الحسن التهامي، والسريَّ الرفَّاء، والناشئ وأبا الفرج الببغاء، وغير هؤلاء كثيرون ذكرهم الثعالبي في اليتيمة. ومن شعراء المغرب ابن عبد ربه

وابن هانئ وابن عمَّار وابن خفاجة وابن اللبَّانة وابن زيدون. ومن الكتَّاب في هذا العصر ابن العميد، وابن عبَّاد، والصابي، والهمذاني، والخوارزمي، والبُستي، وأبو حيَّان التوحيدي، وابن زيدون، وابن عبدون.

ومن الأدباء المؤلفين الآمدي صاحب الموازنة، وأبو علي القالي صاحب الأمالي، وأبو الفرج صاحب الأغاني، والجرجاني صاحب الوساطة، والثعالبي صاحب اليتيمة، والصُّولي صاحب الأوراق.

ومن أئمة اللغة والنحو الذين توفوا في النصف الأول من القرن الرابع الزَّجَّاج والأخفش الصغير، ومحمد بن عرفة نفطويه، وابن مجاهد، وابن دُريد وابن السراج، وابن الأنباري، والمطرز أبو عُمر الزاهد، وابن درستويه، والجوهري.

وممن توفوا في النصف الثاني من هذا القرن، الأزهري، وابن فارس، والسيرافي، وابن خالويه، وأبو علي الفارسي، وأبو الفتح بن جني، وأبو الحسن الرماني، وكلهم إمام في علمه، مبرز في موضوعه.

وإجمال الكلام أن القرن الرابع كان من أزهى العصور الإسلامية في كل ما تناولته الحضارة العربية الإسلامية من علم وأدب.

(٣) الكوفة

وُلد أبو الطيب بمدينة الكوفة ونشأ بها وتعلم، ولست في حاجة إلى الإبانة عن مكانة الكوفة والبصرة في تاريخ العلوم العربية والدينية، وأن هاتين المدينتين كانتا مهد هذه العلوم ولبثتا زهاء ثلاثة قرون مثابة للعلم والأدب.

وكانت الكوفة في عهد المتنبي لا تزال ذات مكانة في الأدب عظيمة؛ على أننا لا نُعْنَى بتاريخ الكوفة وحدها في سيرة المتنبي فقد ورد بغداد وأخذ عن أدبائها وناهيكم ببغداد حاضرة العلوم والآداب في ذلك العصر، وسنعرف عما قليل شيوخ المتنبي الذين درس عليهم، وفيهم الكوفي والبغدادي.

وكذلك عاش أبو الطيب حقبة في الشام، وأقام في مصر سنتين ولقي الأدباء والعلماء، وتردَّد على الجامع العتيق (جامع عمرو في الفسطاط)، وكانت به مجالس العلم والأدب.

الفصل الثالث: ديوان أبي الطيب[3]

المرجع الأول لتاريخ كل شاعر ديوانُه الذي سجل فيه آراءه وعواطفه ووصف وقائع مختلفة عرضت له أو لأهل عصره.

فديوان أبي الطيب أول عمدة في تاريخه، وأجدر مراجعه بالبحث والتمحيص.

وكان سلفنا لا يقبلون رواية شفوية أو مكتوبة إلا بسند يصلها بمصدرها، فإذا سرنا على آثارهم فلا بدَّ لنا بادئ بدء أن نتثبت من أن هذا الشعر الذي بأيدينا والذي يسمي ديوان المتنبي هو كله من كلامه، وأنه يجمع كلامه جميعه إلا شذرات لا يعبأ بها، ولو أن الذين يطبعون الديوان يكلفون أنفسهم أن يبينوا لنا السند الذي يصل الديوان بقائله لتيسر الأمر للباحثين، فإن المطابع هوَّنت الرواية وجعلت إثبات نسخة واحدة إثباتًا لآلاف النسخ، ولكنهم لم يتعبوا أنفسهم فأتعبوا الباحثين.

وهنا بحثان:

البحث الأول: هو هل هذا الديوان كله شعر أبي الطيب، وهل هو يستوعب كلامه كله؟

والبحث الثاني: في ترتيب الديوان.

فأما البحث الأول فهذا إجمال القول فيه:

(١) قد رتَّب المتنبي ديوانه بنفسه، وقرأه الناس عليه، وأملى شرحًا لبعض أبياته، وناقشه فيه من أخذوا عنه، ففي نسخة من الديوان بدار الكتب المصرية (٥٤٢ أدب) وفي آخر شرح الواحدي المطبوع في بمباي:

قال الشيخ الإمام أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بالواحدي رحمه الله تعالى: هذا آخر ما اشتمل عليه ديوان أبي الطيب الذي رتبه بنفسه، وهو خمسة آلاف وأربعمائة وأربع وتسعون قافية.

وفي مقدمة نسخة بدار الكتب المصرية (أدب رقم ٥٣٠) يقول راوي الكتاب: «وجميع ما فيه من تفسير معنى وشرح غريب واختلاف لغة فهو من إملائه عند القراءة عليه.»

وسنعود إلى هذا عند كلامنا عن علم المتنبي باللغة.

[3] يرجع القارئ المستزيد إلى المقدمة النافعة الوافية التي كتبتها لنسخة الديوان الممتازة التي نشرتها وطبعتها لجنة التأليف والترجمة والنشر تخليدًا للذكرى الألفية لوفاة الشاعر.

(٢) وقد روى الديوان عن أبي الطيب ثقات منهم أبو الفتح بن جني، وقد ناظره في كثير من أبياته ثم شرَحه، وعلي بن حمزة البصري الذي نزل المتنبي في داره حينما قدم بغداد بعد مفارقة مصر، وكان ضيفه إلى أن رحل، تُوفِيَ بصقلية في رمضان سنة ٣٧٥،[٤] ومحمد بن أحمد المغربي أحد أئمة الأدب والشعر، وقد ألَّف كتابين في فضائل المتنبي ورذائله، والقاضي المحاملي (محمد بن أحمد بن القاسم) الذي سمع الديوان من أبي الطيب ببغداد.

وفي النسخة (٥٣٠): «حدثني أبو الحسن بن سعيد راوية المتنبي بحلب» فهذا راوية آخر.

وقد روى العكبري عن أبي الفضل العروضي قوله في الرد على ابن جني في تفسير بيت من قصيدة المتنبي في مدح ابن العميد:

إذا ما استحين الماء يعرض نفسه　　　كرعن بسبت في إناء من الورد

«ما أصنع برجل ادَّعى أنه قرأ على المتنبي ثم يروي هذه الرواية، ويفسر هذا التفسير، وقد صحت روايتنا عن جماعة منهم: محمد بن العباس الخوارزمي، وأبو محمد بن القاسم الجرمي، وأبو الحسن الرُّخجي، وأبو بكر الشعراني، وعدة من الرواة يطول ذكرهم إلخ.»[٥]

هؤلاء الرواة المعاصرون للشاعر، وقد استمرت الرواية بعدهم، قال العكبري في مقدمة شرحه، وهو من رجال القرن السادس؛ ولد سنة ٥٣٨ وتوفي سنة ٦١٦هـ:

> وقرأته قراءة فهم وضبط على الشيخ الإمام أبي الحزم مكيِّ بن ريَّان الماكسيني بالموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وقرأته بالديار المصرية على الشيخ أبي محمد عبد المنعم بن صباح التيمي النحوي. ا.هـ.

فديوان أبي الطيب أخذ بالرواية من أيام الشاعر إلى زمان العكبري وعندنا ما يدل على روايات بعد هذا التاريخ.

وكانت نسخه قد انتشرت في الآفاق، وبلغت حد التواتر أو كادت.

---

[٤] معجم الأدباء لياقوت جزء ٥ ص٢٠٢ وإيضاح المشكل.

[٥] العكبري ج١ ص٢٧٦.

(٣) ولدينا نسخ عليها سماعات موصولة بالمتنبي وهي توافق سائر النسخ في القصائد كلها، ومعظم القطع الصغيرة كالنسخة (رقم ٥٣٠ أدب) التي بدار الكتب المصرية، عليها سماعات لبعض الوزراء والكبراء المصريين في القرنين السابع والثامن بسند متصل إلى المتنبي، ونسخة حبيب الرحمن الشرواني الحيدر آبادي التي وصفها صديقنا العلامة الشيخ عبد العزيز الميمني الراجكوتي أستاذ الأدب العربي بجامعة على كرْه في رسالته «زيادات شعر المتنبي» المطبوعة في مصر.

(٤) ولدينا شروح الثقات مثل ابن جني والمعري والواحدي والعكبري، والشروح قلَّ أن يقع التغيير في متونها. وعندنا نسخ كثيرة من ديوان المتنبي كتبت في أزمنة مختلفة وبلاد متباعدة، وهي متفقة في جملتها، على ما تحتوي من شعر أبي الطيب ولا سيما القصائد، وقد قارنتُ شرح الواحدي وشرح المعري، وثلاث نسخ مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية إحداها كتبت سنة ٦٠١هـ ونسخة مخطوطة في مكتبة الأوقاف ببغداد، فلم أجد بينها خلافًا في القصائد ومعظم القطع الصغيرة، ولا خلافًا في ترتيب الشعر إلا يسيرًا.

ثم ليس شعر أبي الطيب بالشعر الخامل الذي تسهل الزيادة عليه والنقص منه؛ فقد شغل الناس منذ نظمه أبو الطيب إلى يومنا هذا. قال الواحدي:

> وإنما دعاني إلى تصنيف هذا الكتاب مع خمول الأدب وانقراض زمانه، اجتماع أهل العصر قاطبة على هذا الديوان، وشغفهم بحفظه وروايته، والوقوف على معانيه وانقطاعهم عن جميع أشعار العرب جاهليها وإسلاميها إلى هذا الشعر، واقتصارهم عليه في تمثلهم ومحاضراتهم، وخطبهم ومقاماتهم حتى كأن الأشعار كلها فقدت.[٦]

فليس من ريب في أن الشعر الذي في نسخ الدواوين السائرة شعر المتنبي.
وهنا نجيب عن السؤال الثاني: هل الديوان يتضمن شعر المتنبي كله؟

[٦] آخر المخطوط ٥٤٢ أدب – دار الكتب المصرية.

قال عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني في كتابه إيضاح المشكل من شعر المتنبي: «أخبرني أبو الفتح عثمان بن جني أن أبا الطيب أسقط من شعره الكثير، وبقي ما تداوله الناس.»[٧]

وفي نسخة دار الكتب (رقم ٥٣٠ أدب) في عنوان القصيدة التي قالها في السجن والتي مطلعها:

أيا خدَّد الله وردَ الخدود وقدَّ قدود الحسان القدود

«وقد امتنع عن عمل الشعر بمصر فسأله جماعة من أهل الأدب بها إثبات بعض ما كان أسقطه من شعره رغبة فيه فأجابهم إلى ذلك. فمما أثبته قوله في صباه وقد وشى به قوم إلى السلطان إلخ.»

وفي بعض النسخ قبل القطعة:

وشادن روح من يهواه في يده سيف الصدود على أعلى مقلده

«وهذه القطعة شذ بعضها.»

وقال ابن نباتة في شرح رسالة ابن زيدون عن المتنبي: «له أشعار لم تدخل في ديوانه.»

ومهما يُقل فأغلب الظن أن الذي أسقط المتنبي من شعره قطع لم يُعن بها الشاعر لسخف معناها أو لأسباب أخرى، ولسنا نصدق أن أبا الطيب الذي حرص على إثبات قطع صغيرة ما بين بيتين وأربعة ليس لها قيمة في الأدب كبيرة، يرضى أن يحذف شيئًا من قصائده إلا لضرورة، إنما حذف المتنبي أبياتًا ارتجلها ثم لم يحرص على أن تُنسب إليه، أو قصائد ذكر فيها حوادث يكرهها كقصيدة السجن التي حذفها ثم أثبتها؛ ولكن الناس لكلفهم بشعر المتنبي التقطوا كثيرًا مما أسقط وجمعوه وألحقوه ببعض نسخ الديوان، وقد أفرد صديقنا الميمني لهذه القطع تأليفًا سماه «زيادات شعر المتنبي» وجعل من الزيادات كلَّ ما لم يَرْوِه العكبري، ولكن كثيرًا منها مثبت في نسخ الديوان ولا سيما النسخة (٣٥٠ أدب) المحفوظة بدار الكتب المصرية.

[٧] خزانة الأدب ص٣٨٣ جزء ١.

وأكثر النسخ زياداتٍ هي النسخة التي نشرتُها وطبعتْها لجنة التأليف والترجمة والنشر بعد إخراج الطبعة الأولى من هذا الكتاب، وفي مقدمة هذه النسخة بحث عن الزيادات وافٍ، وهذه الطبعة ومقدماتها مع تعليقات أبي الطيب المثبتة فيها أوفى الطبعات وأجدرها بثقة الباحثين.

وبعدُ فَمَهْمَا دَقَّقَ الباحث لا يسعه الارتياب في أن هذا الشعر السائر بين الناس باسم ديوان المتنبي، هو شعر المتنبي الذي يمثِّل أفكاره وعواطفه وتاريخه؛ وأن ما شذَّ عن الديوان يمكن الإغضاء عنه عند البحث في سيرة الرجل وشعره.

ترتيب ديوان المتنبي

ديوان أبي الطيب قسمان؛ الأول: شعره في صباه إلى أن مدح الأمير الحسن بن عبد الله بن طغج بالرملة سنة ٣٣٦هـ، وذلكم زهاء اثنين وعشرين عامًا، والثاني: ما نظمه من هذا التاريخ إلى أن قُتل سنة ٣٥٤ وذلكم ثمانية عشر عامًا.

فأما القسم الثاني فقد نظمه بعد أن نبُه أمره، ومدح به جماعة من الكبراء والأمراء والملوك، ومعالم هذا القسم واضحة وتاريخه معروف حتى لا يجد المحقق قصيدة من القسم خالية من التاريخ؛ بل كثير من القصائد مؤرَّخ بالسنة والشهر واليوم كالقصيدة التي رثى بها أبا شجاع فاتكًا حين تُوفِيَ ليلة الأحد عشاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمسين وثلاثمائة.

وقصيدته في مدح كافور التي أولها:

عدوك مذموم بكل لسان　　　وإن كان من أعدائك القمران

أنشدها يوم السبت لست خلون من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، وكثير من القصائد لها مقدمات طويلة تبين عن الحالة التي نظمت فيها، وذلكم ما لا نجده في ديوان شاعر من كبار شعرائنا، وأحسب هذا كله من إملاء المتنبي على رواة ديوانه.

وأما القسم الأول فقد نظمه المتنبي وهو خامل حين كان، كما يقول الثعالبي، يمدح الغريب والقريب ويصطاد ما بين الكركي والعندليب، والممدوحون في هذا القسم خاملون إلا ثلاثة أو أربعة ذكروا قليلًا في كتب التاريخ.

وقد قارنت شرح المعري وشرح الواحدي وثلاث نسخ مخطوطة بدار الكتب المصرية ونسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد فوجدتها كلها متفقة على ترتيب القصائد إلا خلافًا يسيرًا في بضع قصائد من شعره الأول الذي نظمه في العراق، وفي أول عهده بالشام، وبين النسخ خلاف في ترتيب القطع الصغيرة، ويتم الاتفاق بين النسخ على ترتيب القصائد والقطع كلها بعد القصيدة التي مدح بها محمد بن زريق الطرسوسي:

هذا برزتِ لنا فهجتِ رسيسا   ثم انثنيت وما شفيت نسيسا

والذي قبل هذه القصيدة في الديوان يعدل جزءًا من أحد عشر جزءًا من شعره كله.

وكدت أعتقدُ كما اعتقدَ غيري أن القسم الأول من ديوان المتنبي مرتب على التاريخ حتى عرفت بعد بحث طويل مُتْعب أن القصيدتين اللتين مدح بهما مساور بن محمد الرومي نظمتا سنة ٣٢٩، يُعرف ذلك من ولاية هذا الأمير على حلب في هذه السنة، ومن ذكر هزيمة ابن يزداد في إحدى القصيدتين وكانت هزيمته في ذلك الوقت أيضًا، وهاتان القصيدتان في الديوان مقدمتان على قصائد بدر بن عمار التي نظمت منذ أواخر سنة ٣٢٨ وأوائل سنة ٣٢٩، وأظن مدح مساور كان بعد مدح بدر، ثم بين قصيدتي مساور ومدائح ابن عمار قصائد كثيرة لا يُظن أن المتنبي نظمها بين مدائح هذين الأميرين، فهذا أضعف ثقتي بالترتيب في الديوان، قسمه الأول، ومنعني أن أعتمد عليه في تاريخ الشاعر وإن ظننت أن الأصل في ترتيب الديوان كله الترتيبُ التاريخي، لهذا أدع الاعتماد على ترتيب الديوان في القسم الأول منه إلى أن أجد من الأدلة التاريخية ما يكفي للثقة بترتيب قصائده كلها على التاريخ.

الباب الأول

نسب أبي الطيب

الفصل الأول

قبيلته

أبو الطيب أحمد بن الحسين بن مرَّة بن عبد الجبار الجعفي الكندي الكوفي، أو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي.[١]

ويقول بعض المؤلفين: أحمد بن محمد … إلخ.

جعفي، الذي ينسب إليه المتنبي هو جُعفي بن سعد العشيرة من مَذْحِج من كَهلان من قحطان، وكندة، التي ينسب إليها المتنبي هي مَحلة في الكوفة كانت تسكنها قبيلة كندة، قال في إيضاح المشكل: «حدثني ابن النجار ببغداد أن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف بكندة بها ثلاثة آلاف بيت من بين رَوَّاء ونَسَّاج.» ولا ينبغي أن نعول على قوله من بين روَّاء ونسَّاج، فقد روى لنا الخطيب أن المتنبي كان جارًا لأشراف من العلَويين، كما يأتي.

وقد ظنَّ بعض الناس أن أبا الطيب من كندة القبيلة، فقالوا: بُدئ الشعر بكندة وختم بكندة؛ يعنون امرأ القيس في البدء، والمتنبي والرمادي الشاعر في الختام، وكانا متعاصرين. وروي أن أبا فراس قال لأبي الطيب في مجلس سيف الدولة: «يا دعيَّ كندة.»

وروى الخطيب البغدادي عن أبي الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدي قال: كان المتنبي وهو صبي ينزل في جواري بالكوفة وكان يُعرف أبوه بعَبدان السقاء يسقي لنا ولأهل المحلة … وكان عبدان والد المتنبي يذكر أنه من جعفي، وكانت جدة المتنبي هَمْدانية صحيحة النسب لا أشك فيها وكانت جارتنا وكانت من صلحاء النساء الكوفيات.

[١] الخطيب وابن خلكان.

وروى عَلِي بن المحسن التنوخي عن أبيه أنه حدث المتنبي بالأهواز وهو راجع من فارس عن أبي الحسن (العلوي) فقال: تربي وصديقي وجاري بالكوفة وأطراه ووصفه. قال التنوخي: واجتمعت بعد موت المتنبي بسنتين بالقاضي أبي الحسن بن أم شيبان الهاشمي الكوفي وجرى ذكر المتنبي فقال: كنت أعرف أباه بالكوفة شيخًا يُسمى عبدان يستقي على بعير له، وكان جعفيًّا صحيح النسب.

وقال العكبري: أما أبو الطيب فيقال: إنه جعفي ولم أتحققه.

وفي تبدِّي الشاعر في صباه وغلبة البداوة على طباعه طول عمره، ما يدل على أنه كان عربيًّا متصلًا بالبوادي.

ولسنا نجد في شعر المتنبي ذكر نسبه، وقد قال في قصيدة يمدح بها علي بن إبراهيم التنوخي:

أَمُنسيَّ السَّكون وحضرموتًا ووالدتي وكندة والسبيعا

قال الواحدي: «هذه أماكن بالكوفة سميت بأسماء قبائل كانوا يسكنون بهذه المحال.» وقد روي البيت: أمنسي الكناس إلخ، وقال العكبري في شرحه: الكناس محلة بالكوفة، وكذا حضرموت وكندة محلة غربي الكوفة، والسبيع سوق بالكوفة ومحلة كبيرة، وكل هذه المواضع سميت بأسماء من سكنها.

فليس في ذكر هذه الأسماء إبانة عن نسب لشاعرنا، وقد حرص المتنبي على ألا يذكر نسبه في شعره، فما ذكر أباه ولا جده ولا أحدًا من آبائه ولا صرَّح باسم قبيلة ولا عشيرة.

وروى الخطيب عن علي بن المحسن التنوخي عن أبيه قال: «وسألت المتنبي عن نسبه فما اعترف لي به وقال: أنا رجل أخبط القبائل وأطوي البوادي وحدي ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذني بعض العرب بطائلة بينه وبين القبيلة التي أنتسب إليها، وما دمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لساني.»

وفي شعر الرجل نفسه ما يدل على أنه كان يكتم نسبه، وفي القصيدة التي مدح بها أبا العشائر بن حمدان والتي أولها:

لا تحسبوا رَبعكم ولا طلله أول مَيت فراقُكم قتله

يقول:

أنا ابن من بعضُه يفوق أبا　　　الباحث والنجلُ بعض من نجله
وإنما يذكر الجدود لهم　　　من نفروه وأنفدوا حيله
فخرًا لعضب أروح مشتمله　　　وسمهري أروح معتقله
وليفخر الفخر إذ غدوتُ به　　　مرتديًا خيره ومنتعله
أنا الذي بَيَّن الإله له الأقدارَ　　　والمرءُ حيثما جعله
جوهرة تفرح الكرام بها　　　وغصة لا تسيغها السفله
إن الكذاب الذي أُكاد به　　　أهونُ عندي من الذي نقله
فلا مُبال ولا مُداج ولا　　　وانٍ ولا عاجز ولا تُكله

وظاهر من هذا الشعر أن قومًا تكلموا في نسبه وازدروه، فلم يجبهم بذكر نسبه بل قال: إن له آباءً عظامًا، ولكنه ليس في حاجة إلى أن يستنجد نسبه وهو قادر على أن يغلب خصومه وحده.

وكذلك فَخَرَ أبو الطيب بقومه وآبائه في مواضع أخرى من شعره دون أن يذكر اسم رجل أو عشيرة أو قبيلة.

قال في إحدى قصائد الصبا:

لا بقومي شرُفت بل شرفوا بي　　　وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضاد　　　وعَوذُ الجاني وغوث الطريد

وقال في قصيدة الحمَّى بمصر:

أرى الأجداد تغلبها كثيرًا　　　على الأولاد أخلاق اللئام
ولستُ بقانع من كل فضل　　　بأن أُعزَى إلى جَد همام

وقال في رثاء جدته لأمه:

ولو لم تكوني بنت أكرم والد　　　لكان أباك الضخم كونُك لي أما

* * *

وإني لمن قوم كأنَّ نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

ليس في هذا تصريح بنسب ولكن بعض شعره يدل على عصبية يمانية فأكثر ممدوحيه في أيامه الأولى من قبائل يمانية، مدح: شجاع بن محمد الأزدي، وعلي بن أحمد الطائي، وشجاع بن محمد الطائي، وعبيد الله بن يحيى البحتري، وأخاه أبا عبادة، ومدح التنوخيين في اللاذقية، ومنهم علي بن إبراهيم التنوخي الذي قال فيه:

أمُنسيَّ السَّكون وحضرموتًا ووالدتي وكندة والسبيعا

وقال على لسان بعض التنوخيين يفضل اليمن على خندف:

قضاعة تعلم أني الفتى الذي ادَّخرتْ لصروف الزمان
ومجدي يدل بني خندف على أن كل كريم يماني

ويقول في مدح عبيد الله بن يحيى البحتري:

كفى بأنك من قحطان في شرف وإن فَخَرت فكل من مواليكا

وفي مدح أبي عبادة بن يحيى البحتري:

قد كنت أحسَب أن المجد من مضر حتى تبحتر فهو اليوم من أدَد[٢]

وقال للحسين بن إسحاق التنوخي، وقد هجاه بعض الناس ونسب الهجاء إلى المتنبي:

أبت لك ذمي نخوة يمنية ونفس بها في مأزِق أبدًا ترمى

[٢] تبحتر صار بحتريًّا، وبحتر من أدد من طيء.

فهذه الأبيات كلها تنمُّ عن تعصب لليمنية وولع بمدحهم، ولكننا نجد أبا الطيب يمدح أبا الحسين علي بن أحمد المرِّي في جبل جُرش، بالقصيدة الثائرة التي أولها:

لا افتخارٌ إلا لمن لا يُضام　　　مدركٍ أو محاربٍ لا ينام

فيقول:

كُتبت في صحائف المجد بِسمٌ　　　ثم قيسٌ، وبعد قيس السلام
إنما مرَّة بن عوف بن سعد　　　جمرات لا تشتهيها النعام

فكيف يقول هكذا رجل ذو عصبية قحطانية؟ كان بين أبي الطيب وأبي الحسين هذا مودة وهما في طبرية ولكن الشاعر لم يمدح صاحبه إلا بعد أن فارق طبرية، هل لنا أن نفسر هذا بأن الشاعر أراد أن يعتذر عن تأخره في مدح صديقه هذا وينفي عن نفسه تهمة تقديم القحطانيين عليه، ونستدل بما يقوله في القصيدة نفسها اعتذارًا عن التأخر:

قد لعمري أقصرْت عنك وللوفد　　　ازدحام وللعطايا ازدحام
خفت إن صرت في يمينك أن تأ　　　خذني في هباتك الأقوام
ومن الرشد لم أزُرْكَ على القر　　　ب، على البعد يعرف الإلمام
ومن الخير بطء سيبك عني　　　أسرعُ السحب في المسير الجهام

يمكن أن يقال هذا ويمكن أن يقال: إنه أراد أن يُرضي ممدوحه دون مبالاة بعصبية يمنية أو قيسية، ولكنا إذا رجعنا إلى الحقائق وتطلبنا الأدلة القاطعة لم نجد في شعر أبي الطيب ما يدلنا دلالة صريحة على أن الرجل يمانٍ أو مضري ولا ما ينبئ بعشيرة أو قبيلة.

فإن كان أبو الطيب كتم نسبه إشفاقًا مما عسى أن يكون بين قومه وبين القبائل من عداوة فما أحسب هذا الخوف صحبه طول عمره فما ذكر نسبه في فخر أو غيره، ثم قد أنبأنا الرواة أنه جعفي وأنه نسب إلى كندة إحدى محلات الكوفة إذ ولد بها حتى ظنَّ أنه كندي النسب، وهذا دليل آخر على خمول نسب شاعرنا، ثم اختلاف المؤرخين في تسمية أجداده دليل ثالث.

ومهما يكن فلا ريب أن شاعرنا كان عربيًّا قحًّا بل بدويًّا فلا يعيبه أن كان من بيت فقير، وكفاه أن كان كما وصف نفسه:

ولكنَّ قلبًا بين جنبيَّ ما له مَدًى ينتهي بي في مراد أحده
يرى جسمه يُكسى شُفوفًا ترُبُّه فيختار أن يُكسى دروعًا تهدُّه

الفصل الثاني

أسرة أبي الطيب

يتفق ثقات المؤلفين على أن أبا الطيب هو أحمد بن الحسين ثم يختلفون فيمن بعد هذا؛ فيقول بعضهم: الحسين بن الحسن بن عبد الصمد، ويقول آخرون: ابن مرة بن عبد الجبار.

وقد قدَّمت ما رواه الخطيب عن محمد بن يحيى العلوي، والقاضي ابن أم شيبان الهاشمي أن أبا المتنبي كان يسمى عبدان السقاء.

ويظهر كذلك من أبيات رواها الثعالبي في اليتيمة وياقوت في معجم الأدباء وابن خلكان أن أبا المتنبي كان سقاء: فقد هجاه ابن لنكك البصري حينما سمع بقدومه بغداد راجعًا من مصر ووقوع شعراء بغداد فيه فقال أبياتًا منها:

لكنَّ بغداد جاد الغيث ساكنَها نعالها في قفا السقاء تزدحم

وقال شاعر آخر:

أيُّ فضل لشاعر يطلب الفضـ ـل من الناس بكرة وعشيًّا
عاش حينًا يبيع في الكوفة الماء وحينًا يبيع ماء المُحَيَّا

ويخبرنا صاحب اليتيمة أن والد المتنبي «سافر به إلى الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضَرها ومن مَدرها إلى وبرها ويسلمه في المكاتب ويردُّده في القبائل ومخايلُه نواطق الحسنى عنه، وضوامن النجح فيه حتى تُوفِيَ أبوه وقد ترعرع أبو الطيب وشعرَ وبرع.»

وسواء أصحَّ ما يقوله الثعالبي عن سفر والده إلى الشام أم لم يصح؛ فما ذكر المتنبي والده بكلمة ولا رثاه حين مات كما رثى أبو العلاء المعري أباه وأمه رثاء بليغًا، وهذا يشهد بما اتفقت عليه الروايات من أن والد أبي الطيب لم يكن رجلًا نابه الشأن.

ولا نعرف شيئًا عن والدة المتنبي، ولعلها ماتت في حداثته قبل سفره إلى الشام، ولكنا نعرف عن جَدته لأمه ما رواه الخطيب عن محمد بن يحيى العلوي أنها كانت هَمْدانية صحيحة النسب وكانت من صلحاء النساء الكوفيات، وأظنها التي عناها حين قال:

أمُنْسيَّ السكون وحضرموتًا ووالدتي وكندة والسبيعا

فقد رثاها من بَعْدُ وسماها أمه. وقد رُوِي في الصبح المنبي وفي نسخة الشرواني:[١] أن أبا الطيب قال في الاعتقال:

بيدي أيها الأمير الأريب لا لشيء إلا لأني غريب
ولأمٍّ لها إذا ذكرتني دم قلب بدمع عين مشوب

فإن صح هذا فليس دليلًا قاطعًا على أن أمه كانت حية إذ ذاك، فإنه يسمي جدته أمًّا كما تقدَّم، وجدَّة المتنبي تفردت من بين أسرته برثاء أبان فيه الشاعر عن إجلالها وحبها، ووصفها أحسن الصفات.

وأخبرنا كما أخبرنا الرواة أنها ماتت فرحًا بكتاب جاءها منه بعد طول غيبة أيأستها. يقول الشاعر في أول هذه القصيدة التي مزج فيها الحزن بالثورة على الزمان وأهله:

ألا لا أرى الأحداث مدحًا ولا ذمًّا فما بطشها جهلًا ولا كَفُّها حلما
إلى مثل ما كان الفتى مرجعُ الفتى يَعُود كما أبدى ويُكري كما أرمَى
لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غيرِ مُلحقها وصما

[١] ننظر زيادات شعر المتنبي للشيخ عبد العزيز الميمني.

أحنُّ إلى الكأس التي شربت بها … وأهوى لمثواها التراب وما ضما
بكيتُ عليها خيفة في حياتها … وذاق كلانا ثُكلَ صاحبه قدما
ولو قتلَ الهجرُ المحبين كلهم … مضى بلد باق أجدَّت له صرما
عرفتُ الليالي قبل ما فعلتْ بنا … فلما دهتني لم تزدني بها علما
منافعُها ما ضرَّ في نفع غيرها … تغذى وتَروى أن تجوع وأن تَظما
أتاها كتابي بعد يأس وترحة … فماتت سرورًا بي فمتُّ بها غما
حرام على قلبي السرور فإنني … أعدُّ الذي ماتت به، بعدها سما
تعجَّب من لفظي وخطِّي كأنما … ترى بحروف السطر أغربة عُصما
وتلثمه حتى أصار مدادُه … محاجر عينيها وأنيابَها سحما

إلى أن يقول:

وما انسدَّت الدنيا عليَّ لضيقها … ولكنَّ طرفًا لا أراك به أعمى
فوا أسفا ألَّا أكبَّ مقبلًا … لرأسك والصدر اللذَيْ مُلئا حزما
وألا أُلاقي روحك الطيب الذي … كأنَّ ذكيَّ المسك كان له جسما
ولو لم تكوني بنتَ أكرم والد … لكان أباك الضخمَ كونُك لي أما

فقد أعلمنا شاعرنا أنه ترك في الكوفة بيتًا يحن إليه، وقلبًا يعطف عليه، وأن له جدَّة صالحة تؤثره على نفسها، أحبته وأحبها وحزنت لفراقه وحزن لفراقها.

وسنرى أثر هذا في سيرته من بعد.

الباب الثاني

سيرة أبي الطيب

الفصل الأول

من مولده إلى ذهابه إلى الشام

وُلِدَ أحمد بن الحسين في محلة كندة، إحدى محلات الكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة من الهجرة، قال أبو القاسم الأصفهاني في إيضاح المشكل:[١] «حدثني ابن النجار ببغداد أن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف بكندة بها ثلاثة آلاف من بين روَّاء ونساج.»

وقد أجمع من رووا أخبار المتنبي على أنه وُلد في هذا المكان وهذا التاريخ.

ولا نعرف من نشأته إلا نتفًا قليلة، روى صاحب الإيضاح أنه «اختلف إلى كتَّاب فيه أولاد أشراف العلويين فكان يتعلم دروس العربية شعرًا ولغة وإعرابًا فنشأ في خير حاضرة.»

وكان يختلف إلى الوراقين ليفيد من كتبهم وقد لفت الناس إليه بذكائه وحفظه. روى الخطيب عن التنوخي عن أبي الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدي: أنه نشأ محبًّا للعلم والأدب، وأنه تعلم القراءة والكتابة ولزم الأدباء والعلماء.

قال: «وأكثر ملازمة الوراقين فكان علمه من دفاترهم، فأخبرني ورَّاق كان يجلس إليه، يومًا قال لي: ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان قط، فقلت له: كيف؟ فقال: كان اليوم عندي وقد أحضر رجل كتابًا من كتب الأصمعي (سماه الوراق وأنسيه أبو الحسن) يكون نحو ثلاثين ورقة ليبيعه، قال فأخذ ينظر فيه طويلًا فقال له الرجل: يا هذا أريد بيعه وقد قطعتني عن ذلك، فإن كنت تريد حفظه في هذه المدة فبعيد؛ فقال له: إن كنت حفظته فما لي عليك؟ قال: أهب لك الكتاب. قال: فأخذت الدفتر من يده

[١] إيضاح المشكل من شعر المتنبي لأبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني ألفه لبهاء الدولة بن بويه، (خزانة الأدب جزء ١ ص٣٨٢ فما بعدها. ط القاهرة).

فأقبل يتلوه إلى آخره ثم استلبه فجعله في كمه وقام، فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن، فقال: ما إلى ذلك سبيل قد وهبته لي، قال: فمنعناه منه وقلنا له: أنت شرطت على نفسك هذا للغلام، فتركه عليه.»

وفي الإيضاح أن أبا الطيب «كان في صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوَّسه وأضلَّه كما ضلَّ.»

أقول: وأبو الفضل هذا هو، فيما يظهر، الذي مدحه بالقصيدة:

كفي أراني، ويك، لومك ألوما　　　همٌّ أقام على فؤاد أنجما

وفي الديوان أنه مدح بهذه القصيدة رجلًا أراد أن يستكشفه عن مذهبه.

وفي هذا دليل على أنه عُني بالمذاهب المختلفة في صباه واتصل ببعض أصحابها.

وقد روى الخطيب وغيره[٢] عن محمد بن يحيى العلوي أيضًا أنه قال عن أبي الطيب: «وصحب الأعراب في البادية فجاءنا بعد سنين بدويًّا قحًّا.»

ولسنا ندري متى ذهب أحمد إلى البادية، ولا كم أقام بها والعلوي يحدثنا أنه أقام سنين، وقد روى ابن الأثير وغيره أن القرامطة أغاروا على الكوفة سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة، وأغار القرامطة على الكوفة كرة أخرى سنة خمس عشرة وثلاثمائة وهزموا جيش الخلافة وأسروا أميره يوسف بن أبي الساج، فيحتمل أن المتنبي فارق الكوفة إلى البادية أحيانًا خوفًا من هذه الغارات، ولعل أهله تبدَّوا بسبب آخر، ومهما يكن سبب إقامته بالبادية ففيها دليل على صلة بين بيته والقبائل البادية، وقد عاش الرجل بدويًّا في خُلقه وإعجابه بالبداوة وخبرته بقبائلها ومواطنها ومسالكها.

وقد بقيت ذكرى وقعة القراطة بالكوفة في نفس أبي الطيب فحدَّث بها الحسن بن عبيد الله بن طُغُج في الرملة سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، ووصف ما كان من القتل فهال ذلك بعض الجلساء فقال أبو الطيب لابن طغج:

أباعث كل مكرمة طموح　　　وفارس كل سَلْهبة سَبوح

[٢] طبقات الأدباء لابن الأنباري والصبح المنبي للبديعي.

وطاعن كل نجلاءٍ غموسٍ وعاصِي كل عَذَّال نصيح
سقاني الله قبل الموت يومًا دم الأعداء من جوف الجروح

ويرى (بلاشير) في مقالة المتنبي من دائرة المعارف الإسلامية أن أبا الطيب ترك الكوفة إلى البادية أواخر سنة ٣١٢، وأنه أقام سنتين في بادية السماوة، ولست أدري كيف جزم بهذا التاريخ وكيف قدَّر المدة بسنتين، وأحسب هذا التقدير من أنه قرأ «سنين» سنتين في الخبر الذي رواه الخطيب وتبعه فيه صاحب الصبح المنبي.

ويرى الكاتب كذلك أنه ترك الكوفة إلى بغداد سنة ٣١٦، ولعل دليله في هذا الاستنتاج إغارة القرامطة على الكوفة تلك السنة، ولم أجد في أخبار أبي الطيب ما يعين تاريخ إقامته في البادية أو سفره إلى بغداد.

المتنبي في بغداد

روى البديعي في الصبح المنبي[٣] أن أبا الطيب حدث بهذا الحديث:

> وردت في صباي من الكوفة إلى بغداد فأخذت خمسة دراهم بجانب منديلي وخرجت ... إلخ.

ولسنا نعرف متى ذهب أبو الطيب إلى بغداد على التحقيق، وقد روى مؤلف النجوم الزاهرة في حوادث سنة تسع عشرة وثلاثمائة: أن القرامطة أغاروا على الكوفة في هذه السنة ففرَّ أهلها إلى بغداد فلعل الشاعر ذهب إلى بغداد إذ ذاك، ولعله ذهب إليها أكثر من مرة قبل ذهابه إلى الشام.

تلقي أبي الطيب اللغة والأدب

عرفنا أن أبا الطيب تعلم في كتَّاب بالكوفة ولزم الورَّاقين يقرأ في كتبهم، وصحب الأعراب حينًا فسمع اللغة وأفاد ما كان يفيده علماؤها من الرحلة إلى البادية ... وقال الخطيب في تاريخ بغداد: «وطلب الأدب وعلم العربية ونظر في أيام الناس وتعاطى

[٣] ص٥١ ط دمشق.

قول الشعر من حداثته حتى بلغ فيه الغاية التي فاق (فيها) أهل عصره، وعلا شعراء وقته.»

وقال الثعالبي في اليتيمة: «ذكرت الرواة أنه ولد بالكوفة في كندة سنة ثلاث وثلاثمائة، وأن أباه سافر به إلى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضرها ومن مدرها إلى وبرها، ويُسلمه إلى المكاتب، ويردِّده في القبائل، ومخايله نواطق الحسنى عنه، وضوامن النجح فيه حتى تُوفِيَ أبوه وقد ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع.»

نأخذ من هذه الرواية أن أباه كان يسلمه إلى المكاتب ويردِّده في القبائل، وأما قول الثعالبي إن ذلك كان في الشام فأحسبه وهمًا.

وبعدُ؛ فهل كان درس أبي الطيب اللغة والأدب في المكاتب، وبين أهل البادية فحسب؟ لا تدلنا الروايتان السالفتان على أكثر من هذا، ولم أجد في كتب المتقدمين غيره، ولكن وجدت في مقدمة نسخة من الديوان مكتوبة بخط مغربي وفي ورقة ملحقة بنسخة أخرى مكتوبة، وكلتاهما في دار الكتب المصرية، وجدت في هاتين النسختين رواية واحدة فيها ذكر شيوخ المتنبي الذين أخذ عنهم اللغة والأدب، وهي:

> أجمعت الرواة على أن المتنبي ولد بالكوفة لسنة ثلاث وثلاثمائة في كندة، وأنه من أوسطهم حسبًا، وبها نشأ وتأدَّب، ولما اشتدَّ ساعده هاجر إلى العلماء، ولقي أصحاب المبرد أبي العباس محمد بن يزيد فقرأ على أكابرهم منهم أبو إسحاق الزجاج وأبو بكر بن السراج وأبو الحسن الأخفش.
>
> ولقي أصحاب أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب فقرأ على: أبي موسى (الحامض) وأبي عمر الزاهد وأبي نصير.
>
> ولقي أصحاب أبي سعيد السكَّري فقرأ على نفطويه، وابن درستويه.
>
> ثم لقي خاتم الأدباء وبقية النجباء عالم عصره أبا بكر بن محمد بن دريد فقرأ عليه ولزمه ولقي بعده أكابر أصحابه، منهم: أبو علي الفارسي، وأبو القاسم عمر بن سيف البغدادي، وأبو عمران موسى، فبرع في الأدب.
>
> ولم يكن في وقته من الشعراء من يدانيه في علمه ولا يجاريه في أدبه.

وإذا رجعنا إلى ما نعرف من تاريخ هؤلاء الأدباء فأبو الطيب قد ولد وهم أحياء، ولكن بعضهم قد مات قبل أن يبلغ شاعرنا السن التي تمكنه من التلقي عنهم، فأصحاب المبرد الذين ذُكروا في هذه الرواية ماتوا وصاحبنا صغير، مات الزجاج سنة ٣١١، والأخفش سنة ٣١٥، وابن السرَّاج سنة ٣١٦.

وأبو موسى الحامض من أصحاب ثعلب مات سنة ٣٠٥، ومن عدا هؤلاء وهم بقية أصحاب ثعلب، وأصحابُ السكري وابنُ دريد وأصحابُه قد عاشوا إلى الزمن الذي يستطيع فيه أبو الطيب التعمق في درس اللغة والأدب، وابن دريد أسبقهم وفاة، تُوفِيَ سنة ٣٢١، وأبو الطيب إذ ذاك ابن ثماني عشرة، ثم ذِكرُ نفطويه وابن درستويه في أصحاب السكري، وذكرُ الفارسي في أصحاب ابن دريد خطأ.

فهذه الرواية عن شيوخ المتنبي تحتمل الصدق في جملتها لا في تفصيلها، وقد جعلت الرواية أخذه عن ابن دريد بعد أخذه عن أصحاب المبرد وثعلب والسكَّري، فإن صحَّ هذا فقد لقي شاعرنا ابن دريد في آخر حياته، وسنرى أنه رحل إلى الشام في السنة التي مات فيها ابن دريد، وأما الفارسي فقد لقيه في شيراز، وجائز أن يكون لقيه قبل هذا، وسنعود إلى هذا عند الكلام على معرفة أبي الطيب باللغة.

الفصل الثاني

متى رحل أبو الطيب إلى الشام؟

لا بد لنا بادئ بدء أن نبين، جهد الطاقة، السنة التي رحل فيها شاعرنا إلى الشام ليتسنى لنا أن نتعرف شعره الذي أنشأه في صباه بالعراق، وأن نتبين سيرته أول عهده بالشام، ونؤرخ بعض حادثاتها.

يرى كاتب مقال المتنبي في دائرة المعارف الإسلامية أن أبا الطيب ذهب إلى بغداد سنة ٣١٦ ثم رحل إلى الشام، ولا يدلنا على حجته في هذا، وأحسبه استنبط هذا من أن أبا الطيب نظم قصيدة في الشام قال فيها:

لأتركن وجوه الخيل ساهمة	والحرب أقوم من ساق على قدَم
والطعن يحرقها والزجر يقلقها	حتى كأنَّ بها ضربًا من اللمَم
قد كلمتها العوالي فهي كالحة	كأنما الصابُ مذرورٌ على اللجُم
بكلِّ منصلت ما زال منتظري	حتى أدلتُ له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلواتِ الخَمس نافلة	ويستحلَّ دم الحجاج في الحرم

فقد ظن الكاتب أن في هذه الأبيات إشارة إلى ما فعله أبو طاهر القرمطي في مكة سنة ست عشرة أو سبع عشرة وثلاثمائة إذ قتل الحجاج في الحرم وأخذ الحجر الأسود.

ولست أجد في هذا حجة للكاتب فإن صح أن في الأبيات إشارة إلى هذه الوقعة، فقد يشير الشاعر إلى وقعة بعد سنين من وقوعها، وليس بعيدًا أن يكون أبو الطيب سمع بوقعة أبي طاهر وهو بالعراق ثم أشار إليها في أبيات نظمها في الشام.

على أن الأبيات ليس فيها إشارة واضحة إلى أبي طاهر القرمطي وأصحابه، وجائز أنه أراد وصف أنصاره بالفتك والجرأة، كما وصف فتيانه بعد خروجه من مصر في القصيدة الميمية التي رثى فيها فاتكًا:

في غلمة أخطروا أرواحهم ورضوا   بما رضيتُ رضى الأيسار بالزلَم
في الجاهلية إلا أن أنفسهم   من طيبهن به، في الأشهر الحُرُم

يريد أنهم لا يعرفون التحليل والتحريم كأنهم في عصر الجاهلية، بل روى العكبري عن ابن القطاع أن الشيخ في هذه الأبيات هو السيف، وأن الشيخ والعجوز من أسمائه، واستشهد بقول أبي المقدام البصري:

رُبَّ شيخ رأيت في كفِّ شيخ   يضرب المُعَلمين والأبطالا

قال: وسمي السيف شيخًا لقدمه؛ لأنهم يمدحون السيوف بالقدم ... ا.هـ.

وأرى أن هذا ليس بعيدًا من أساليب أبي الطيب فقد وصف السيوف في القصيدة الميمية التي أولها:

«لا افتخار إلا لمن لا يضام» بقوله:

وعَوارٍ لوامع دينُها الحلُّ   ولكن زيَّها الإحرام

فقد وصف السيوف بنحو ما وصف به الشيخ في قوله:

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة   ويستحلُّ دم الحجَّاج في الحرَم

وأنا أرجِّح أن شاعرنا سافر إلى الشام سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وثَبَتَ هذا فيما يلي:

(١) قال أبو العلاء المعري في رسالة الغفران: «والذين رووا ديوان أبي الطيب يحكون أنه ولد سنة ثلاثمائة وثلاث، وكان طلوعه إلى الشام سنة إحدى وعشرين فأقام

فيه برهة ثم عاد إلى العراق، ولم تطل مدته هناك، والدليل على صحة هذا الخبر أن مدائحه في صباه إنما هي في أهل الشام إلا قوله:

كُفي أراني ويك لومك ألوما   همٌّ أقام على فؤاد أنجما»

(٢) وفي ديوان شاعرنا بين القصائد السيفية قصيدة أولها:

ذكر الصِّبَى ومراتع الآرام   جلبت حِمامي قبل يوم حِمامي

وفي شرح ابن جني والمعري والواحدي والنسخة (٣٥٠ – أدب) في دار الكتب المصرية أن أبا الطيب اجتاز برأس عين سنة ٣٢١ وقد أوقع سيف الدولة بعمرو بن حابس من بني أسد وبني ضبة ورياح من بني تميم، ولم ينشده إياها، فلما لقيه بإنطاكية دخلت في جملة مدائحه.

ولي بحث في أن هذه القصيدة من مدائح سيف الدولة أرجئه إلى الكلام عن المتنبي وسيف الدولة، فحسبي هنا أن أقول: إن الشاعر مر برأس عين سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ورأس عين مدينة في الجزيرة الفراتية بين حران ونَصيبين، فأكبر الظن أن أبا الطيب مرَّ بهذه المدينة في طريقه إلى الشام، ومن أجل ذلك كانت أول البلاد الشامية التي مدح فيها منبج وهي في شمالي الشام على مقربة من حلب، والطريق من العراق إلى الشام كانت إلى عصرنا هذا تساير الفرات إلى شمالي الشام.

الفصل الثالث

ما نظم أبو الطيب من الشعر قبل ذهابه إلى الشام

إن كان أبو الطيب برح العراق إلى الشام سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، كما بينا، فقد كانت سنه إذ ذاك ثماني عشرة سنة فما القصائد التي نظمها منذ قرض الشعر إلى أن بلغ هذه السن؟

لما بلغ الواحدي في شرحه القصيدة التي مطلعها:

أحيا وأيسرُ ما قاسيتُ ما قتلا والبينُ جارَ على ضعفي وما عدلا

كتب هذا العنوان: «في الشامية» يعني القصائد الشامية، ومعنى هذا أن هذه القصيدة وما يليها إلى الكافوريات نظمت في الشام، وأن القصائد والقطع التي قبل هذه القصيدة نظمت في العراق، وهي:

قصيدتان يمدح بإحداهما محمد بن عبيد الله العلوي المشطب، وبالأخرى رجلًا اسمه أبو الفضل أراد أن يستكشفه عن مذهبه وفيها غلوٌّ في المدح وشيء من عقيدة الحلول، ومطلعها:

كفي أراني، ويك، لومَك ألوما همٌّ أقام على فؤاد أنجمَا

وقطعتان فيهما خمسة أبيات في الغزل.

وثلاثة أبيات في هجاء رجل اسمه القاضي الذهبي.

وقطعة في رجلين قتلا جرذًا، وأبرزاه للناس يعجبان من كبره، يقول فيها:

لقد أصبح الجرذ المستغير أسيرَ المنايا صريع العطب
رماه الكناني والعامريُّ وتلاه للوجه فعلَ العرب
كلا الرجلين اتلى قتلَه فأيُّهما غلَّ حُرَّ السَّلب؟
وأيهما كان من خلفه فإنَّ به عَضة في الذنَب

وهي قطعة تدل على سخرية هذا الغلام الثائر من همة رجلين قتلا جرذًا. ثم ثلاث قطع هي فاتحة شعره الثائر الذي سنرى كثيرًا منه بعدُ:

قيل له وهو في المكتب ما أحسنَ هذه الوفرة فقال:

لا تُحسن الوفرة حتى تُرَى منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدةً يَعُلَّها من كلِّ وافي السبال

والقطعة الثانية أولها:

محبي قيامي ما لذلكم النصلِ بريئًا من الجرحى سليمًا من القتل؟

والثالثة يقول فيها:

إلى أي حين أنت في زيٍّ مُحرمِ
وحتى متى في شِقْوة وإلى كم؟
وإلا تمتْ تحت السيوف مكرَّما
تمت وتلاق الذل غير مكرَّم
فَثِبْ واثقًا بالله وثبة ماجد
يرى القتل في الهيجا جَنَى النحل في الفم

وقد تقدَّم قول المعرِّي أن مدائح أبي الطيب في صباه كلها في أهل الشام إلا القصيدة «كفي أراني، ويك، لومك ألوما» وينبغي أن يضاف إليها القصيدة الأخرى التي مدح بها العلوي المشطب، فهي أيضًا مما نظمه قبل سفره إلى الشام، كما يؤخذ من ترتيب شرح الواحدي. ودليل آخر أن أبا الطيب قال في هذه القصيدة:

ويا ليت بي ضربة أتيح لها كما أتيحت له محمَّدُها
أثَّر فيها وفي الحديد وما أثَّر في وجهه مُهنَّدُها

قال العكبري: «كان محمد بن عبيد الله هذا الممدوح قد واقع قومًا من العرب بظاهر الكوفة، وهو شاب دون العشرين سنة، فقتل منهم جماعة وجُرح في وجهه فكسته الضربة حسنًا، فتمنى أبو الطيب مثل ضربته، فهذا سمعته من جماعة من مشيخة بلدنا.» وبَيِّنٌ من هذا أن الممدوح عراقي جرح في وقعة بظاهر الكوفة ومدحه الشاعر بهذه القصيدة ذاكرًا هذه الواقعة، فقد كان مدحه في العراق.

وفي دائرة المعارف الإسلامية أن أبا الطيب مدح هذا العلوي في بغداد ولست أدري بم استدل الكاتب على هذا.

عاش أبو الطيب في العراق ثمانية عشر عامًا أمضى شطرًا منها في البادية، وقد حنَّ إلى موطن صباه قليلًا في شعره، وذكر أنه لم يوافقه، يقول في إحدى قصائد سيف الدولة:

تذكرتُ ما بين العُذَيب وبارقٍ مَجرَّ عوالينا ومَجرَى السوابق
وصُحبة قوم يذبحون قنيصهم بفضلة ما قد كسَّروا في المفارق
وليلًا توسَّدنا الثويَّة تحته كأنَّ ثراها عنبر في المرافق

ثم يقول:

وما بلد الإنسان غير الموافق ولا أهله الأدنون غير الأصادق

ويقول في قصيدة مدح بها سعيد بن عبيد الله الأنطاكي:

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني ولا أعاتبه صفحًا وإهوانًا
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني إن النفيس غريب حيثما كانا
مُحسَّد الفضل مكذوبٌ على أثَري ألقى الكميَّ ويلقاني إذا حانا

فهذا كلام يشف عن أن بلده قد نبا به.

ويقول الثعالبي: إن والد المتنبي سافر به إلى الشام، فإن صحَّ هذا فلا ندري لماذا سافر أبوه، وإن كان الشاب سافر وحده فقد نبا به العراق ورأى همته أكبر من جاهه وآماله أعظم من ثروته، فرأى أن بلادًا لا يعرف بها أوسع مضطربًا وأفسح مرتزقًا، وأسمع لشعره، وأقرب إلى ما يطمح إليه من سؤدد. وهو يقول في رثاء جدَّته، وقد رجع إلى العراق:

طلبت لها حظًّا ففاتت وفاتني وقد رضيتْ بي لو رضيت بها قسما
فأصبحت أستسقي الغمامَ لقبرها وقد كنت أستسقي الوغى والقنا الصُّمَّا

ومعنى هذا أنه ترك جدَّته في طلب حظها، وإنما تركها إلى الشام، وسنبين هذا من بعدُ.

الفصل الرابع

الشام في عهد أبي الطيب

١

ولَّى الخليفة العباسي المقتدر بالله محمد بن طُغج على الرملة سنة ست عشرة وثلاثمائة، ثم أضاف إليه دمشق بعد سنتين.

وكانت حلب إذ ذاك يتداولها ولاة يُرسَلون من بغداد.

ثم ولَّى محمد بن طغج مصر إلى ما في ولايته من الشام سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ثم عُزل عنها.

وفي عهد الخليفة الراضي بالله (٣٢٢–٣٢٩) عظم أمر ابن طغج فأعيدت ولايته على مصر سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وامتدَّ سلطانه على الشام كلها ولُقِّبَ الإخشيد.

٢

وخلع ابن طغج طاعة الخليفة الراضي فأرسل إليه محمد بن رائق فاستولى على الشام سنة ٣٢٨ وولَّى محمد بن يزداذ الشهرزوري حلب ثم دمشق.

وانتهى تنازع ابن رائق وابن طُغُج على الشام باستقرار ابن رائق في حلب ودمشق، واستقرار الإخشيد في الرملة وما يليها إلى مصر على أن يؤدِّي عن الرملة في كل سنة مائة وأربعين ألف دينار.

ثم سَيَّر الإخشيد جيشًا يقوده كافور وفيه مُسَاوِر بن محمد الرومي فهزم ابن يزداذ نائب ابن رائق واستولى على حلب.

وقُتل ابن رائق بالموصل بأيدي بني حمدان سنة ثلاثين وثلاثمائة فاستقرَّ سلطان الإخشيد على الشام كلها.

وبقيت الشام للإخشيد إلى أن جاء سيف الدولة فاستولى على حلب سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، وأخرج منها والي الإخشيد أحمد بن سعيد الكلابي أحد ممدوحي أبي الطيب، وكانت وقائع انتهت باستقرار سيف الدولة في حلب والإخشيديين في دمشق.

٣

فالشام كانت في عهد أبي الطيب مقسمة بين الإخشيد وابن رائق، ثم بين الإخشيد وسيف الدولة. كانت دمشق وما يليها إلى الجنوب في يد الإخشيديين إلا سنتين خرجت فيهما دمشق من سلطانهم إلى سلطان ابن رائق، وإلا فترة قصيرة استولى سيف الدولة عليها بعد موت الإخشيد.

وكانت حلب وما يليها في أيدي ولاة الخلفاء ثم الإخشيد ثم ابن رائق فالإخشيد فسيف الدولة.

٤

وقد مدح أبو الطيب من رجال هذه الوقائع مساور بن محمد الرومي، والحسين بن عبيد الله بن طغج وهو ابن أخي الإخشيد، وطاهرًا العلوي، فأما مساور فقد مدحه بقصيدتين: الأولى مطلعها:

جللا كما بي فليك التبريح　　　أغذاء ذا الرشأ الأغنِّ الشيح

والثانية:

أمساور أم قرن شمس هذا　　　أم ليث غاب يقدم الأستاذا

وذكر في هذه القصيدة ما فعل الممدوح بابن يزداذ نائب ابن رائق.

وسيأتي الكلام في مدح الحسن بن طغج وطاهر العلوي.

فقد ذكر أبو الطيب من رجال هذه الحادثات ابن يزداذ إذ قال في مدح مساور:

هبك ابن يزداذ حطمت وصحبه   أترى الورى أضحوا بني يزداذا

* * *

سدَّت عليه المشرفية طُرقه   فانصاع لا حلبًا ولا بغداذا
طلب الإمارة في الثغور ونشؤه   ما بين كَرْخايا إلى كَلْواذا

ومدح بدر بن عمَّار بقصائد كثيرة، وكان من رجال ابن رائق كما يأتي:
وكذلك ذكر الأستاذ كافورًا الإخشيدي في هذه القصيدة:

أمساور أم قرن شمس هذا   أم ليث غاب يقدم الأستاذا

فالأستاذ هو كافور.
وسيأتي الكلام في صحبة الشاعر بني حمدان ثم كافورا.

الفصل الخامس

أبو الطيب في الشام ٣٢١–٣٣٦

دعوى النبوة – إجمال سيرته في هذه المدة

سار أبو الطيب إلى الشام من طريق الجزيرة فمرَّ برأس عين وانتهى إلى منبج، وهنالك أقام يمدح جماعة من رؤساء العرب، وأول قصائده الشامية في الديوان يمدح بها سعيد بن عبد الله الكلابي المنبجي، وكان لبني كلاب جاه في نواحي حلب، وقد تولاها أحمد بن سعيد الكلابي نيابة عن الإخشيد سنة ٣٢٤، وفي ولايته قدم بنو كلاب من نجد فأغاروا على بعض البلاد الشامية. وفي هذه القصيدة يقول:

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والبين جار على ضعفي وما عدلا

* * *

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سُبُلا

* * *

يجنُّ شوقًا فلولا أن رائحة تزوره من رياح الشرق ما عقلا

ويقول في السفر:

كم مهمه قَذَف قلبُ الدليل به قلبُ المحب قضاني بعد ما مَطلا
عقدت بالنجم طرفي في مفاوزه وحُر وجهي بحر الشمس إذ أفلا
أوطأت صُمَّ حصاها خُف يَعمَلة تَغشْمرت بي إليك السهل والجبلا
لو كنتَ حشو قميصي فوق نُمرُقها سمعت للجن في غيطانها زجَلا

حتى وصلت بنفس مات أكثرها وليتني عشت منها بالذي فَضَلا

والظاهر أن هذا السفر الذي وصفه، سفرُه من العراق إلى الشام.
ثم مدح جماعة في منبج وطرابلس وغيرهما من الشام الشمالية.

تنبؤ أبي الطيب

قبل أن نُجمل الكلام عن سيرته في الشام إلى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، ينبغي أن نمحص وقعة كان لها أثر بليغ في حياة أبي الطيب، وفي صوغ سيرته في كتب الأدب، أعني ادعاء أبي الطيب النبوَّة وهو أمر اختلفت فيه الآراء، وخبط فيه بعض الرواة والباحثين خبط عشواء، ولعل في هذا البحث إبانة الصواب وفصل الخطاب.

نبدأ البحث بهذين السؤالين: هل ادَّعى أبو الطيب النبوة؟ وإن لم يكن ادعاها فلماذا لقِّب بالمتنبي؟

وإجمال الإجابة عن هذين السؤالين فيما يلي:

(أ) لا مرية أن أبا لطيب سُجن بالشام في شبابه، يتفق على هذا شعر أبي الطيب ورواة سيرته كلهم.

يقول شاعرنا في هذا مخاطبًا والي حلب:

أمالك رِقِّي ومَن شأنُه هباتُ اللُّجَين وعِتقُ العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموتُ مني كحبل الوريد
دعوتك لمَّا براني البِلَى وأوهنَ رجليَّ ثقلُ الحديد
وقد كان مشيُهما في النعال فقد صار مشيهما في القيود
وكنتُ من الناس في محفِل فها أنا في محفل من قرودِ

(ب) وأما الجناية التي سجن من أجلها فيخالف فيها شاعرُنا رواةَ سيرته، ويختلف فيها الرواة فيما بينهم.

في تاريخ الخطيب البغدادي روايتان هما أصلٌ لمعظم الروايات التي رويت في هذه القصة:

الأولى: أن أبا الطيب «لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادَّعى أنه علوي حسني ثم ادَّعى بعد ذلك النبوة، ثم عاد يدعي أنه علوي إلى أن أُشْهد عليه بالشام بالكذب في الدعويين، وحُبس دهرًا طويلًا وأشرف على القتل، ثم استُتِيب وأشهد عليه بالتوبة وأطلِق.»

والثانية: «أخبرنا التنوخي حدثني أبي قال: حدثني أبو علي بن أبي حامد قال: سمعت خلقًا بحلب يحكون، وأبو الطيب المتنبي بها إذ ذاك، أنه تنبأ في بادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قِبَل الإخشيدية فقاتله وأسره، وشرَّد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من القبائل، وحبسه في السجن حبسًا طويلًا، فاعتل وكاد أن يتلف حتى سُئل في أمره فاستتابه وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه، ورجوعه إلى الإسلام، وأنه تائب منه ولا يعاود مثله، وأطلقه.»

ويقول المعري في رسالة الغفران: وحدَّثني الثقة عنه حديثًا معناه أنه لما حصل في بني عدي وحاول أن يخرج فيهم قالوا له وقد تبينوا دعواه: «هاهنا ناقة صعبة؛ فإن قدرتَ على ركوبها أقررنا أنك مرسل»، وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل فتحيَّل حتى وثب على ظهرها، فنفرت ساعة وتنكرت برهة، ثم سكن نِفارها ومشت مَشي المُسْمِحة، وأنه ورد الحِلَّة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم.

وحُدِّثت أيضًا أنه كان في ديوان اللاذقية وأن بعض الكتَّاب انقلبت على يده سكِّين الأقلام فجرحته جرحًا مُفرطًا، وأن أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته وقال للمجروح: لا تحلها في يومك، وعد له أيامًا وليالي، وأن ذلك الكاتب قَبِل منه فبرئ الجرح، فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم الاعتقادات ويقولون هو كمحيي الأموات.

وحدَّث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ولقيهما كلب ألح عليهما في النُّبَاح ثم انصرف، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد: إنك ستجد ذلك الكلب قد مات، فلما عاد الرجل ألفى الأمر على ما ذكر، ولا يمتنع أن يكون أعدَّ له شيئًا من الطعام مسمومًا وألقاه له وهو يخفي عن صاحبه ما فعل، انتهت رواية المعري.

وفي الصبح المنبي للشيخ يوسف البديعي المتوفى سنة ١٠٧٣ وهو أجمعُ الكتب لأخبار المتنبي، روايةٌ طويلة عن رجل اسمه أبو عبد الله مُعاذ بن إسماعيل خلاصتها:

إن أبا الطيب قدم اللاذقية سنة نيف وعشرين وثلاثمائة وهو لا عذار له، وله وفرة إلى شحمتي أذنيه، فأكرمه معاذ ثم قال له: والله إنك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير، فقال: ويحك أتدري ما تقول: أنا نبي مرسل، ثم تلا عليه جملة من قرآنه وهو مائة وأربع عشرة عبرة، ثم أراه معجزة فمنع المطر عن بقعة وقف فيها فأصاب المطر ما حولها ولم تصبها قطرة، فبايعه معاذ وعمت بيعته كل مدينة في الشام، ثم عرف معاذ من بعد أن هذه حيلة صغيرة تُسمى صدحة المطر تعلمها أبو الطيب من عرب اليمن.

ثم قال البديعي بعد هذا: إنه لما شاع ذكر أبي الطيب وخرج بأرض سَلَمية من عمل حمص في بني عدي، قبض عليه ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها: كوتكين، وأمر النجار أن يجعل في رجليه وعنقه قُرمتين من خشب الصفصاف فقال:

زعم المقيم بكوتكين بأنه ... من آل هاشم بن عبد مناف
فأجبته مذ صرتَ من أبنائهم ... صارت قيودهم من الصفصاف

وكتب إلى الوالي من الحبس:

بيدي أيها الأمير الأريب ... لا لشيء إلا لأني غريب
أو لأم لها إذا ذكرتني ... دم قلب بدمع عين يذوب
إن أكن قبل أن رأيتك أخطأ ... ت فإني على يديك أتوب
عائب عابني لديك ومنه ... خلقت في ذوي العيوب العيوب

تلكم هي الروايات التي تَنسُب إلى أبي الطيب ادعاء النبوة، وينبغي أن نبدأ برواية الصبح المنبي فهي واهية لا تحتمل شدة النقد، وهي متضمنة أمورًا غير معقولة يدعي معاذ أنه رآها وذلك كافٍ في توهين روايته، ثم الرواية متناقضة، فقد آمن بمعجزة المتنبي وبايعه ثم وصفها بأنها «أصغر حيلة تعلمها من بعض العرب». ثم ادَّعى أن «بيعته عمت كل مدينة في الشام». ولم يروِ هذا أحد من الثقات.

ثم في ديوان أبي الطيب ما يكذب هذا، فيه قطعة عنوانها: وعذله أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقي على ما كان قد شاهده من تهوره فقال:

أبا عبد الإله معاذُ إني — خفي عنك في الهيجا مقامي
ذكرتَ جسيمَ ما طلبي وأنَّا — نخاطر فيه بالمُهَج الجِسام
أمثلي تأخذ النكباتُ منه — ويجزع من ملاقاة الحِمام
ولو برز الزمان إليَّ شخصًا — لخضَّب شعرَّ مفرقه حُسامي
وما بلغت مشيئتَها الليالي — ولا سارت وفي يدها زمامي
إذا امتلأت عيونُ الخيل منِّي — فويل في التيقظ والمنام

فترى أنه ليس في هذه القطعة إلا المخاطرة ومصاولة الأحداث فيما يطمح إليه من السؤدد، وليس فيها ذكر النبوة والمعجزة ولا ما يقرب منهما، وفي عنوان القصيدة أن معاذًا عذله على تهوره فقد رأى منه معاذٌ تهورًا لا معجزات.

وأما روايتا الخطيب ففي الرواية الأولى دعوى النبوة مسبوقة وملحوقة بدعوى العلوية، وفي هذا دليل على التباس الأمر على الناس في هذه القصة، والرواية الثانية التي رواها التنوخي عن أبي علي بن أبي حامد عن «خلق» بحلب، وفيها أن أبا الطيب ادعى النبوَّة، هي كغيرها من الروايات التي فسَّرت الدعوى التي سجن فيها أبو الطيب بأنها دعوى النبوة بعد أن لُقِّب الرجل بالمتنبي فالتمس الناس تأويلًا لهذا اللقب، وسيأتي تأويله.

وأما رواية المعري فليس فيها دعوى النبوة صراحة ولا يبعد أن أبا الطيب في عنفوان شبابه وفي ذكائه وطموحه ادَّعى دعوات وموَّه على الناس تمويهات كالتي رواها المعري.

ولو لم تعارض هذه الروايات روايات أخرى هي أجدر بالثقة لكان فيها مظنة للباحث، ولكن عندنا روايتين لرجلين من الثقات هما أبو منصور الثعالبي وأبو الفتح بن جني.

فأما الثعالبي ويكاد يكون معاصرًا أبا الطيب فيقول:

> وبلغ من كبر نفسه وبعد همته أنه دعا قومًا من رائشي نبله على الحداثة من سنِّه، والغضاضة من عوده، وحين كاد يتم أمر دعوته تأدى خبره إلى والي البلدة، ورفع إليه ما همَّ به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده.

ثم قال الثعالبي بعد أن روى أبياتًا من القصيدة التي نظمها في السجن: «ويحكى أنه تنبأ في صباه وفتن شرذمة لقوة أدبه وحسن كلامه.»

فالرواية التي ارتضاها الثعالبي أنه أراد أن يخرج على السلطان، وأما رواية التنبؤ فذيل بها الكلام قائلًا ويحكى. ففي عهد الثعالبي، وقد ولد قبل وفاة أبي الطيب بثلاث سنين، كانت رواية التنبؤ فرية تُحكى في الجملة، ولم يكن الرواة أيدوها بالمعجزات والقرآن.

وقال صاحب الإيضاح:

> ثم وقع إلى خير بادية ... فادعى الفضول الذي نبز به (لم يصرح المؤلف بدعوى النبوة) فنمى الخبر إلى أمير بعض أطرافها فأشخص إليه من قيده وسار به إلى محبسه، فبقي يعتذر إليه ويتبرأ مما وسم به في قصيدته التي يقول فيها:

فما لك تقبل زور الكلام ... وقدر الشهادة قدر الشهود

وقد هجاه شعراء وقته فقال الضبي:

الزم مقال الشعر تحظ بقربة ... وعن النبوة لا أبا لك فانتزح
تربح دمًا قد كنت توجب سفكه ... إن الممتع بالحياة لَمن ربح

فأجابه المتنبي:

أمري إليَّ فإن سمحت بمهجة ... كرمت علي فإن مثلي من سمح

وهجاه غيره فقال:

أطللت يأيها الشقي دمك ... بالهذيان الذي ملأت فمك
أقسمت لو أقسم الأمير على ... قتلك قبل العشاء ما ظلمك

فأجابه المتنبي.[١]

وترى في هذه الرواية أن صاحب الإيضاح، وهو معاصر، قال: «الهذيان الذي نبز به.» ولم يذكر دعوى النبوة.

كما يرى أن الذي هجاه بالبيتين الأخيرين لم يهجه بادعاء النبوة وهي أشنع تهمة ما كان ليتركها شاعر يهجو من ادعاها.

ويدل على أن المعاصرين لم يكونوا على بينة من ذلك ما رواه الخطيب عن التنوخي: فأما أنا فسألته بالأهواز سنة ٣٥٤ عند اجتيازه بها إلى فارس في حديث طويل جرى بيننا، عن معنى المتنبي؛ لأني أردت أن أسمع منه هل تنبأ أم لا، فأجابني بجواب مغالط لي وهو أن قال: هذا شيء كان في الحداثة … فهذا التنبؤ الذي صدقه المتأخرون لم يتبينه المعاصرون.

وإن كان أبو الطيب حين سئل عن معنى المتنبي أجاب بأن هذا شيء كان في الحداثة، فما هو هذا الشيء؟ إن كان ادعاء النبوة لم يكن في جواب الرجل مغالطة، وأية مغالطة بعد الاعتراف بأنه تنبأ في حداثته؟ لم يسمِّ الراوي كلام أبي الطيب مغالطة إلا لأنه لم يعترف بدعوى النبوة وذكر شيئًا كان في الحداثة وهو ثورته أو تشبيه نفسه بالأنبياء أو نحو هذين، ولم يصرح به.

ثم ابن الأثير وغيره رووا أخبار المتنبئين ولم يذكر أحدهم دعوى أبي الطيب.

وفي شرح ابن جني في عنوان قصيدة الحبس:

> وكان قوم قد وشوا به إلى السلطان في صباه وتكذبوا عليه وقالوا له: قد انقاد له خلق كثير من العرب، وقد عزم على أخذ بلدك حتى أوحشوه منه فاعتقله وضيَّق عليه فكتب إليه يمدحه.

وقريب من هذا في شرح الواحدي والعكبري وفي كل نسخ الديوان التي اطلعت عليها.

---

[١] تنظر الأبيات في زيادات نسختي من الديوان ص٥٣١، ٥٣٤ والأبيات كلها منسوبة إلى الضرير الضبي أو الضب الضرير، وهما واحد فيما يظهر.

وإجماع هذه الروايات على أن الرجل دعا الناس إلى أمر وسجن فيه، ثم تختلف الروايات في أنها دعوة نبوة أو غيرها وفي أنها كانت في السماوة أو في أرض سَلَميَّة من أعمال حمص.

ولا بد أن نرجع إلى ديوان الشاعر نفسه لنرى ماذا قال في القصيدة التي كتبها في السجن يستعطف الوالي لنتبين كنه هذه التهمة، قال:

تَعجَّل فيَّ وجوب الحدود وحدِّي قبل وجوب السجود
وقيل عدوت على العالمين بين ولادي وبين القعود
فلا تسمعن من الكاشحين ولا تعبأنَّ بمحك اليهود
وكن فارقًا بين دعوى أردتُ ودعوى فعلتُ بشأوٍ بعيد

فأبو الطيب يقول، وهو في مقام الاستعطاف والاستغفار لا الإنكار والعناد:

إني اتهمت بالعدوان على العالمين، بل اتهمت بأني أردت ذلك ولم أتهم بأني فعلت، وما عرض للتنبؤ ينكره أو يستغفر منه، ولو أنه اتهم به لما أغفله في قصيدته.

هذا «العدوان على العالمين» الذي سجن وهو يتهيأ له، يغلب أن يكون خروجًا على السلطان ويغلب أن يكون مقرونًا بدعوى من الدعاوى الشائعة في ذلكم العصر، وتفسرها رواية الخطيب أنه ادعى أنه علوي، وليس بعيدًا أن يكون أبو الطيب كتم نسبه لتتسنى له هذه الدعوى.

ولم يكن تحدث الرجل بالثورة وقتل الأمراء واغتصاب الملك أمرًا خفيًّا فقد ملأ به شعره وجعله كالنسيب في قصائد المدح.

وبعدُ؛ فلماذا سُمي المتنبي إن كان لم يتنبَّأ؟

هذا السؤال في رأيي، هو الذي أوحى إلى كثير من الناس قصة التنبؤ، أرادوا أن يفسروا هذا اللقب وتفسيره يسير، فالمتنبي في اللغة من يدَّعي أنه نبي، وكثيرًا ما نرى الناس يخلقون قصة لتفسير اسم مدينة أو قبيلة، فلم تكن قصة المتنبئ إلا من هذا القبيل، والرجل كثير الأعداء والحساد كما قال، ويسَّر لهم هذا الافتراء أن الرجل دعا الناس دعوة، وقال كلامًا فسُجن وشاع أمره، فلما لقب المتنبئ جعلوا هذا السجن من أجل التنبؤ وذاعت الرواية على مرِّ الزمان.

وجواب السؤال في قول ابن جني في شرح الديوان، وفيما رواه عنه الثعالبي في اليتيمة، يقول ابن جني في شرح البيت:

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

«بهذا البيت سُمي المتنبي.» وقال الثعالبي: «وحكى أبو الفتح عثمان بن جني قال: سمعت أبا الطيب يقول: إنما لُقبت بالمتنبي لقولي: أنا في أمة تداركها الله ... إلخ.»
وفي القصيدة نفسها بيت آخر:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

فقد شبه نفسه بالأنبياء مرتين في قصيدة واحدة فلقَّبه بعض حساده «المتنبي» فذاعت، ثم وضعت القصة، واحتاجت النبوة إلى قرآن فرووا له قرآنًا.
ورواية أخرى رواها ياقوت مؤلف معجم الأدباء عن الناشئ الشاعر تدل على أنه لم يُلقب بالمتنبي وقت سجنه ولا في السنة التي سُجن فيها. قال:
وحدَّث الخالع قال: حدَّثني أبو الحسين الناشئ قال: كنت بالكوفة في سنة ٣٢٥ وأنا أملي شعري في المسجد الجامع بها والناس يكتبونه عني، وكان المتنبي إذ ذاك يحضر معهم، وهو بَعد لم يُعرَف ولم يُلقب بالمتنبي.
وكان أبو الطيب ينكر التنبؤ حين يفتريه عليه أعداؤه.
روى الخطيب عن أبي علي بن حامد:

> وكان المتنبي إذا شوغب في مجلس سيف الدولة، ونحن إذ ذاك بحلب، نذكر له هذا القرآن وأمثاله مما كان يُحكى عنه فينكره ويجحده.

وقال له ابن خالويه النحوي يومًا في مجلس سيف الدولة: «لولا أن الآخر[٢] جاهل لما رضي أن يدعى المتنبي؛ لأن متنبي معناه كاذب، ومن رضي أن يدعى بالكذب فهو

[٢] الآخر: كلمة تقال عند الخطاب بكلام مكروه، كما نقول البعيد أو الأبعد أحمق، وكذلك ألفيتها في كلام المتقدمين.

جاهل.» فقال له: «أنا لست أرضى أن أدعى بهذا، وإنما يدعوني به من يريد الغض مني ولست أقدر على الامتناع.»

فلو أن الأمر كان معروفًا ما استطاع أبو الطيب المكابرة فيه.

متى سجن أبو الطيب؟

ليس في نسخ الديوان وشروحه ولا في كتب الأدب والتاريخ ما يبين السنة التي سجن فيها الشاعر. وسجن أبي الطيب في أمر اتهم به كما ذكرنا آنفًا قد أثر في نفسه وفي كلام الناس فيه فهو جدير بالعناية، وقد جهدت في أن أؤرخ هذا الحدث وهذا السجْن فانتهيت إلى نتيجة أراها جديرة بقبول الباحثين في هذا الحدث المبهم الذي لم يؤرخه أحد من قبل. وإليك البيان:

في زيادة شعر أبي الطيب من نسخة الديوان التي نشرتها[٣] قصيدة عنوانها: وقال يمدح ابن كيغلغ وهو في حبسه وأولها:

شغلي عن الربع أن أسائله وأن أطيل البكاء في خَلَقه
بالسجن والقيد والحديد وما ينْقض عند القيام من حَلَقه
في كل لص إذا خلوت به حدَّث عن جحده وعن سَرَقه

ويقول فيها:

يأيها السيد الهمام أبا العباس والمستعاذ من حنقه
يا من إذا استنكر الأنامُ به مات جميع الأنام من فرقه
في كل يوم يسري إلى عمل في عسكر لا يُرَى سوى حَدَقه
الله يا ذا الأمير في رجل لم تُبق من جسمه سوى رَمَقه
كم ضو صبح رجاك في غده وجنح ليل دعاك في غسقه
ناداك من لجة لتنقذه من بعد ما لا يشك في غرَقه

[٣] ص٥٢٧.

فمن أبو العباس بن كيغلغ الذي استغاث به الشاعر؟

هو أحد قواد الدولة العباسية كان له شأن في حوادث القرن الرابع الهجري، وقد ولي مصر مرات منها ولايته سنة ٣٢١هـ. تولَّى في رمضان من هذه السنة، وبقي حتى أخرجه منها محمد بن طغج في شعبان سنة ٣٢٣. والشام كانت إذ ذاك في سلطان والي مصر.

فأكبر الظن أن أبا الطيب كان في الحبس وابن كيغلغ والٍ على مصر أي بين رمضان سنة ٣٢١ وشعبان ٣٢٣هـ، ويبعد أن يكون حبس قبل ولاية ابن طغج فقد قدم الشام سنة ٣٢١هـ، ويؤخذ من ديوانه أنه لبث زمنًا في الشام قبل السجن.

ويمكن الاستدلال على هذا بالقصيدة التي أولها:

حاشى الرقيب فخانته ضمائره وغيَّض الدمع فانهلَّت بوادره

ففي بعض نسخ الديوان أنها أنشئت في مدح جعفر بن كيغلغ وفي بعضها أنها في مدح أحد أمراء حمص وأنه لم ينشدها أحدًا، فإن قدَّرنا أن جعفر بن كيغلغ تولى حمص أيام ولاية قريبه أبي العباس على مصر والشام فالشاعر لم يذكر السجن فيها ولم يستنجد الأمير ليطلقه كما قال في القصيدة التي مدح بها أبا العباس والقصيدة الدالية التي يأتي ذكرها، وفي هذا دليل على أن ولاية ابن كيغلغ عادت إلى مصر والشام سنة ٣٢١هـ، والشاعر طليق لم يحبس، فإن قلنا: إن الشاعر حبس بعد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وقبل نهاية سنة ثلاث وعشرين فإلى متى لبث في السجن؟ إليك هذا الجواب:

يقول في مدح الوالي الذي أرسل إليه القصيدة وهو في سجنه:

رَمى حلبًا بنواصي الخيول وسُمْر يُرِقن دمًا في الصعيد
وبيض مسافرة ما يُقِمن لا في الرقاب ولا في الغمود
يَقُدن الفناء غداة اللقاء إلى كل جيش كثير العديد
فولى بأشياعه الخرشنيُّ كشاء أحسَّ زئير الأسود
يَرَون من الذعر صوت الرياح صهيلَ الجياد وخفقَ البنود

قال الواحدي والعكبري: الخرشني نسبه إلى خرشنة وهي من بلاد الروم، وتبعهما الشرَّاح الآخرون حتى المتأخرون كاليازجي والبرقوقي، وليس في هذا جدوى، فالخرشني

منسوب إلى خرشنة، لا يحتاج هذا إلى بيان؛ ولكن من هذا الخرشني؟ الذي يبحث في تاريخ الدولة العباسية في تلك السنين يرى اسم بدر الخرشني مذكورًا في وقائعها مكررًا، كان من قوَّاد الدولة واستعمله الراضي على الشرطة سنة ٣٢٢، وجعله حاجب الحجاب سنة ٣٢٩، وقلده طريق الفرات سنة ٣٣٠، فسار إلى الإخشيد مستأمنًا فولاه دمشق فلبث بها قليلًا ومات.

فهل الخرشني الذي ذكره أبو الطيب هو بدر الخرشني؟

في كتاب تاريخ حلب لمحمد راغب الطباخ عن زبدة الحلَب «أن الراضي بالله خاف على بدر الخرشني من الغلمان الحجَرية أن يفتكوا به فقلَّده حلب وأعمالها سنة أربع وعشرين وثلاثمائة فسار إليها وأخرَج عنها واليها طريف بن عبد الله السبكري، وأقام بها مدة يسيرة ثم رجع إلى بغداد وتولى طريف حلب مرَّة أخرى.»

فالظاهر أن الخرشني الذي ذكره أبو الطيب هو بدر الخرشني، وأن الوقعةَ التي ذكرها الشاعر، الوقعةُ التي هَزَم فيها الخرشنيَّ هذا الوالي الذي حبس أبا الطيب، كانت حينما استولى الإخشيد على حلب سنة ٣٢٤هـ.

وقد ذكرنا آنفًا أن الخرشني ذهب إلى الإخشيد من بعد مستأمنًا سنة ٣٣٠، فهذا الاستئمان يدل على عداوة كانت بينهما، والظاهر أنه حارب الإخشيد في الحادثات التي وقعت بين الإخشيد وولاة الخلافة في الشام.

ويؤيد ما ذهبت إليه في هذه المسألة قول أبي العلاء المعري في شرح ديوان أبي الطيب: «الخرشني والي حلب»، ويؤيده أيضًا رواية ذكرها الخطيب البغدادي وغيره أن الذي سجن الشاعر لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية.

يؤخذ مما تقدم أن سجن أبي الطيب كان بعد استيلاء الإخشيديين على الشام سنة ٣٢١هـ، واستمر إلى أن أخرج بدر الخرشني من حلب.

فأكبر الظن أن أبا الطيب سجن سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، ولبث في السجن إلى سنة أربع وعشرين، ويؤيد قول بعض الرواة إنه حبس سنتين ما ذهبتُ إليه في هذه المسألة.

إجمال سيرته في الشام

لبث أبو الطيب بالشام خمس عشرة سنة لا يستقر في بلد، يقصد الممدوحين فيخيبون رجاءه أو يعطونه نزرًا، فيثور ثم تضطره الحاجة إلى المدح، مدح اثنين وثلاثين رجلًا بأربع وأربعين قصيدة، وأنْبه ممدوحيه في ذلك العهد التنوخيون باللاذقية، وبدر بن عمار الأسدي نائب ابن رائق في طبرية وله فيه خمس قصائد وقطع كثيرة، وفي هذا دليل على أنه نال منه ما أرضاه، وأطال صحبته إياه، ومساور بن محمد الرومي والي حلب، وقد صحب التنوخيين وابن عمار زمنًا كما يتبين من شعره.

وأكثر البلاد نصيبًا من مدائحه: منبج، وإنطاكية، واللاذقية، وطبرية، وقد مدح أيضًا في طرابلس، وطرسوس، وجبل جرش ودمشق والرملة، ورثى محمد بن إسحاق التنوخي بأربع قصائد قصيرة، ونظم في الهجاء قصيدة وقطعتين.

ونظم خمس قصائد لنفسه يعرب عن مطامعه ويفخر ويهدد، وتلكم أحسن القصائد إبانة عن آماله وآلامه.

وكان في أكثر قصائد المدح يفخر بنفسه ويشكو زمانه ويذم أهل الزمان ويتوعدهم.

فأما المدح فلم يُجَز عليه إلا بالعطاء النزر، على كثرة ما بالغ واحتفل، يقول في مدح علي بن إبراهيم التنوخي:

أشِرْتُ أبا الحسين بمدح قوم نزلتُ بهم فسرت بغير زاد

وروى ياقوت في معجم الأدباء عن علي بن حمزة راوية المتنبي أنه لما مدح محمد بن زريق الطرسوسي بقصيدته:

هذي برزتِ لنا فهجتِ رسيسا ثم انثنيتِ وما شفيت نسيسا

وصله عليها بعشرة دراهم، فقيل له: إن شعره حسن، فقال: ما أدري أحسن هو أم قبيح؛ ولكن أزيده لقولك عشرة دراهم، فكانت صلته عليها عشرين درهمًا.[٤]

[٤] ياقوت جزء ٥ ص٢٠٤.

وروى الثعالبي أن علي بن منصور الحاجب الذي مدحه بقصيدته:

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غواربا   اللابساتُ من الحرير جلاببا

أعطاه دينارًا فسميت القصيدة الدينارية.
وأبو الطيب يشكو الزمان في هذه القصيدة ثم يقول:

حالٌ متى علم ابنُ منصور بها   جاء الزمان إليَّ منها تائبًا

ويقول الأصفهاني في إيضاح المشكل: «ثم جئنا إلى حديثه وانتجاعه ومفارقة الكوفة وتطوافه في أطراف الشام، واستقرائه بلاد العرب ومقاساته الضر وسوء الحال ونزارة كسبه وحقارة ما يوصل به حتى إنه أخبرني أبو الحسن الطرائفي ببغداد، وكان لقي المتنبي دفعات في حالتي عسره ويسره، أن المتنبي قد مدح بدون العشرة والخمسة من الدراهم.»

وأبو الطيب نفسه يقول في القصيدة الدالية التي مدح بها ومطلعها: «أحاد أم سداس في أحاد.»

وشَغل النفس عن طلب المعالي   ببيع الشعر في سوق الكساد

ولا ريب أن كبار الممدوحين أعطوه عطاء أرضاه، يقول في مدح الحسين بن علي الهمداني:

مدحت أباه قبله فشفى يدي   من العُدم من تُشفى به الأعين الرمد
حباني بأثمان السوابق دونها   مخافةَ سيري، إنها للنوى جُند
وشهوة عود إنَّ جود يمينه   ثُناء ثُناء، والجواد بها فرد
فلا زلت ألقى الحاسدين بمثلها   وفي يدهم غيظ وفي يدي الرفد
وعندي قباطيُّ الهمام وماله   وعندهم مما ظفرت به الجحد

ويقول في مدح علي بن إبراهيم التنوخي:

من بعد ما صِيغ من مواهبه   لمن أُحِب الشنوفُ والخدَم

ولما مدح علي بن أحمد المري حمله على فرس[٥] ولما نزل على علي بن عسكر ببعلبك خلع عليه وَحَمَلَه.

وفي طول مقامه عند بدر بن عمار، ومدحه بخمس قصائد من جيد شعره دليل على أنه نال منه ما أرضاه، وقد وجد في بدر بن عمار أميرًا عربيًّا ذا مكانة فصحبه مدة وطاب عيشه عنده حتى فارقه بعد أن أقام عنده أكثر من سنة ومدحه بخمس قصائد وقطع كثيرة، والظاهر أن رجلًا اسمه ابن كروس أفسد ما بينه وبين بدر فتركه ومدح علي بن أحمد المرِّي بقصيدة تنبئ عن سخطه وثورته، القصيدة التي مطلعها:

لا افتخار إلا لمن لا يضام   مدرك أو محارب لا ينام

وأنشأ بعدها قصيدة يصف سيره في البوادي ويذم الأعور ابن كروس أولها:

عذيري من عذارَى من أمور   سكنَّ جوانحي بدل الخدور

ويقول فيها:

أوانا في بيوت البدو رحلي   وآونة على قتد البعير
أعرض للرماح الصمِّ نحري   وأنصب حرَّ وجهي للهجير
وأسري في ظلام الليل وحدي   كأني منه في قمر منير

[٥] النسخة ٥٣٠ أدب دار الكتب المصرية.

ثورة نفسه في هذا العهد

وكان أبو الطيب في هذا العهد يلهج بالمجد والسؤدد والغلبة والملك، ويذكر أن له مطالب جسامًا، ويرى نفسه أحق بالسؤدد ممَّن سادوا.

فمن ذلك قوله في صباه:

ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلى   تَساوى المحايي عنده والمقاتل

وقوله في شعر الصبا أيضًا:

لقد تصبرتُ حتى لاتَ مصطبر   فالآن أقحم حتى لات مُقتحَم
لأتركنَّ وجوه الخيل ساهمةً   والحربُ أقومُ من ساق على قدم
والطعنُ يُحرقها والزجرُ يُقلقها   حتى كأنَّ لها ضربًا من اللَّمم
قد كلَّمتْها العوالي فهي كالحة   كأنما الصلب مذرور على اللُّجُم
بكل منصلتٍ ما زال منتظري   حتى أدَلتُ له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة   ويستحلُّ دم الحجاج في الحرم

ولما لامَهُ معاذ بن إسماعيل اللاذقي على تهوُّره قال:

أبا عبد الإله معاذَ إني   خفيٌّ عنك في الهيجا مَقامي
ذكرتُ جسيم ما طلبي وإنَّا   نخاطر فيه بالمهج الجسام
أمثلي تأخذ النكباتُ منه   ويَجزع من ملاقاة الحِمام
ولو برز الزمان إليَّ شخصًا   لخضَّب شعر مفرِقه حسامي

وعُرض عليه الشراب فقال:

ألذُّ من المدام الخندريس   وأحلَى من معاطاة الكئوس
معاطاةُ الصفائح والعوالي   وإقحامي خميسًا في خميس
فموتي في الوغى عيشي لأني   رأيت العيش في أرَب النفوس

ويقول:

لأحبتي أن يملئوا　　بالصافيات الأكوبا
وعليهم أن يبذلُوا　　وعلـيَّ ألا أشربا
حتى تكون الباترا　　ت المسمعات فأطربا

ويقول في القصيدة التي رثى فيها جدته:

يقولون لي ما أنت؟ في كل بلدة　　وما تبتغي؟ ما أبتغي جلَّ أن يُسمَى

ويسمي ما يطلبه حقًّا له:

سأطلب حقِّي بالقنا ومشايخ　　كأنهم من طول ما التثموا مُرد
ثقالٍ إذا لاقوا، خفاف إذا دُعوا　　قليلٍ إذا عُدُّوا كثيرٍ إذا شَدُّوا

ويتعجل هذا المطلب أحيانًا فيقول:

لله حال أرجِّيها وتُخلفني　　وأقتضي كونَها دهري ويمطُلني

ويلوم نفسه على التواني:

إلى كم ذا التخلف والتواني　　وكم هذا التمادي في التمادي؟
وشَغل النفس عن طلب المعالي　　ببيع الشعر في سوق الكساد

وأما وسيلته إلى آماله فالحرب والفتك وقتل الرؤساء.

وقد جعل هِجِّيراه التغني بالطعن والضرب، وكرَّره في قصائد المدح وقصائد أخرى أعرب فيها عن آماله وآلامه.

عذله أبو سعيد المخيمري — وبنو مخيمر من طي النازلين بمنبج — على تركه لقاء الأمراء فقال:

أبا سعيد جنِّب العتابا فرُبَّ رأي أخطأ الصوابا
فإنهم قد أكثروا الحجَّابا وأوقفوا لردِّنا البَوَّابا
وإن حد الصارم القِرضابا والذابلاتِ السمرَ والعِرابا
ترفع فيما بيننا الحجابا

ويقول في آخر قصيدة مدح:

أذاقني زمني بلوى شرقتُ بها لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا
وإن عَمِرت جعلت الحرب والدة والسمهريَّ أخًا والمشرفيَّ أبا
بكل أشعث يلقى الموت مبتسمًا حتى كأن له في قتله أربا
قُحٌّ يكاد صهيلُ الخيل يقذِفه عن سرجه مرَحًا بالغزو أو طربا
فالموت أعذر لي، والصبر أجمل بي والبرُّ أوسع، والدنيا لمن غلبا

وقد بلغ من كلفه بهذا الضرب من القول أنه جعله في أول قصائد المدح كالنسيب عند الشعراء الآخرين فهو يقول في مطلع القصيدة التي مدح بها علي بن إبراهيم التنوخي:

أحادٌ أم سُداس في أحاد لييلتنا المنوطةُ بالتناد
كأن بنات نعش في دُجَاها خرائدُ سافراتٌ في حِداد
أفكر في معاقرة المنايا وقود الخيل مشرفةَ الهوادي
زعيمٌ للقنا الخطي عزمي بسفك دم الحواضر والبوادي

وفي مطلع قصيدة أخرى مدح بها المغيث بن علي بن بشر العجلي:

فؤاد ما تسليه المُدام وعُمرٌ مثلُ ما يهب اللئام
ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضِخام

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن مَعدنُ الذهب الرغام

وقد بلغ ولعه بهذا الكلام وقلة مبالاته بالناس أن توعَّد بقتل الممدوحين في قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الله الخصيبي:

مدحت قومًا وإن عشنا نظمتُ لهم قصائدًا من إناث الخيل والحُصُن
تحتَ العجاج قوافيها مضمَّرة إذا تُنوشدن لم يدخلن في أذن

بل يغلبه الوهم فيذكر أنه حارب وقتل، ولسنا ندري متى فعل.

ومطالبٍ فيها الهلاك أتيتها ثبتَ الجنان كأنني لم آتها
ومقانبٍ بمقانبٍ غادرتها أقواتَ وحش كنَّ من أقواتها

وكان هذا الرجل الثائر الطامح إلى المُلك، فقيرًا لا يقدر على العيش الرغد، وقد ردَّد شكواه في شعره، يقول في إحدى قصائد الصبا:

أين فضلي إذا قنعتُ من الدهر بعيش مُعجَّل التنكيد
ضاق صدري وطال في طلب الرز ق قيامي وقلَّ عنه قعودي

ويقول:

لُم الليالي التي أخنت على جِدتي برقَّة الحال واعذرني ولا تَلُم

ويقول في القصيدة التي مدح بها علي بن منصور الحاجب فأعطاه عليها دينارًا:

أظمتني الدنيا فلما جئتها مستسقيًا مطرتْ عليَّ مصائبا
وحُبيتُ من خُوص الركاب بأسودٍ من دارش فغدوت أمشي راكبا[٦]

---

[٦] يعني أنه لم يجد من الركاب إلا نعلًا سوداء.

ويقول في قصيدة أخرى:

ولـمـا قـلَّت الإبـل امـتـطـيـنـا　　　إلى ابن أبي سليمان الخطوبا

فهذا ينبئ أنه كان عاجزًا عن راحلة يركبها إلى الممدوحين.

وكان كما يقول الثعالبي: «يجشم نفسه أسفارًا أبعد من آماله، لا يستقر ببلد، ولا يسكن إلى أحد.»

برتني السُّرى بريَ المُدى فرددنني　　　أخفَّ على المركوب من نَفسي جِرمي

* * *

ألـفـت تـرحـلـي وجـعـلـت أرضـي　　　قُـتـودي والـغُـرَيـرِي الـجُـلالا

* * *

أوانًـا فـي بـيـوت الـبـدو رحـلـي　　　وآونـةً عـلـى قَـتَـد الـبـعـيـر

* * *

كأني من الوجناء في ظهر مَوجة　　　رمت بي بِحَـارًا ما لـهنَّ سـواحل
يُـخـيَّـل لـي أن الـبـلاد مـسـامـعـي　　　وأنـي فـيـهـا مـا تـقـول الـعـواذل

وكان من بعد همته، وسعيه وإخفاقه، سخطه على الزمان وأهله حتى حسب الدهر حربًا عليه، والناس كلها عدوًّا له والآكام حانقة عليه، يقول في قصيدة أنشأها بعد فراق بدر بن عمار يهجو في آخرها ابن كرَوس:

فقل في حاجة لم أقض منها　　　على شغفي بها شروَى نقير
وكف لا تـنـازع مـن أتـانـي　　　ينازعني سوى شرفي وخيري
وقـلـة نـاصـر جوزيتَ عنِّـي　　　بـشـرٍّ منك يـا شـر الدهـور
عدوِّي كلُّ شـيء فيك حتى　　　لخلتُ الأُكْم موغَرة الصدور

ويقول مخاطبًا الأسد:

ورائي وقُدَّامي عُداةٌ كثيرة　　　أحاذر من لصٍّ ومنك ومنهم

ويقول:

وإنما نحن في جيل سَواسيةٍ　　　شرٍّ على الحر من سقم على بدن
حَولي بكل مكان منهم خِلَق　　　تُخطي إذا جئتَ في استفهامها بمن
لا أقتري بلدًا إلا على غَرَر　　　ولا أمرُّ بخَلق غيرِ مضطغن

ويغلو في تحقير الناس فيقول:

أذم إلى هذا الزمان أهيلَه　　　فأعلمُهم فدمٌ وأحزمهم وَغْد
وأكرمهم كلب، وأبصرهم عَمٍ　　　وأسهدهم فَهد، وأشجعهم قِرد
ومن نكد الدنيا على الحرِّ أن يرى　　　عَدوًّا له ما من صداقته بدُّ

ولا ريب أن في هذا الشعر ما يبين عن غروره وزهوه وإعجابه بنفسه. وقد صرَّح بذلك في مواضع من شعره، يقول في قصيدة من قصائد الصبا:

إن أكن معجبًا فعُجبُ عجيبٍ　　　لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا تِربُ الندى وربُّ القوافي　　　وسِمام العِدى وغيظُ الحسود
أنا في أمة تداركها الله　　　غريب كصالح في ثمود

وهنا يسأل الباحث: أكان أبو الطيب يفكر في الحرب والتغلب كما ينطق شعره أم هي نفثات رجل عاجز مغرور يعلِّل نفسه بالقول حين فاته الفعل؟

أحسَب أبا الطيب كان يفكر في الثورة والغلبة ولا يجد وسائلها فيرتقب أن تتاح له، وبُرهان هذا أنه همَّ بالثورة أول عهده بالشام وحُبس، وأنه أعرب عن عزمه على

الحرب بعد أن ذهبت عنه نشوة الصبا، وبعد أن كفَّ عن الكلام الثائر الذي قدَّمتُ بعضه، سنين كثيرة، يقول بعد خروجه من مصر في قصيدة يرثي فيها فاتكًا:

ما زلت أُضحك إبلي كلما نظرَتْ — إلى من اختضبت أخفافُها بدم؟
أسيرُها بين أصنام أشاهدها — ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعتُ وأقلامي قوائلُ لي — المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتبْ بنا أبدًا بعد الكتاب به — فإنما نحن للأسياف كالخدم
أسمعتني ودوائي ما أشرتِ به — فإن عصيتُ فدائي قلة الفَهَم
من اقتضى بسوى الهنديِّ حاجته — أجاب كلَّ سؤال عن هلٍ بلم
توهَّم القوم أن العجز قرَّبنا — وفي التقرب ما يدعو إلى التُّهم
ولم تزل قِلة الإنصاف قاطعة — بين الأنام ولو كانوا ذوي رحِم
فلا زيارة إلا أن تزورهم — أيدٍ نشأن مع المصقولة الخُذُم
من كل قاضية بالموت شفرتُه — ما بين منتقَم منه ومنتقِم

وقال بعد في مدح دلير بن لشكروَز:

محب كنى بالبيض عن مرهَفاته — وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير أنني — جَناها أحبَّائي، وأطرافها رُسْلي

ثم يقول في مدح ابن العميد:

إن لم تُغثني خيلُه وسلاحه — فمتى أقود إلى الأعادي عسكرا

فالرجل الذي جن بذكر الحرب والضرب في شبابه يعود إليه بعد أن جاوز الخمسين، فما أحسبه إلا طوى نفسه على ثورة وحرب وهوًى مَطَله به الزمان ثم قتله دونه.

وفي قصيدة الصبا الدالية التي قدمتُ أبياتًا منها، والتي لقب من أجلها المتنبي، يقول:

ما مُقامي بأرض نخلة إلا   كمقام المسيح بين اليهود
مَفرِشي صهوة الحصان ولكن   قميصي مسرودة من حديد
لَأمة فاضةٌ أضاةٌ دِلاص   أحكمت نسجها يدا داود

فإن صدَّقنا أنه كان يلْبس درعًا، وليس ما يصدُّنا عن تصديقه، فلبس هذا الشاب الدرع في غير حرب دليل على أنه كان يعيش في خوف وحذر وعلى ما تمكَّن في نفسه من حب الحرب وآلاتها، وما توسوس به نفسه من خوض غمراتها.

الفصل السادس

اتصاله بابن طُغُج

تلكم حال أبي الطيب منذ قدم الشام إلى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، وكان على سوء حاله وسخطه على الدهر، ينبه ذكره ويسير شعره، حتى رغب في مدائحه الأمراء، فدعاه الأمير الحسن بن عبيد الله بن طغج إلى الرملة ليمدحه، والحسنُ هذا ابنُ أخي الإخشيد محمد بن طغج، ثم اتصل بأبي العشائر بن حمدان فمَهد له السبيلَ إلى مجده وسعادته، إلى سيف الدولة علي بن حمدان.

فأما لقاؤه ابنَ طغج فقد رُوي في شرح المعري:

> حدث أبو عمر عبد العزيز بن الحسَن بحضرة أبي الطيب، قال: حدثني محمد بن القاسم المعروف بالصوفي قال: أرسلني الأمير أبو محمد إلى أبي الطيب، ومعي مركوب يركبه، فصعِدت إليه في دار كان نزلها، فسلمت عليه وعرفته رسالة الأمير، وأنه منتظر له، فامتنع عليَّ وقال: أعلم أنه يطلب شعرًا، وما قلت شيئًا، فقلت: ما نفترق، فقال لي: اقعد إذًا، ثم دخل إلى بيت في الحجرة وردَّ الباب عليه فلبث فيه مقدار كتب القصيدة ثم خرج إليَّ وهي في يده مكتوبة لم تجِفَّ، فقلت: أنشدنيها، فامتنع وقال: ستسمعها، ثم ركب وسرنا فدخلت على الأمير أبي محمد، وعينُ الأمير إلى الباب منتظرًا لورودنا، فسألنا عن خبر الإبطاء فأخبرته، فسلَّم عليه ورفعه أرفع مجلس، وأنشده أبو الطيب:
>
> أنا لائمي إن كنتُ وقت اللوائم علمتُ بما بي بين تلك المعالم
>
> وفي النسخة (٥٣٠) أن هذا كان في شعبان سنة ست وثلاثين وثلاثمائة.

وهذا أول مدح أُسنيَتْ عليه جائزة أبي الطيب. قال صاحب الإيضاح: أخبرني أبو الحسن الطرائفي قال: سمعت المتنبي يقول: أول شعر قلته وابيضَّت أيامي بعده قولي:

أنا لائمي إن كنتُ وقت اللوائم ... إلخ، فإني أعطيت بها بدمشق مائة دينار.

ويؤخذ من الديوان أن شاعرنا أقام برهة عند ابن طغج. في الديوان غير هذه القصيدة أرجوزة قصيرة وثلاث وعشرون قطعة قصيرة أكثرها بيتان، ولكن التحقيق يدل على أن قطعتين منها قيلتا بعد عشر سنين من هذا التاريخ حين مرَّ أبو الطيب بالرملة قاصدًا مصر، وهما قوله:

ترك مدحيك كالهجاء لنفسي   وقليلٌ لك المديح الكثير
غير أني تركت مقتضَب الشعر   لأمر مِثلي به معذور
وسجاياك مادحاتُك لا لفظي   وجُودٌ على كلامي يُغير
فسقى الله من أحِب بكفيك   وأسقاك أيهذا الأمير

وقوله:

ما ذا الوداعُ وداعُ الوامق الكمِد   هذا الوداع وداع الروح للجسد
إذا السحاب زفَتْه الريحُ مرتفعًا   فلا عدا الرملة البيضاء من بلد
ويا فراق الأمير الرحب منزله   إن أنت فارقتنا يومًا فلا تعد

وكان أبو الطيب في طريقه إلى كافور فلم يرض أن يمدح واحدًا من ولاته قبل أن يمدحه. أبى أن يمدح ابن طغج الذي مدحه من قبل ونال منه أول جوائزه الكبيرة.

طاهر بن الحسين

وكذلك مدح أبو الطيب في الرملة أبا القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي.

وفي شرح المعرِّي والنسخة (٥٣٠) ونسخة الأوقاف ببغداد، عن محمد بن قاسم الصوفي: أن الأمير لم يزل يسأل أبا الطيب في كل ليلة من شهر رمضان، إذا اجتمعنا عنده للإفطار، أن يخصَّ أبا القاسم طاهرًا بقصيدة من شعره يمدحه فيها، وذكر أنه يشتهي ذلك، ولم يزل أبو الطيب يمتنع ويقول: ما قصدت غير الأمير، ولا أمدح سواه، فقال الأمير أبو محمد: قد كنتُ عزمتُ أن أسألك قصيدة أخرى تعملها فيَّ فاجعلها في

أبي القاسم، وضمنَ عنه مئاتٍ من الدنانير فأجاب. قال محمد بن القاسم: فمضيتُ أنا والمطَّلِبي برسالة طاهر، لوعد أبي الطيب، فركب معنا أبو الطيب حتى دخلنا عليه وعنده جماعة من أهل بيته أشراف، فلما أقبل أبو الطيب نزل أبو القاسم طاهر من سريره وتلقَّاه بعيدًا من مكانه مسلِّمًا عليه، ثم أخذ بيده فأجلسه في المرتبة التي كان فيها، وجلس بين يديه فتحدث معه طويلًا، ثم أنشده فخلع عليه للوقت خِلَعًا نفيسة.

وحدَّثني أبو علي بن القاسم الكاتب قال: كنت حاضرًا هذا المجلس وهو كما حدَّثك به عبد العزيز ثم قال: اعلم أني ما رأيت ولا سمعت في خبر أن شاعرًا جلس الممدوح بين يديه، مستمعًا لمدحه غير أبي الطيب، فإني رأيت طاهرًا تلقاه وأجلسه في مجلسه وجلس بين يديه.

والقصيدة التي مدح بها طاهرًا:

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب　　　وردُّوا رُقادي فهو لَحظ الحبائب ... إلخ

الفصل السابع

بنو حمدان

١

لما ضعف سلطان العباسيين، وغَلَب على أمرهم قُوَّاد الجند تطلَّعت القبائل العربية الضاربة في أطراف العراق إلى الملك، فنشأ في القرنين الرابع والخامس أربع دول عربية مدَّت سلطانها على الجزيرة الفراتية وما يليها، وعلى قِسم من العراق والشام. وهم:

(١) بنو حمدان التغلبيون، وكانت دار ملكهم الموصل وحلب (٣١٧–٣٩٤هـ).
(٢) وبنو مرداس الكلابيون وكانت دار ملكهم حلب (٤١٤–٤٧٢).
(٣) وبنو المسيِّب العقيليون (٣٨٦–٤٨٩) في الموصل وبلاد أخرى.
(٤) وبنو مزيد الأسديون، وكانت دار ملكهم الحلة (٤٠٣–٥٤٥).

وقد أنجبت هذه الدول أمراء ازدان بهم تاريخ الإسلام والعرب، منهم: سيف الدولة الحمداني، وابنه سعد الدولة، وسيف الدولة المزيدي، وابنه نور الدولة.

وإنما يعنينا من هذه الدول دولة الحمدانيين.

٢

حمدان الذي تنسب إليه العشيرة، أحد رؤساء بني تغلب، وهو كما يتبين من شعر المتنبي، ابن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشد، يقول الشاعر في سيف الدولة:

فأنت أبو الهيجا بنُ حمدان يا ابنه تشابه مولود كريم ووالد

وحمدان حمدونٌ، وحمدون حارث وحـارث لـقمـان، ولـقمـان راشـد

وكان حمدان نازلًا في جوار الموصل، وصار ذا شأن في سياسة تلك الناحية منذ سنة ستين ومائتين هجرية، وتسنى له الاستيلاء على قلعة ماردين سنة أربع وسبعين ثم أخرجه منها الخليفة المعتضد بالله سنة إحدى وثمانين.

ثم تودد الحسين بن حمدان إلى الخلافة وأعان على هزيمة بعض الخوارج فقرَّبه الخليفة المقتدر، وولاه وإخوتَه ولاياتٍ في أوائل القرن الرابع.

ولى حسين قمَّ وكاشان، وأخوه أبو العلاء نهاوند، وأخوه أبو الهيجاء الموصل.

وكان لأبي الهيجاء تصرُّف في سياسة الدولة العباسية، وفي عهده عظم سلطان الحمدانيين، ولاه المقتدر الموصل والجزيرة سنة ٣٠٢، وحارب القرامطة سنة ٣١٥ وأنقذ بغداد منهم إذ قطع جسر الأنبار.

٣

وورث أبا الهيجاء ابنُه الحسن سنة ٣١٧، وكان له ولأخيه عليٌّ بلاء حسن في تأييد الخلفاء حتى لقبه الخليفة المتقي سنة ٣٣٠ بناصر الدولة، ولقب أخاه عليًّا سيف الدولة، وبعد قتل ابن رائق سنة ٣٣٠ صار ناصر الدولة أمير الأمراء في بغداد ثلاثة عشر شهرًا.

واستمر لناصر الدولة وأولاده الملك في الموصل وديار ربيعة ومضر إلى سنة ٣٨٠.

وأما عليٌّ سيف الدولة فقد ملك واسطًا وما حولها زمنًا، ثم اقتطع لنفسه بسيفه مملكة من الإخشيديين في شمالي الشام وما يتصل به، روي أنه طلب من أخيه ناصر الدولة ولاية فقال له: أمامك الشام وما فيه أحد يمنعك. فسار إلى حلب فاستولى عليها.

استولى على حلب وحمص سنة ٣٣٣، وكان بينه وبين جيوش الإخشيديين وقائع، ثم استولى على دمشق والرملة بعد موت الإخشيد ولكنه غُلب عليهما، وانتهى الأمر إلى الصلح على أن تكون حلب لسيف الدولة ودمشق للإخشيديين وتزوج سيف الدولة بنت الإخشيد.

واستمر الملك لسيف الدولة وذريته إلى سنة ٣٩٤ ثم أديل للفاطميين.

٤

سيف الدولة والروم

أنت طول الحياة للروم غازٍ فمتى الوعد أن يكون القفول؟
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أيِّ جانبيك تميل

كانت الثغور الرومية مثار حروب وغارات منذ فتح المسلمون الشام والعراق، وقد تَصدَّى بنو حمدان لحرب الروم حين قام مُلكهم في الجزيرة، فكان للحسين بن حمدان معهم أحداث، وكان لسيف الدولة وقائع قبل أن يملك حلب.

فلما استقرَّ الفتى العربي في العواصم كان عليه أن يثبِّت ملكه على الزلازل، ويُقرَّ عرشه على ظُبَى السيوف، وقد وقف فتى الإسلام والعروبة عشرين عامًا شجًى في حلق الدولة الرومية الشرقية لم تخمد نار الحرب بينهما سنة واحدة.

وكانت له في الروم نكايات، وانتصر عليهم مرات، وقد أوغل سنة ٣٣٩ في بلادهم حتى كان على سبعة أيام من القسطنطينية.

وقد مني البطل المجاهد بهزائم أفظعها ما وقع سنة ٣٥١ إذ قاد نقفور Nicephours مائتي ألف إلى أبواب حلب واستولى على المدينة إلا القلعة، وأخرب الروم حلب وقتلوا وأسروا ألفًا ومائتين ألحموهم السيف، ونهبوا دار سيف الدولة خارج المدينة، وأخربوها، وفي هذه السنة أُسِرَ الأمير الشاعر أبو فراس في منبج.

وأصاب سيف الدولة فالج في يده ورجله سنة ٣٥٢، ولكن ذلك لم يقعده عن حرب الروم ولم يعجزه عن الانتصار عليهم في السنة التالية:

وقد علمتْ خيلُهُ أنه إذا همَّ وهو عليل ركب

وكان الأمير التغلبي بطلًا في انتصاره وهزيمته، وضَّاء في عافيته وبلائه.

وكانت القبائل العربية النازلة في مملكته تزيد همومه وتثقل أعباءه بالثورة بين الحين والحين.

توفي سيف الدولة سنة ٣٥٦ بحلب ونقل إلى مَيَّا فارِقين فدفن في مقبرة أمه خارج المدينة، وكان قد جمع ما تراكم عليه من عجاج الحرب فصنع منه لَبِنَة وأوصى أن توضع تحت رأسه في قبره.[١]

٥

سيف الدولة والعلماء والأدباء

قال الثعالبي في اليتيمة: «وحضْرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرحال، وموسم الأدباء، وحَلْبة الشعراء، ويقال: إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يُجلَب إليها ما نَفق لديها.»

كثر الشعراء حول سيف الدولة ينالون جوائزه، ويُشيدون بذكره، ومنهم، غير أبي فراس وأبي الطيب: أبو العباس النامي، وعلي بن عبد الله الناشئ، والسريُّ الرفَّاء، وأبو الفرج الببغاء، وأبو الفرج الوأواء، وأبو الفتح كشاجم، وأبو نصر بن نُباتة، وأبو العباس الصفري، وابن كوجك وابن دينار، والخالديَّان، وأبو حصين الرقِّي، وأبو القاسم الشَّيظمي، وأبو ذر أستاذ سيف الدولة.

وقد اختار أبو الحسن الشمشاطيُّ وأبو محمد الفيَّاض الكاتب من مدائح سيف الدولة عشرة آلاف بيت.[٢]

وممن صحبه من الأدباء عبد الله بن خالويه، وأبو علي الفارسي، وأبو الطيب اللغوي، والقاضي التنوخي، وابن نصر البازيار، والشمشاطيُّ والفياض، وأهدى إليه أبو الفرج الأصفهاني كتاب الأغاني فأعطاه ألف دينار.[٣]

وممن أقام عند سيف الدولة أبو عبد الله بن مقلة أخو الوزير أبي علي بن مقلة، وكان أبو عبد الله كأخيه حسن الخط فكتب لسيف الدولة خمسة آلاف ورقة، قال ياقوت في معجم الأدباء: «كان أبو عبد الله منقطعًا إلى بني حمدان سنين كثيرة، يقومون بأمره

[١] انظر في كتاب الأوابد المقال الذي عنوانه: «وديعة ميافارقين».

[٢] اليتيمة: سيف الدولة.

[٣] اليتيمة: سيف الدولة ومعجم الأدباء في تراجم هؤلاء الأدباء.

أحسن القيام، وكان ينزل في دار قَوراء حسنة، وفيها فُرُش تشاكلها ومجلس دَست، وله شيء للنسخ وحوض فيه محابر وأقلام فيقوم ويتمشى في الدار إذا ضاق صدره، ثم يعود فيجلس في بعض تلك المجالس وينسخ ما يخف عليه، ثم ينهض ويطوف على جوانب البستان ثم يجلس في مجلس آخر، وينسخ أوراقًا أخرى على هذا فاجتمع في خزائنهم من خطه ما لا يُحصى.»

وكذلك لجأ إلى سيف الدولة أبو نصر الفارابي الفيلسوف وعاش في كنفه.

وكان سخاؤه ينال من بعدُ عنه من أهل العلم والأدب، روى الثعالبي في اليتيمة أن رسولًا لسيف الدولة سأل أبا إسحاق الصابي ببغداد شيئًا من شعره، فأرسل إليه ثلاثة أبيات، فلما عاد الرسول إلى بغداد زاره الصابي فأرسل إليه كيسًا مختومًا بخاتم سيف الدولة عليه اسم الصابي وفيه ثلاثمائة دينار.

ونجد في ديوان أبي الطيب أبياتًا أجاب بها شاعرًا اسمه ابن المنجم من بغداد بعث إلى سيف الدولة أبياتًا يمدحه بها، وقال: إنه رآه في المنام. وفي النجوم الزاهرة[٤] أنه لما أصاب أبا الحسن الكرخي الفالج كتب أصحابه إلى سيف الدولة ليمده بمال، فأرسل إليهم عشرة آلاف درهم جاءت بعد وفاة أبي الحسن فتصدقوا بها.

وروى الثعالبي أن أعرابيًّا رثَّ الهيئة تقدم إلى سيف الدولة والشعراء ينشدونه فأنشده:

أنت عليٌّ وهذه حلب ... قد نفِد الزاد وانتهى الطلب
بهذه تفخر البلاد، وبالأمير ... تُزهى على الورى العرب
وعبدك الدهر قد أضرَّ بنا ... إليك من جور عبدك الهرب

فقال سيف الدولة: أحسنت، ولله أنت، وأمر له بمائتي دينار. وكثير أمثال هذا في كتب التاريخ والأدب.

وكان الأمير أديبًا شاعرًا له شعر يدل على طبع شاعر، ونقد يدل على ذوق سليم.

[٤] حوادث سنة ٣٤٠.

الفصل الثامن

أبو الطيب وسيف الدولة

مقدمة: أبو العشائر بن حمدان الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان

سار أبو الطيب سنة ست وثلاثين من الرملة إلى إنطاكية فمرَّ ببعلبك وفيها علي بن عسكر، فخلع عليه وحمله وسأله أن يقيم عنده فمدحه بأربعة أبيات. ورحل إلى إنطاكية فمدح أبا العشائر بالقصيدة:

أتـراهـا لـكـثـرة الـعـشـاق   تحسب الدمع خلقة في المآقي

ثم مدحه في ثلاث قطع، وأنشأ في إنطاكية أرجوزة حينما غشَّى الثلج الأرض، وتعذر المرعى على حِجرته الجَهامة ومُهره الطخرور:

ما للمروج الخضر والحدائق   يشكو خلاها كثرةَ العوائق

ثم أغار على إنطاكية يانس المؤنسي قائد الإخشيديين وفجِئ أبا العشائر، فقاتل عن نفسه حتى خرج إلى حلب، وفي هذه الغارة قُتل الطخرور وأمُّه، فقال أبو الطيب الأبيات التي أولها:

إذا غـامرتَ فـي شـرف مـروم   فـلا تـقـنـع بـمـا دون الـنـجـوم

فطعم الموت في أمر حقير   كطعم الموت في أمر عظيم
ستبكي شجوها فرسي ومهري   صفائحُ دمعُها ماء الجسوم

ثم رجع أبو العشائر إلى إنطاكية، وكان أبو الطيب قد رجع إلى الرملة، فلما سمع بعودته خرج يقصده، فلما كان بطرابلس أراده إسحاق بن كيغلغ على مدحه، فكان بينهما ما رواه المعرِّي في شرحه:

ومرَّ بطرابلس وبها إسحاق بن الأعور بن إبراهيم بن كيغلغ، وكان جاهلًا، وكان يجالس ثلاثة من بنى حَيدرة، وكان بين أبي الطيب وبين أبيهم عداوة قديمة، فقالوا له: ما نحب أن يجاوزك ولم يمدحك، وإنما يترك مدحك استصغارًا لك، وجعلوا يُغرونه به، فراسله وسأله أن يمدحه، واحتج أبو الطيب بيمين ألا يمدح أحدًا إلى مدة، فعاقه عن طريقه ينتظر قضاء تلك المدة، وأخذ عليه الطريق وضبطها، ومات الثلاثة الذين كانوا يغرونه به في مدة أربعين يومًا، فقال أبو الطيب يهجوه بطرابلس، قال: ولو فارقته قبل قولها، لم أقلها أنفة من اللفظ بما فيها، قال: وأملاها على من يثق به، فلما ذاب الثلج وجف عن لبنان خرج كأنه يُسيِّر فرسه، وسار إلى دمشق وأتبعه ابن كيغلغ خيلًا ورَجْلًا فأعجزهم ثم ظهرت القصيدة.

وهي القصيدة التي مطلعها:

لهوى النفوس سريرة لا تُعلَم   عرَضًا نظرت وخلت أني أسلم

وهي قصيدة جمع فيها أبو الطيب بين التحليق إلى أوج الحكمة والإسفاف إلى حضيض الإقذاع.

ثم سار إلى إنطاكية فلقي أبا العشائر، ومدحه بقصيدتين وثماني قطع.

سيف الدولة

١

كان أبو العشائر بن حمدان واليًا على إنطاكية من قِبَل سيف الدولة، فلما قدم الأمير إنطاكية سنة ٣٣٧ قدَّم أبو العشائر إليه أبا الطيب وأثنى عليه، قال في الإيضاح: فاشترط أنه لا ينشده إلا قاعدًا، وعلى الوحدة، فلما سمع سيف الدولة شعره حكم له بالفضل وعدَّ ما طلبه استحقاقًا، وقال صاحب الصبح المنبي: «واشترط المتنبي على سيف الدولة أول اتصاله به أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلا وهو قاعد، وأنه لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه، فنُسب إلى الجنون، ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط.»

فأما اشتراط المتنبي ما اشترط فجدير بنفسه الأبية، فقد ألف أن يتخذ الممدوحين أصدقاء لا سادة، وأشفق على نفسه أن تُسام الهوان، وأن تكلَّف ما يكلَّفه الآخرون في لقاء الملوك، ولم يكن صعبًا على سيف الدولة أن يجيبه إلى ما اشترط؛ فالعربي بطبعه أبعد الناس عن أن يرضى العبودية لنفسه أو لغيره.

٢

وجد أبو الطيب في علي بن حمدان الأمير العربي الذي ينشده، ورأى سيف الدولة في أحمد بن الحسين فتى أبيًّا أهلًا لصداقته، وشاعرًا مُجيدًا جديرًا بتخليد مآثره، وكان لا بد لبطولة سيف الدولة من شاعر كأبي الطيب، يُشيد بها ويسجل مفاخرها وقد أراد الله سبحانه لهما هذه الصحابة فوُلدا في سنة واحدة، ولم يعش سيف الدولة بعد قتل أبي الطيب إلا سنتين، لقد كانا بطلين يتعاونان بل شاعرين يتباريان كما قال أبو الطيب في أبي العشائر:

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ　　كلانا ربُّ المعاني الدقاق

وقال في سيف الدولة:

لك الحمد في الدر الذي لي لفظه　　فإنك معطيه وإني ناظم

* * *

إن هذا الشعر في الشعر ملك   سار فهو الشمس والدنيا فلك
عدل الرحمن فيه بيننا   فقضى باللفظ لي والحمد لك

٣

صحب أبو الطيب سيف الدولة ثماني سنوات نظم فيها ١٥١٢ بيتًا في ٣٨ قصيدة و٣١ قطعة.

ومن هذا أربع عشرة قصيدة في وصف وقائعه مع الروم، وأربع في وقائعه مع القبائل العربية، وخمس عشرة في المدح دون وصف الوقائع، وخمس في الرثاء، ومن القطع اثنتان في حوادث الروم، وغيرها في مقاصد مختلفة.

ويضاف إلى هذه القصائد القصيدة التي أولها:

ذكر الصبى ومراتع الآرام   جلبت حِمامي قبل يوم حمامي

نظمها سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ثم ألحقها بمدائح سيف الدولة وهي ٣٣ بيتًا.

تتفق نسخ الديوان، وأقوال الشارحين على أن هذه القصيدة قيلت في سيف الدولة سنة ٣٢١، وهي السنة التي رحل فيها الشاعر إلى الشام كما قدمنا، ولعل القارئ يجد فيها ما يصده عن تصديق هذا، يجد الشاعر يقول لممدوحه:

صلى الإله عليك غيرَ مودَّع   وسقى ثرى أبويك صوبَ غمام

ونحن نعلم أن أم سيف الدولة ماتت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ورثاها أبو الطيب وهو في صحبة ابنها، فكيف قال سنة إحدى وعشرين: «وسقى ثرى أبويك صوب غمام.»

ثم في القصيدة هذا البيت:

يا سيف دولة هاشم من رام أن   يلقى مثالك رام غير مرام

وعلي بن حمدان لم يلقب «سيف الدولة» قبل سنة ٣٣٠.

يجوز أن يقال: إن هذا البيت منحول كما قال بعض الشراح، أو إن أبا الطيب زاده حين ألحق القصيدة بمدائح سيف الدولة بعد، ويجوز أن يقال في «ثرى أبويك» إنه أراد أباه وجده أو أباه وعمه، وقد تُوفِيَ أبوه سنة ٣١٧ أو لم يفطن الشاعر إلى أن أم سيف الدولة كانت حية. إن يكن في النفس شيء من أن يكون أبو الطيب أنشأ هذه القصيدة في مدح سيف الدولة سنة ٣٢١، فهذا لا يقتضي رد الروايات الصريحة التي تبين أن أبا الطيب أنشأ هذه القصيدة في مدح علي بن حمدان هذه السنة.

وسيأتي أنه مدحه من بعد بقصيدتين وعزاه عن أخته بأخرى بعد أن رجع إلى العراق.

وقصائد الحروب كلها، وهي ثماني عشرة قصيدة في واحد وسبعين وسبعمائة بيت، يبلغ فيها أبو الطيب الغاية التي ليس بعدها متقدَّم لشاعر أو ناثر. وليس هذا موضع الكلام في شعره ولكني أقول: إن هذا المقدار من الشعر الحماسي البليغ في ديوان الشاعر العربي يعسر على الباحث أن يختاره من الملاحم الكبيرة، مثل: الإلياذة اليونانية والشاهنامة الفارسية والأنياذ الرومانية، والمهابهرتا والراميانا الهنديتين على طولها، ولا أحط من قيمة هذه الملاحم ولكن أقول: إنها لا تعلو في شعرها إلى مستوى قصائد أبي الطيب القصيرة إلا أبياتًا متفرقة تنبغ في المنظومة حينًا بعد حين، ويبقى لهذه الملاحم قيمتها في القصص وما تضمنته من فلسفة وأفكار وأمور أخرى.

وتختلف قصائده في حرب الروم عن قصائده في حرب القبائل العربية، يتبين في الأولى نقمة الشاعر على الروم وفرحه بانتصار المسلمين عليهم.

ويتبين في القصائد التي وصف فيها حرب قبائل العرب بني كلاب وبني قشير والعجلان وكعب، عطف الشاعر عليهم والشفاعة لهم، والاعتذار عنهم، واضطراب نفسه بين الإشادة بانتصار الأمير، وحزنه على ما أصاب هذه القبائل.

يقول في بني كلاب:

فقاتلَ عن حريمهم وفروا ندى كفَّيك والنسبُ القُراب
وحفظُك فيهم سَلَفَي معدٍّ وأنهم العشائر والصِّحاب

* * *

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجاني عتاب

* * *

فإن هابوا بجُرمهم عليًّا ... فقد يرجو عليًّا من يهاب
وإن يك سيف دولة غير قيس ... فمنه جلود قيس والثياب
وتحت ربابه نبتوا وأثوا ... وفي أيامه كثروا وطابوا
وتحت لوائه ضربوا الأعادي ... وذل لهم من العرب الصعاب

ويعتذر عن بني كعب ومن عصى معهم بأنهم لم يألفوا الطاعة والخضوع:

وفيك إذا جنى الجاني أناة ... تُظن كرامةً وهي احتقار
وأخذٌ للحواضر والبوادي ... بضبط لم تُعوَّده نزار
تشممه شميمَ الوحش إنسًا ... وتنكره فيعروها نفار
وما انقادت لغيرك في زمان ... فتدري ما المقادة والصَّغار
فقرَّحت المقاودُ ذفرييها ... وصعَّر خدَّها هذا العِذار

إلى أن يقول:

إذا لم يُرع سيدهم عليهم ... فمن يُرعى عليهم أو يغار
تفرِّقهم وإياه السجايا ... ويجمعهم وإياه النِّجار

ويقول:

بنو كعب وما أثَّرت فيهم ... يدٌ لم يُدمها إلا السِّوار
بها من قطعه ألم ونقص ... وفيها من جلالته افتخار
لهم حق بشِرْكك في نزار ... وأدنى الشرك في أصل جوار
لعلَّ بنيهم لبنيكَ جُند ... فأوَّل قُرَّح الخيل المِهار

٤

ولم يأل سيف الدولة في بر شاعره، وإغداق النعمة عليه وإكرامه، وإعظامه، يؤخذ من رواية في الصبح المنبي أنه كان يعطيه ثلاثة آلاف دينار كل سنة، ويدل الديوان أنه كان يعطيه عطايا أخرى في مقامات مختلفة.

فالقطعة:

موضع الخيل من نداك طفيف   ولوَ انَّ الجياد فيها ألوف

إلخ، قالها حين سأله سيف الدولة عن صفة فرس يُرسله إليه.

والقطعة:

اخترت دهماء تين يا مطر   ومن له في الفضائل الخِيَر

إلخ، قالها حين خيَّره في حجرتين إحداهما دهماء، والأخرى كميت.

والقطعة:

فعلتْ بنا فعل السماء بأرضه   خِلعُ الأمير وحقَّه لم نقضه

إلخ، قالها حين أنفذ إليه خلعًا.

والقطعة التي أولها:

أيا راميًا يُصمي فؤاد مرامه   تُربي عِداه ريشَها لسهامه

قالها حين خرج إلى إقطاع أقطعه إياه الأمير في معرَّة النعمان.[١]

[١] اليتيمة: سيف الدولة.

وكذلك نرى في شروح الديوان ذكر الخلع والهدايا التي منحها الأمير شاعره حين اصطلحا بعد أن تنافرا، وأنشده القصيدة:

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل　　　دعا فلبَّاه قبل الركب والإبل

وروى الثعالبي أن سيف الدولة عاب على المتنبي ببيتين من قصيدته:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

فردَّ المتنبي ردًّا أعجب الأمير فأمر له بخمسين دينارًا من دنانير الصلات، وهي دنانير ضربها للهبات عليها اسمه وصورته، في كل واحد عشرة مثاقيل، فالخمسون منها خمسمائة،[٢] وفي الإيضاح أن سيف الدولة أمر بحساب ما أعطى لأبي الطيب فكان خمسة وثلاثين ألف دينار في أربع سنين.

وشعر أبي الطيب ينطق بالغبطة والشكر، يقول:

ناديتُ مجدك في شعري وقد صدرا　　　يا غَير منتحل في غير منتحَل
بالشرق والغرب أقوام نحبهم　　　فطالعاهم وكونا أبلغ الرسل
وعرفاهم بأني في مكارمه　　　أقلِّب الطَّرف بين الخيل والخوَل

ويقول:

تركت السُّرى خلفي لمن قلَّ ماله　　　وأنعلتُ أفراسي بنعماك عسجدا
وقيَّدتُ نفسي في هواك محبة　　　ومن وجد الإحسان قيدًا تقيدا
إذا سأل الإنسان أيامه الغنى　　　وكنتَ على بعد جعلتك موعدا

[٢] اليتيمة: سيف الدولة.

ويقول:

أسيرُ إلى إقطاعه في ثيابه على طرفه من داره بحسامه
وما مطرتنيه من البِيض والقنا وروم العِبِدَّى هاطلات غمامه
فتى يهب الإقليم بالمال والقرى ومن فيه من فرسانه وكرامه
ويجعل ما خُولته من نواله جزاء لما خولته من كلامه

وقد سكن أبو الطيب إلى صحبة الأمير الكريم، وما يشهد معه من مشاهد الحرب والمجد فترك الشكوى، وكف عن حديث الثورة والقتل الذي طفح به شعره الأول إلا قليلًا نادرًا كقوله:

ولقد ذخرت لكل أرض ساعة تستجفل الضرغام عن أشباله
تلقى الوجوه بها الوجوه وبينها ضرب يجول الموتُ في أجواله

وقوله:

أهم بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قلَّ المساعد

وكان يصحب سيف الدولة في أكثر حروبه فيصفها شاهدًا:

وإني لتعدو بي عطاياك في الوغى فلا أنا مذموم ولا أنت نادم
على كل طيار إليها برجله إذا وقعت في مسمعيه الغماغم

ويقول:

وإن كنت سيف الدولة العضبَ فيهم فدعنا نكن قبل الضراب القنا اللدنا
فنحن الألى لا نأتلي لك نصرة وأنت الذي لو أنه وحده أغنى
يقيك الردى من يبتغي عندك العلَى ومن قال لا أرضى من العيش بالأدنى

وقال وقد أرسل إليه الأمير يسأله إجازة أبيات:

أتاني رسولك مستعجلا   فلباه شعري الذي أذخَر
ولو كان يومَ وغى قاتمًا   للبَّاه سيفي والأشقر

الفصل التاسع

فراق سيف الدولة

فارق أبو الطيب صديقه بعد أن لبث في كنفه ثماني حجج.

أنشده أول قصيدة مدحه بها:

وفاؤكما، كالربع أشجاه طاسمه بأن تُسعدا، والدمع أشفاه ساجمه

في جمادى الأولى سنة ٣٣٧ وأنشده آخر قصيدة:

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في إقدامك القسمُ

سنة ٣٤٥.

لماذا ترك صاحبه الذي أخلص له الود، وتوَّجه بتاج الخلود؟

إذا رجعنا إلى ديوان أبي الطيب، وكتب الأدب نجد أمورًا تحدث في الحين بعد الحين، تنغِّص على الشاعر الأبيِّ عيشه، وتكدِّر صفوه، ونجد الشاعر يشكو ما يلقى، ويهدد بالفراق أحيانًا.

وفي هذه السطور إجمال الكلام في هذا الصدد:

١

كان حول سيف الدولة شعراء كسفت شمسُ أبي الطيب نجومهم، وأخمدت نباهته ذكرهم، فكانوا يحسدونه ولا يألون في ذمِّه والتسميع به، وإفساد ما بينه وبين صاحبه، وكانت كبرياء أبي الطيب وفخره بشعره وتعاليه عليهم وإيثار الأمير إياه تزيد حسدهم وغيظهم، وكان الشعراء يحسدون الشاعر الأبي على مكانته، وينقمون عليه تعاليه وتعاظمه. انظر إلى قوله:

وما أنا إلا سَمهريٌّ حملته — فزيِّن معروضًا وراع مسدَّدا
وما الدهر إلا من رُواة قصائدي — إذا قلتُ شعرًا أصبح الدهر مُنشدا
وسار به من لا يسير مشمرًا — وغنى به من لا يغني مغرِّدا
أجِزْني إذا أُنشدتَ شعرًا فإنما — بشعري أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني — أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

انظر كيف يكون وقع هذا على شعراء سيف الدولة، وقد جعلهم أصداء له، وسأل الأمير أن يجيزه هو إذا هم أنشدوه، فلا جرم أنهم جهدوا أن يوقعوا بينه وبين الأمير، ومما قاله المتنبي في هذا:

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله — إذ القول قبل القائلين مَقول
وما لكلام الناس فيما يَريبني — أصولٌ ولا للقائليه أصول
أعادَى على ما يُوجب الحبَّ للفتى — وأهدأ والأفكارُ فيَّ تجول
سوى وجعِ الحساد داوٍ فإنه — إذا حلَّ في قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسد في مودة — وإن كنت تبديها له وتُنيل

وقوله:

وللحساد عذرٌ أن يشِحُّوا — على نظري إليه وأن يذوبوا
فإني قد وَصلتُ إلى مكان — عليه تحسُد الحدق القلوب

وقوله:

أَزِلْ حَسدَ الحسَّاد عني بكَبْتهم　　فأنت الذي صيَّرتَهم لي حُسَّدا
إذا شدَّ زندي حسنُ رأيك، فيهم　　ضربتُ بسيف يقطع الهام مغمدا

وقوله:

أفي كل يوم تحت ضِبني شويعر　　ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يطاول
لساني بنطقي صامت عنه عادل　　وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأتعبُ من ناداك من لا تجيبه　　وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبي فيهم غير أنني　　بغيضٌ إليَّ الجاهل المتعاقل
وأكبر تيهي أنني بك واثق　　وأكثر مالي أنني لك آمِل
لعل لسيف الدولة القرم هبَّةً　　يعيش بها حقٌّ ويهلك باطل

٢

وكان سيف الدولة مغرمًا بشعر أبي الطيب، يود أن يسمع كل حين قصيدة في مدحه، وكان الشاعر ينظم كل سنة أربع قصائد أو خمسًا غير القطع، فكان الأمير يسخط عليه أحيانًا استبطاء لمدحه، ومن أدلة هذا في الديوان أنا نجد قصيدة أنشدت في جمادى الآخرة سنة ٣٤٢ وأخرى أنشدت يوم الأضحى من هذه السنة وفي الفترة بين القصيدتين وهي زهاء ستة أشهر نظم أبو الطيب سبعًا ما بين قطع وقصائد قصيرة، يعتذر في اثنتين منها عن تأخير مدحه، يقول في قطعة:

وما كان ترك الشعر إلا لأنه　　تقصِّر عن وصف الأمير المدائح

ويقول في قصيدة نظمها وقد تنكر له سيف الدولة لتأخره عن مدحه:

كفرتُ مكارمك الباهرات　　إن كان ذلك منِّي اختيارا
ولكن حمى الشعرَ إلا القليل　　همٌّ حمى النوم إلا غِرارا

وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمتُ في القلب نارا
فلا تُلزِمنِّي ذنوب الزمان إلـيَّ أسـاء وإيَّـايَ ضـارا
وعندي لك الشرَّد السائرات لا يختصِصن من الأرض دارا
قوافٍ إذا سرن عن مِقْولي وثَبْن الجبال وخُضْن البحارا
ولي فيك ما لم يقل قائل وما لم يسر قمر حيث سارا

ثم القصة الآتية التي أنشأ فيها القصيدة: وا حرَّ قلباه ممَّن قبله شبم، وهذه القصيدة بين قصيدتين الأولى في المحرم سنة ٣٤١ والثانية في شعبان من السنة.

فهذا يدل على مقدار شغف الأمير بمدائح شاعره وتأخر الشاعر عن الاستجابة لهذا الشغف.

وفي الصبح المنبي أن أبا فراس قال لسيف الدولة:

إن هذا المتشدق كثير الإدلال عليك، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد، ويمكن أن تفرِّق مائتي دينار على عشرين شاعرًا يأتون بما هو خير من شعره.

٣

أوقعت هذه الأسباب نفرة بين الأمير وشاعره، وكان من ذلك قصتان:

(أ) القصة التي قال فيها القصيدة المعروفة:

وا حرَّ قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده ألم

وفي شرح ابن جني وغيره في سبب إنشاء هذه القصيدة:

كان سيف الدولة إذا تأخر عن مدحه شق عليه، وأكثر أذاه، وأحضر من لا خير فيه وتقدَّم إليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يُحب، فلا يجيب أبو الطيب أحدًا عن شيء فيزيد ذلك في غيظ سيف الدولة، ويتمادى أبو الطيب على ترك قول الشعر، ويلح سيف الدولة فيما كان يفعله، إلى أن زاد الأمر وكثر عليه، فقال هذه القصيدة.

وفي هذه القصيدة يقول:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي   فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة   أن تحسب الشحم فيمن شحمُه ورم

ويفتخر بشعره وشجاعته ثم يقول:

كم تطلبون لنا عيبًا فيعجزكم   ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصَان عن شِيَمي   أنا الثريا وذان الشيبُ والهرَم

ولما أنشده القصيدة اضطرب المجلس وقال أبو الفرج السامري أحد كبار كتَّاب الأمير: دعني أسعى في دمه. فرخص له في ذلك.

وفي ذلك يقول أبو الطيب:

أسامريُّ ضُحكة كل راء   فطنتَ وكنت أغبى الأغبياء
صُغرتَ عن المديح فقلت أهجي   كأنك ما صغرتَ عن الهجاء
وما فكرتُ قبلك في محال   ولا جَرَّبتُ سيفي في هبَاء

وكاد أبو الطيب يهلك في هذه القصة.

ففي النسخة (١٥٣٠ أدب) وشرح المعري وبعض نسخ الواحدي، أنه لما أنشد القصيدة الميمية وانصرف وقف له رجال في طريقه، فلما رآهم أمكن يده من قائم سيفه وحمل فاخترقهم ولم يصنعوا شيئًا، وأن أبا العشائر أرسل جماعة من غلمانه فوقفوا له في طريقه، فلما مرَّ بهم ضرب واحد منهم بيده إلى عنان فرسه، فسلَّ أبو الطيب سيفه فخلَّاه الرجل، وتقدم إلى قنطرة أمامه فعبرها واجترَّهم إلى الصحراء، ورمى أحد الغلمان الفرسَ بسهم فأصابه في نحره فانتزعه أبو الطيب ثم كرَّ عليهم فضرب أحدهم فقطع قوسه وأصاب ذراعه، ومضى عنهم فسمع أحدهم يقول: نحن غلمان أبي العشائر، فلذلك قال:

ومنتسب عندي إلى من أحبُّه   وللنبل حولي مِن يديه حفيف

فهيَّج من شوقي وما من مذلة حَننتُ ولكنَّ الكريم ألوف
وكل وداد لا يدوم على الأذى دوامَ ودادي للحسين، ضعيف
فإن يكن الفعلُ الذي ساء واحدًا فأفعاله اللائي سَررنَ ألوف
ونفسي لَهُ، نفسي الفداءُ لنفسه ولكنَّ بعضَ المالكين عنيف
فإن كان يبغي قتلَها يك قاتلًا بكفيه، فالقتل الشريف شريف

ثم عاد أبو الطيب إلى المدينة مستخفيًا فأقام عند بعض أصدقائه وراسل سيف الدولة، وأنكر الأمير أنه أمر بما وقع للشاعر، وكتب أبو الطيب الأبيات:

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتبًا فَداه الورى أمضى السيوف مضاربا
وما لي إذا ما اشتقتُ أبصرتُ دونه تنائفَ لا أشتاقها وسباسبا ... إلخ

ودخل الشاعر دار الأمير بعد تسعة عشر يومًا فتلقاه الغلمان، وأدخلوه إلى خزانة الألبسة، فخُلع عليه وَطيبَ، ودخل على الأمير فرحَّب به وسأله عن حاله وهو مستحٍ، فقال له: رأيت الموتَ عندك أحبَّ من الحياة عند غيرك، فقال: بل يُطيل الله بقاءك. ثم ركب أبو الطيب وركب معه جماعة كثيرة وأتبعه الأميرُ هدايا فقال القصيدة:

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل دعا فلبَّاه قبل الركب والإبل

(ب) والقصة الثانية رواها البديعي في الصبح المنبي قال:

قال عبد المحسن بن علي بن كوجك إن أباه حدثه، قال: كنت بحضرة سيف الدولة أنا وأبو الطيب اللغوي وأبو عبد الله بن خالويه النحوي، وقد جرت مسألة في اللغة تكلم فيها ابنُ خالويه مع أبي الطيب اللغوي، والمتنبي ساكت. فقال له سيف الدولة: ألا تتكلم يا أبا الطيب؟ فتكلم فيها بما قوَّى حُجَّة أبي الطيب اللغوي، وضعَّف قول ابن خالويه، فأخرج من كمه مفتاحًا حديدًا ليلكم به المتنبي، فقال له المتنبي: اسكت ويحك، فإنك أعجمي وأصلك خوزي، فمالك وللعربية؟ فضرب وجه المتنبي بذلك المفتاح فأسال دمه على

وجهه وثيابه، فغضب المتنبي لذلك إذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولًا ولا فعلًا، فكان ذلك أحد أسباب فراقه.[1]

٤

وقد هدد أبو الطيب بالفراق تصريحًا وتعريضًا، قال في القصيدة «وا حر قلباه»:

أرى النوَى تقتضيني كلَّ مرحلة   لا تستقلُّ بها الوَخَّادة الرُّسُم
لئن تركن ضُمَيرًا عن ميامننا   ليحدُثنَّ لمن ودعتُهم ندم
إذا ترحلتَ عن قوم وقد قدروا   ألا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد بلاد لا أنيس بها   وشر ما يكسب الإنسانُ ما يصم

وقال في القصيدة: «دروع لملك الروم هذي الرسائل»:

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك   ولا تعطينَّ الناس ما أنا قائل

وبعد هذا البيت أبيات قدمتها في هذا الفصل:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر   ضعيف يقاويني قصير يطاول ... إلخ

وفي الصبح المنبي أن أبا الفتح بن جني قال: «كنت قرأت ديوان المتنبي عليه حتى وصلت إلى قوله:

أغالب فيك الشوقَ والشوقُ أغلب   وأعجب من ذا الهجر والوصلُ أعجب[2]

---

[1] الصبح المنبي ص٤٥ ط دمشق.

[2] مطلع قصيدة من مدائح كافور.

فلما انتهيت إلى قوله:

لحا الله ذي الدنيا مناخًا لراكب فكلُّ بعيد الهمِّ فيها معذب ... إلخ

قلت: يعز عليَّ أن يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة، فقال: حذَّرناه وأنذرناه فما نفع فيه الحذر، ألست القائل فيه:

أخا الجود أعط الناسَ ما أنت مالك ولا تعطينَّ الناس ما أنا قائل

فهو الذي أعطاني لكافور بسوء تدبيره، وقلة تمييزه.»[٣]

٥

وقد صرَّح بعد فراق سيف الدولة بما كان في نفسه، قال في أول قصيدة مدح بها كافورًا:

حَبَبتك قلبي قبل حُبك من نأى وقد كان غدَّارًا فكن أنت وافيا
وأعلم أن البين يُشكيك بعده فلستَ فؤادي إن رأيتك شاكيا
فإن دموع العين غُدرٌ بربها إذا كنَّ إثر الغادرين جواريا
إذا الجود لم يُرزَق خلاصًا من الأذى فلا الحمد مكسوبًا ولا المال باقيا

فهو يعرض في هذه الأبيات بسيف الدولة، ويصفه بالغدر والأذى.
ويقول في قصيدة أخرى يمدح كافورًا:

قالوا هجرتَ إليه الغيثَ قلت لهم إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تَهَب الدولات راحتُه ولا يمنُّ على آثار موهوب
ولا يَروع بمغدور به أحدًا ولا يفزع موفورًا بمنكوب

[٣] الصبح المنبي ص٥٣.

وهذا تعريض بسيف الدولة يصفه بالمن والغدر أيضًا.

وكذلك قال حينما سمع أنه نُعِيَ عند سيف الدولة:

رأيتكم لا يصونُ العرضَ جارُكم ولا يَدِرُّ على مَرعاكم اللبن
وإن بُليت بودٍّ مثلِ ودِّكم فإنني بفِراق مثلِه قَمِنُ

وأدل من هذا على ما كان في نفسه ما قاله في القصيدة التي أرسلها من العراق إلى سيف الدولة جوابًا لدعوته إياه إلى حلب، بعد أن أهدى إليه سيف الدولة وأعتبه، وبعد أن مدحه هو بقصيدتين، قال في القصيدة البائية:

فهمت الكتاب أبرَّ الكتب فسمعًا لأمر أمير العرب
وطوعًا له وابتهاجًا به وإن قصَّر الفعل عما يجب
وما عاقني غيرُ قول الوشاة وإن الوشايات طُرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم وتقريبهم بيننا والخبب
وقد كان ينصرهم سمعه وينصرني قلبُه والحسب

وقال في آخر القصيدة:

وليت شكاتك في جسمه وليتك تجزي ببغض وحب
فلو كنت تجزي به نلتُ منك أضعفَ حظ بأقوى سبب
فليت سيوفك في حاسد إذا ما ظهرت عليهم كئب

٦

ضاق أبو الطيب بالمُقام عند سيف الدولة لهذه الأسباب، ولسبب آخر لا ينبغي ألا يغفل عنه الباحث، ذلك أن الشاعر الطموح الذي يقول:

ولكن قلبًا بين جنبيَّ ما له مَدًى ينتهي بي في مُراد أحُدُّه

بلغ درجة عالية عند بني حمدان فسمت نفسه إلى درجة أعلى منها، ولم يكن فارق نفسه حب المجد والسلطان والتطلع إلى الغلبة والتملك، فذهب يلتمس مُنيته في أقطار الأرض وأمل أن يجد في مصر وسيلة إلى غايته، فعزم أن يرحل إليها.

وقد أنشد سيف الدولة قصيدته الأخيرة:

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في إقدامك القسم

وهو على نية الرحيل.

في شرح المعري: «قال ابن جني: قلت لأبي الطيب وقت قراءتي هذه القصيدة عليه: إنه ليس في جميع شعرك أعلى كلامًا من هذه القصيدة، فاعترف بذلك وقال: كانت وداعًا.»

الفصل العاشر

من حلب إلى الفسطاط

قال صاحب الإيضاح: «فلما انتهت مدته عند سيف الدولة استأذنه في المسير إلى إقطاعه فأذن له، وامتدَّ باسطًا عنانه إلى دمشق.»[1]

وفي شرح المعري: فأجمع رأيه على الرحيل من حلب فلم يجد بلدًا يأوي إليه أولى من دمشق؛ لأن حمص من عمل سيف الدولة.

وقال في الصبح المنبي: «ولما عزم أبو الطيب على الرحيل من حلب وذلك في سنة ست وأربعين وثلاثمائة لم يجد بلدًا أقرب إليه من دمشق؛ لأن حمص كانت من بلاد سيف الدولة.»

يتبين من هذه الروايات أن أبا الطيب لم يؤذن سيف الدولة بعزمه على الرحيل، بل أوهمه أنه سائر إلى إقطاعه بمعرة النعمان فعائد إليه، وأنه وقد سار غير مستأذن لم يستطع النزول بحمص إذا كانت في ولاية سيف الدولة، فهل يؤخذ من هذا أن الشاعر أوجس خيفة من الأمير بغير إذنه، وأن سيف الدولة ما كان ليأذن له بالرحيل لو استأذنه؟ فأما الإذن فأكبر الظن أن الأمير ما كان يرضى به، وأما الخوف فالظاهر أن الشاعر قد أحسه، خاف أن يأخذه سيف الدولة برحيله دون إذن وخاف أن ينتهز حساده الفرصة فيغروا الأمير به، ومما يؤيد هذا قول أبي الطيب في قصيدة كافورية بعد التعريض بغدر سيف الدولة ومنِّه في الأبيات التي تقدمت في هذا الفصل:

وجدت أنفع مال كنتُ أذخَره　　ما في السوابق من جَري وتقريب

---

[1] الخزانة ج١٥ ص٣٨٤ ط القاهرة.

لما رأين صروف الدهر تغدر بي   وفين لي ووفت صمُّ الأنابيب
فُتن المهالك حتى قال قائلها   ماذا لقينا من الجُرد السراحيب

يقول: «لما رأت الخيل غدر الدهر بي وفت لي فأنجتني» وليس غدر الدهر الذي يذكره هنا إلا ما لقي من سيف الدولة آخر أيامه عنده، وأما المهالك التي خلفها فهي ما خشيه من بني حمدان وما خافه من أهوال الطريق، كما قال في القصيدة البائية التي مدح بها كافورًا إنه كان يكمن نهاره ويسير ليله في سفره إلى مصر.

ويوم كليل العاشقين كمنته   أراقب فيه الشمس أيَّان تغرب

سار أبو الطيب من حلب إلى دمشق فانتقل من مملكة سيف الدولة إلى مملكة كافور الإخشيدي.

وفي شرح المعري أنه كان بدمشق يهودي يعرف بابن ملك من قبل كافور الإخشيدي، فالتمس من أبي الطيب أن يمدحه، فثقل عليه وكتب إلى كافور أن أبا الطيب في دمشق، فكتب كافور إلى ابن ملك يطلب مسير الشاعر إلى مصر، فأجابه أن أبا الطيب قال: لم أقصد العبد، وإن دخلت مصر فما قصدي إلا ابن سيده.

وفقه هذه الرواية أن ابن ملك رأى أبا الطيب شاعر سيف الدولة ترك صاحبه مغاضبًا وقدم إلى مملكة الإخشيديين فكتب إلى كافور ينبئه، ولا أصدق أن ابن ملك كتب إلى كافور أن أبا الطيب قال لم أقصد العبد إلخ، فما كان الشاعر ليقول هذا وهو يعلم أنه ليس في البلاد التي أمها إلا سلطان كافور، وما كان ابن ملك ليجترئ على أن يفتري سب كافور على لسان أبي الطيب.

وأحسب الشاعر عزم على مصر وهو في حلب، وتلبث بدمشق ريثما يبلغ كافورًا قدومُه، فيدعوه فيذهب إلى مصر مطلوبًا لا طالبًا.

تقول الرواية بعد هذا:

ونبت دمشق بأبي الطيب فسار منها إلى الرملة فحمل إليه أميرها الحسن بن عبيد الله بن طغج (وهو الذي مدحه المتنبي من قبل)[٢] هدايا، وخلع عليه، وحمله على فرس

[٢] انظر الفصل السادس المتقدم.

جواد بمركب ثقيل، وقلده سيفًا محلى وسأله المدح، فاعتذر إليه بالأبيات الرائية، وهي ترك مدحيك كالهجاء لنفسي، وقد تقدم ذكرها قبل هذا. ا.هـ.

وهذه الأبيات الرائية مثبتة في ديوان أبي الطيب مع الشعر الذي مدح به ابن طغج سنة ٣٣٦، والحق أنه أنشأها حين سار إلى الرملة في طريقه إلى مصر سنة ٣٤٦ وهي:

ترك مدحيك كالهجاء لنفسي — وقليل لك المديح الكثير
غير أني تركت مقتضب الشعر — لأمر مِثلي به معذور
وسجاياك مادحاتُك لا لفظي — وجودٌ على كلامي يُغير
فسقى الله من أحِب بكفيْك — وأسقاك أيهذا الأمير

وفي الديوان أبيات أخرى قالها يودع ابن طغج حين عزم على المسير إلى مصر وهي:

ما ذا الوداع وداعَ الوامق الكمد — هذا الوداعُ وداعُ الروح للجسد
إذا السحاب زفته الريحُ مرتفعًا — فلا عدا الرملةَ البيضاء من بلد
ويا فراق الأمير الرحب منزلُه — إن أنتَ فارقتنا يومًا فلا تَعُدِ

وأرى أن امتناع أبي الطيب عن مدح ابن طغج، وهو أول من أغدق عليه العطاء وجذب بضبعه، يدلنا على أنه خرج من دمشق قاصدًا كافورًا، فقد أشفق أن يمدح أحدًا قبل كافور فيغضبه، ولولا هذا ما ضن بمدحه على ابن طغج وهو ابن عم أنوجور، ملك مصر إذ ذاك.

تستمر رواية شرح المعري في قصص رحلة أبي الطيب فتقول: «واتصل به أن كافورًا يقول أترونه يبلغ الرملة ولا يبلغ إلينا؟ وأنه واجد عليه، ثم كتب كافور من مصر إلى أبي الطيب يستدعيه إلى حضرته فلم يمكنه إلا المسير إليه.»

تريد هذه الرواية أن تصور أبا الطيب كارهًا المسير إلى كافور مضطرًّا إليه، فلذلك قال الراوي إن كافورًا كتب إليه مرتين وأنه «لم يمكنه إلا المسير إليه»، ومرمى هذه الرواية وروايات أخرى الاعتذار عن ذهاب الشاعر الكبير إلى كافور ومدحه بالقصائد الغراء ثم هجائه من بعد أقبح هجاء، وقد ادعى بعض الأدباء أن مدح أبي الطيب كافورًا كان هجاء في باطنه.

الفصل الحادي عشر

كافور الإخشيدي

(١) الإخشيد

كان طغج بن جف الفرغاني واليًا من ولاة الدولة العباسية، وقد سخط عليه الخليفة وهو والي الشام فسجنه حتى مات في السجن.

ثم تقرب ابنه محمد إلى الخلفاء فولاه الخليفة المقتدر بالله دمشق سنة ٣١٨ ثم ضم إليه الخليفة الراضي بالله مصر سنة ٣٢٣ ثم لقبه الإخشيد، واستتب الأمر في مصر له ولذريته إلى أن دخلها الفاطميون سنة ٣٥٨.

وأما الشام فقد تنازعها الإخشيد وابن رائق ثم سيف الدولة كما تقدم، واستمر سلطان الإخشيد على دمشق وما يليها إلى مصر، إلى أن تُوفِّيَ بدمشق سنة ٣٣٤.

(٢) مكانة كافور في دولة الإخشيد

وكان للإخشيد مولى أسود اسمه كافور بن عبد الله، قال صاحب النجوم الزاهرة نقلًا عن الذهبي: «اشتراه سيده محمد الإخشيد بثمانية عشر دينارًا من بعض رؤساء مصر وأعتقه ثم رقاه حتى جعله من كبار القواد لما رأى منه الحزم والعقل وحسن التدبير.»

صار كافور قائدًا فقاد الجيوش لحرب ابن رائق ثم سيف الدولة في الشام، وقد ذكره أبو الطيب في القصيدة التي مدح بها مساور بن محمد:

أمساورٌ أم قرنُ شمس هذا   أم ليثُ غاب يَقدم الأستاذا

ولما تُوفِّيَ الإخشيد أخذ كافور البيعة لابنه أنوجور وعاد به إلى مصر.

وروى صاحب النجوم الزاهرة أنه لما مات الإخشيد اضطربت الديار المصرية فخرج كافور بابني الإخشيد إلى الخليفة المطيع لله ليقر أنوجور على ملك أبيه.

وظن سيف الدولة أن موت الإخشيد ييسر له الاستيلاء على دمشق، فاستولى عليها وتقدم إلى الرملة، فسار إليه كافور فهزمه وأخرجه من دمشق ومن حلب، ثم اصطلحا على أن تكون حلب لسيف الدولة ودمشق لابن الإخشيد.

وصار الأمر كله لكافور حتى ضاق أنوجور باستبداده وأراد الخروج إلى الرملة فأعلمت أمه كافورًا فمنعه الخروج.

ثم تُوفِّيَ أنوجور سنة ٣٤٩ فاجتهد كافور أن يبقى الأمر في بني الإخشيد فتوجه إلى بغداد ونال من الخليفة المطيع تولية علي بن الإخشيد مكان أخيه.

(٣) تولي كافور ملك مصر

ومات علي سنة ٣٥٥، وبقيت مصر أيامًا بغير أمير والأمر في يد كافور حتى اتفق أعيان مصر على تأميره فنال السلطان الاسمي إلى السلطان الفعلي وخطب له على منابر مصر والحجاز وبعض الثغور الرومية حتى تُوفِّيَ سنة ٣٥٦ وعمره خمس وستون سنة بعد أن حكم مصر وما يتبعها اثنتين وعشرين سنة، وحمل تابوته إلى بيت المقدس فدفن به وكتب على قبره:

ما بال قبرك يا كافور منفردًا ... بالصحصَح المرْتِ بعد العسكر اللجب
يدوس قبرك آحادُ الرجال وقد ... كانت أسودُ الشرى تخشاك في الكُتُب

(٤) سيرة كافور وأخلاقه

كان كافور قويًّا شجاعًا داهية حازمًا، استطاع أن يرضي العباسيين والفاطميين معًا، كان يذعن بالطاعة لبني العباس ويهادي المعز ويتودد إليه.

وروى صاحب النجوم الزاهرة عن القفطي أن المعز «كان قد عزم على تجهيز عسكر إلى مصر، فسألته أمه تأخير ذلك لتحج خفية، فأجابها وحجت، فلما وصلت إلى مصر أحس بها كافور الإخشيدي الأستاذ فحضر إليها وخدمها وحمل إليها هدايا وبعث في خدمتها أجنادًا، فلما رجعت من حجها منعت ولدها من غزو بلاده، فلما تُوفِّيَ كافور بعث المعز جيوشه فأخذوا مصر.»

إن يكن تودد كافور إلى المعز أخر سيره إلى مصر فحزم كافور وقوته كان لهما نصيب في هذا التأخير وكانت شيعة المعز في مصر يكتبون إليه: «إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز الدنيا كلها»، يريدون كافورًا، فقد رأوه في قوته وحزمه عقبة في سبيل المعز إلى مصر.

قال الذهبي: «وكان كافور خبيرًا بالسياسة داهية.»[1] وكثيرًا ما مدح أبو الطيب كافورًا بالشجاعة والحزم:

وما كنتَ ممن أدرك الملكَ بالمُنى　　　ولكن بأيام يُشبنَ النواصيا

وكان له بصر بالعربية والأدب، ومما يذكر هنا ما رواه ياقوت أن الفضل بن العباس دخل على كافور فقال: أدام الله أيام سيدنا، فخفض الأيام، فتبسم كافور إلى أبي إسحاق النجيرمي فقال أبو إسحاق:

لا غرو إن لحن الداعي لسيدنا　　　أو غصَّ من هيبة بالريق والبهر
فمثل سيدنا حالت مهابته　　　بين البليغ وبين القول بالحصر
فإن يكن خفضَ الأيامَ عن دَهَش　　　من شدة الخوف لا من قلة البصر
فقد تفاءلتُ في هذا لسيدنا　　　والفال نأثُره عن سيد البشر
بأن أيامه خَفض بلا نَصب　　　وأن دولته صَفوٌ بلا كدر

قال: فأمر له بثلاثمائة دينار ولابن عباس بمثلها.[2] ولما أنشده أبو الطيب القصيدة التي ذكر فيها قتل شبيب الخارجي وقال فيها:

وقد قتل الأقران حتى قتلتَه　　　بأضعفِ قِرن في أذلِّ مكان

أدرك كافور أن هذا تهوين من ظفره بعدوه، فقال: لا والله بل بأشد قرن في أعز مكان.

[1] النجوم الزاهرة: ج٤ ص٦، ١٠٦.
[2] معجم الأدباء ج١ ص٢٧٨.

ويروى أن أبا الطيب لما قال في قصيدة الحمى:

ولما صار وُدُّ الناس خِبًّا جزيت على ابتسام بابتسام

لم يبتسم له كافور كما عوده من قبل.

وكانت تقرأ عنده كل ليلة السير وأخبار الأمويين والعباسيين.

وكذلك كان كافور محبًّا للعلماء والأدباء ويقرب الشعراء ويجيزهم، وممن كان في صحبته أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيرمي النحوي صاحب الزجاج.

وممن مدحه من الشعراء غير أبي الطيب، الناشئ، وكذلك مدح وزيرَه ابن الفرات.

وكان دينًا متواضعًا، قال الذهبي: «وكان يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس، وكان يتهجد ويمرغ وجهه ساجدًا ويقول: اللهم لا تسلط عليَّ مخلوقًا.[٣] وبعث إلى أبي بكر الرملي المعروف بابن النابلسي مالًا، فرده وقال للرسول: قل لكافور: قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالاستعانة بالله وكفى، فرد كافور الرسول بالمال وقال قل له: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ فأين ذكر كافور هنا؟ الملك والمال لله.»[٤]

وكان يرسل كل ليلة عيدٍ وقر بغل دراهم في صرر بأسماء من أرسلت إليهم من العلماء والزهاد والفقراء.

وكان كذلك سخيًّا كثير الهبات والخلع، قال أبو جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوي: ما رأيت أكرم من كافور، كنت أسايره يومًا وهو في موكب خفيف يريد التنزه، وبين يديه عدة جنائب بمراكب ذهب وفضة، وخلفه بغال المراكب، فسقطت مقرعته من يده، ولم يرها ركابيته، فنزلت عن دابتي وأخذتها عن الأرض ودفعتها إليه، فقال: أيها الشريف «أعوذ بالله من بلوغ الغاية ما ظننت أن الزمان يُبلغني حتى تفعل بي أنت هذا.» وكاد يبكي، فقلت: أنا صنيعة الأستاذ ووليه. فلما بلغ باب داره ودعني، فلما

[٣] النجوم الزاهرة ج٤ ص٦.

[٤] ص١٠٦.

سرت التفت فإذا الجنائب والبغال كلها خلفي، فقلت: ما هذا؟ قالوا: أمر الأستاذ أن يحمل مركبه كله إليك، فأدخلته داري، وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار.[٥]

ذلك كافور كما يعرفه التاريخ لا كما تصوره أهاجي أبي الطيب وروايات شائعة في كتب الأدب، وفي نسخة المعري رواية طويلة عن نشأة كافور ونهايته، فهو يصوره فدمًا غبيًّا، يُصفع في الأسواق، ثم يوكل إليه أخس الأعمال في دار الإخشيد، وذلك ليعجب القارئ والسامع كيف صار مثل هذا الرجل ولي الأمر في مملكة كبيرة، وهذا دأب القصاص وأشباههم من المؤلفين.

ولعل القارئ عرف مما قدمت عن كافور أن أبا الطيب حين قدم مصر قدم على رجل ذكي فطن حازم مجرب له بصر بالأدب، فعلى هذا فليفهم القارئ ما كان بين الرجلين من بعد.

(٥) جعفر بن الفرات الوزير

وكانت وزارة مصر في عهد كافور لجعفر بن الفضل المعروف بابن الفرات وبابن حنزابة، وهو من أسرة وزراء، وزر أبوه الفضل بن جعفر للمقتدر بالله العباسي، وكان جده جعفر يتولى ديوان الخراج لأخيه أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر أيضًا، وولي جعفر بن الفضل الوزارة لأنوجور بن الإخشيد فبقي وزيرًا إلى أن زالت دولة الإخشيديين، ولما دخل المعز مصر سأله أن يلي الوزارة فامتنع، ووزر بعض بنيه للحاكم بأمر الله، فقتله بعد خمسة أيام من وزارته.

وكان جعفر بن الفرات محدثًا، سمع الحديث من رجاله وحدث بمصر واستقدم الدارقطني من بغداد فخرج المسند، روى ياقوت في معجم الأدباء أنه «كان كثير الحديث جم السماع، مكرمًا لأهل العلم، مطعمًا لأهل الحديث.»

وقال ابن منده عنه: «وهو أحد الحفاظ حسن العقل كثير السماع مائل لأهل العلم والفضل.»

[٥] ص٤.

وكان كثير العناية بعمله، كتب إلى السيرافي يسأله عن ثلاثمائة كلمة من فنون الحديث، وكان سمع من البغوي مجلسًا وضاع منه فكان يقول: من جاءني به أغنيته، وكان يُصنع له الورق الجيد في سمرقند ويُحمل إليه.

وقد لزمه جماعة من العلماء منهم الحسين بن علي الآمدي النحوي، وجماعة من المحدثين منهم الإمام الدارقطني.

ومدحه من الشعراء الناشئ، وكشاجم، وصالح بن مؤنس المصري.[٦]

ذكرت هذه الكلمة عن ابن الفرات ليعلم القارئ أنه كان بمصر حين قصدها أبو الطيب، وزير عظيم، ثم يتعرف مقام شاعرنا من هذا الوزير، وأثر هذا في حرمانه، وسيأتي.

[٦] تنظر ترجمته في معجم الأدباء جزء ٢.

الفصل الثاني عشر

أبو الطيب في مصر

(١) قدومه على كافور في نسخة شرح المعري

فلما قدم عليه أبو الطيب أخلى له دارًا ووكل به، وأظهر التهمة له، وطالبه بمدحه وخلع عليه، (وأعطاه) آلافًا من الدراهم فقال يمدحه في جمادى الثانية سنة ست وأربعين وثلاثمائة:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيًا وحَسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا.

وفي الصبح المنبي: «فطالبه بمدحه فلم يمدحه فخلع عليه فقال أبو الطيب ... إلخ.»

ولست أدري لماذا يظهر كافور التهمة لأبي الطيب ويوكل به بعد أن كتب إليه يدعوه واحتفى به فأخلى دارًا لنزوله، ولماذا يمتنع الشاعر عن مدحه أول الأمر، وما قصد مصر إلا ليمدحه؟

لعل مجيبًا يقول: إن الشاعر قدم من عند سيف الدولة خصم كافور ومنافسه على الشام، فكان أهلًا للتهمة حتى يتبين أمره. لا أرى في الأمر ما يدعو إلى هذا، ولكن الراوي كما قدمت يريد أن يمثل لنا أبا الطيب مكرهًا على قصد كافور سجينًا عنده ليصوره مضطرًّا إلى مدحه، والناقد الخبير لا يعبأ بهذه الزيوف، ومدائح أبي الطيب الأولى تبين عن نفس مغتبطة آملة عظيمة الرجاء.

(٢) كم أقام وكم أنشأ من شعر؟

أقام أبو الطيب بمصر أربع سنين وستة أشهر، من جمادى الثانية سنة ست وأربعين، إلى تاسع ذي الحجة سنة خمسين وثلاثمائة.

ومدح كافورًا حين قدم عليه، وختم مدائحه بقصيدة أنشده إياها في شوال سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، وبقي بعد ذلك سنة وشهرين لم ينشد كافورًا شيئًا من شعره.

وبين القصيدتين الأولى والآخرة ثلاث سنين وأربعة أشهر مدح فيها أبو الطيب كافورًا بتسع قصائد وقطعتين فيها كلها ثلاثة وسبعون وثلاثمائة بيت، وذلكم ربع ما مدح به سيف الدولة.

(٣) مدحه كافورًا وصلته به، وأحواله عنده

تنظر الآن كيف بدأت صلة الشاعر والأستاذ، وكيف وهنت حتى انقطعت، وماذا أمله أبو الطيب ولماذا حرمه أبو المسك ما أمل:

(أ) أبان أبو الطيب في القصيدة الأولى عن حزنه واضطراب قلبه بين صديقه الذي غدر به (يعني سيف الدولة) وبين كافور الذي رجا عنده بلوغ غايته، وأعرب عن عظم أمله في أميره الثاني وبالغ في مدحه، وليس في القصيدة ما يبين أو ينم عن أن الشاعر قصد كافورًا كارهًا، ومدحه مرغمًا كما يدَّعِي راوي القصة التي نقلنا بعضها من شرح المعري، بل رضي بالوقوف بين يديه وقيل له مرة: قد طال وقوفك في مجلسه فقال:

يقل له الوقوف على الرءوس ... وبذل المكرمات من النفوس

ويقول أبو الطيب في أول قصيدته:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيًا ... وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن تَرى ... صديقًا فأعيا أو عَدوًّا مُداجيا
إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة ... فلا تستعدَّنَّ الحسام اليمانيا
ولا تستطيلنَّ الرماح لغارة ... ولا تَستجيدنَّ العِتاق المَذاكيا
فما ينفع الأسدَ الحياءُ من الطوَى ... ولا تُتَّقى حتى تكون ضواريا

وفي هذا إشارة إلى سيف الدولة، وتحامله عليه، واضطراره إلى مفارقته، وقد بلغ به الحزن في هذا أن جعل مطلع قصيدته هذه الأبيات التي يتطير منها السامع، وبعد هذه الأبيات:

حببتُك قلبي قبل حبك مَن نأى　　وقد كان غدَّارًا فكن أنت وافيا
وأعلمُ أن البين يُشكيك بعده　　فلستَ فؤادي إن رأيتك شاكيا
فإن دموع العين غُدرٌ بربها　　إذا كنَّ إثر الغادرين جواريا

فتراه يطالب قلبه بأن يفي له هو ويترك سيف الدولة؛ فإنه أحب قلبه قبل أن يحب القلب هذا الأمير، وفي هذا إغراب عن توزع قلبه بين أصدقائه القدماء وبين انتصافه لنفسه بمفارقتهم ومدح غيرهم، ويسوغ ما فعله بقوله:

إذا الجود لم يُرزَق خلاصًا من الأذى　　فلا الحمد مكسوبًا ولا المال باقيا
وللنفس أخلاقٌ تدل على الفتى　　أكان سخاءً ما أتى أم تساخيا

ثم رجع إلى قلبه فيقول:

أقلَّ اشتياقًا أيها القلبُ ربما　　رأيتك تُصفى الودَّ من ليس صافيا

ثم ينثني فيذكر ما في نفسه من إلف بني حمدان، ويتخلص إلى مدح كافور يقول:

خُلِقْتُ ألوفًا لو رجعتُ إلى الصِّبَى　　لفارقت شيبي موجَع القلب باكيا
ولكنَّ بالفسطاط بحرًا أزرْته　　فؤادي ونُصحي والهوى والقوافيا

ثم يصف سيره وخيله إلى أن يقول:

قواصدَ كافور تواركَ غيره　　ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عينِ زمانه　　وخلَّت بياضًا خلفها ومآقيا

ثم يقول في أثناء المدح معربًا عن رجائه وأمله:

إذا كسب الناس المعالي بالندى فإنك تعطي في نداك المعاليا
وغيرُ كثير أن يزورَك راجل فيرجع ملكًا للعراقين واليا
فقد تهبُ الجيش الذي جاء غازيا لسائلك الفرد الذي جاء عافيا
وتحتقر الدنيا احتقار مجرِّب يرى كل ما فيها، وحاشاك، فانيا

(ب) وفي أواخر الشهر التالي (لثلاث بقين من رجب، عشية يوم الاثنين)، أنشد أبو الطيب قصيدة يهنئ بها كافورًا بدار جديدة بناها[١] أولها:

إنما التهنئات للأكفاء ولمن يدَّني من البُعداء
وأنا منك لا يهنئ عضو بالمسرَّات سائر الأعضاء

قال الواحدي:

وهذا طريق المتنبي يدَّعي لنفسه المساهمة والكفاءة مع الممدوحين، في كثير من المواضع، وليس ذلك للشاعر فلا أدري لِمَ احتُمل منه.

وقال العكبري:

وهذه عادة أبي الطيب يدعي المساهمة والكفاءة لنفسه ويشركها مع الممدوحين في كثير من المواضع، وليس ذلك للشاعر وإنما كان هو يعمله إدلالًا عليهم.

وجوابنا للواحدي والعكبري أن أبا الطيب قد وضع نفسه فوق الشعراء وتعود ذلك منه الممدحون، والمرء حيث يضع نفسه، ولكل امرئ من دهره ما تعودا.
ويقول في آخر هذه القصيدة:

يا رجاء العيون في كل أرض لم يكن غير أن أراك رجائي

[١] عند الجامع في القطائع (نسخة ١٥٣٠).

ولقد أفنت المفاوزُ خَيلي قبل أن نلتقي وزادي ومائي
فارم بي ما أردتَ منِّي فإني أسدُ القلب آدميُّ الرُّواء
وفؤادي من الملوك وإن كان لساني يُرى من الشعراء

فهو يدعوه إلى أن يكل إليه بعض الشئون ولكن في كلام يُخيف كافورًا ويوهمه أنه أمام ملك لا شاعر.

وفي شرح المعري بعد هذه القصيدة، ولما أنشده أبو الطيب حلف ليبلغنه جميع ما في نفسه. وإنه لأكذب ما يكون إذا حلف.

(ج) ويمضي شهران فنرى أبا الطيب ينشد الأستاذ أبا المسك يوم عيد الفطر قصيدة أولها:

مَن الجآذر في زي الأعاريب حُمرُ الحلى والمَطايا والجلابيب

وفي هذه القصيدة يُعرِّض بسيف الدولة في قوله:

قالوا هجرتَ إليه الغَيثَ قلتُ لهم إلى غيوثِ يديه والشآبيب
إلى الذي تهبُ الدولاتِ راحتُه ولا يمنُّ على آثار موهوب
ولا يَروع بمغدور به أحدًا ولا يُفزِّع موفورًا بمنكوب

ثم يفخر فيقول بعد ذكر الخيل:

تهوي بمنجَرِد ليست مذاهبُه للبس ثوب ومأكول ومشروب
يرى النجومَ بعيني مَن يحاولها كأنها سَلَب في عين مسلوب

وهذا فخر جدير بأن يفزع كافورًا.

ونجد ريح الشكوى في آخر هذه القصيدة حيث يقول:

يا أيها الملك الغاني بتسمية في الشرق والغرب عن وصف وتلقيب
أنتَ الحبيب ولكني أعوذ به من أن أكون مُحبًّا غيرَ محبوب

ذلكم ولما يمض على أبي الطيب عند كافور أكثر من أربعة أشهر!

(د) وفي عيد الأضحى من السنة أنشده القصيدة الرابعة:

أودُّ من الأيام ما لا تَودُّه وأشكو إليها بيننا، وهي جُنده

وهو مطلع ناطق بالشكوى والتحسر.
ويقول في القصيدة:

وأتعبُ خلق الله من زاد همُّه وقصَّر عما تشتهي النفس وجدُه
فلا ينحلل في المجد مالُك كلُّه فينحلَّ مجد كان بالمال عقدُه
ودبِّره تدبيرَ الذي المجدُ كفُّه إذا حارب الأعداءَ والمالُ زَنده
فلا مجدَ في الدنيا لمن قلَّ ماله ولا مالَّ في الدنيا لمن قلَّ مجده

وفي هذا إبانة عما يختلج في فؤاد الشاعر من الأسى وقد طمح إلى مجد قصر عنه ماله، فطوف في الآفاق يبغي ما يبني به مجده فلم يظفر ببغيته.
ويقول أبو الطيب بعد هذا، ومثل هذا الكلام يروع الممدوح ولا يستعطفه:

وفي الناس من يَرضى بميسور عيشه ومركوبُه رِجلاه والثوبُ جِلده
ولكنَّ قلبًا بين جنبيَّ ما له مَدًى ينتهي به في مُراد أَحُدُّه
يرى جسمَه يُكسى شُفوفًا تَرُبُّه فيختارُ أن يُكسى دُروعًا تهدُّه

ثم يقول عن كافور:

أنا اليوم من غلمانه في عشيرة لنا والدٌ منه يُفَدِّيه وُلده
فمِن مالِه مالُ الكبير ونفسُه ومن ماله دَرُّ الصغير وَمهده
نجرُّ القنا الخطيَّ حول قِبابه وتَردى بنا قُبُّ الرباط وجُرْده
ونمتحن النشَّاب في كلِّ وابل دَويُّ القسيِّ الفارسيةِ رَعده
فإلا تكن مصر الشرى أو عرينه فإن الذي فيها من الناس أُسدُه

ويقول العكبري في شرح البيت الأول:

> يريد أنه وهب له غلمانًا وأنه منهم في عشيرة؛ لأنه إذا ركب ركبوا معه وأطافوا به فكأنهم عشائره وأقاربه.

ولست أرى في الأبيات إبانة عن هبة وهبها كافور، ولكن أبا الطيب يخبر عن نزوله بين غلمان كافور ومشاركته إياهم في رمي النشاب، فالأبيات تصف جندًا لا خدمًا وليس فيها ولا بعدها شكر على هبة.

وفي القصيدة يكرر أبو الطيب سؤال كافور أن يصطنعه ويجربه، ويستنجز وعده، ويتبين من كلامه أن كافورًا كان قد وعده بولاية:

فإن نلتُ ما أمَّلت منك فربما ... شَربتُ بماءٍ يُعجز الطيرَ وِرده
ووَعدُك فعلٌ قبل وعد لأنه ... نظيرُ فعال الصادقِ القولِ وعدُه
فكن في اصطناعي محسنًا كمجرِّب ... يبن لك تقريبُ الجواد وشَدُّه
إذا كنت في شكٍّ من السيف فابلُه ... فإمَّا تُنفِّيه وإمَّا تُعِدُّه
وما الصارم الهندي إلا كغيره ... إذا لم يفارقه النِّجادُ وغمده
وإنك للمشكورُ في كل حالة ... ولو لم يكن إلا البشاشةَ رِفدُه
فكل نوال كان أو هو كائن ... فلحظةُ طرف منك عندي نِده
وإني لفي بحر من الخير أصلُه ... عطاياك أرجو مدَّها وهي مدُّه
وما رَغبتي في عسجد أستفيده ... ولكنَّها في مفخر أستجِدُّه
يجود به من يفضح الجودَ جودُه ... ويحمدُه من يفضح الحمدَ حمدُه
فإنك ما مرَّ النحوس بكوكب ... وقابلتَه إلا ووجهُك سعدُه

(ﻫ) والقصيدة الخامسة أنشدها أبو الطيب يوم الأحد رابع عشر ربيع الثاني سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، أي بعد ثلاثة أشهر من القصيدة السابقة، وكان فرس أبي الطيب جرح فحزن عليه فتبين كافور الحزن في وجهه، فأرسلَ خلفه من يسأله فلما عرف هذا بعث إليه فرسًا أدهم.[٢]

[٢] في نسخة شرح المعري أن أبا الطيب نظر إلى كافور فثار الدم في وجهه وخرج، فأرسل وراءه من يسأله، فقال: جرح فرسي إلخ.

وفي هذه القصيدة يمدح سيف الدولة، بعد أن فضَّل كافورًا عليه فيما تقدم. ويذكر أن الحمدانيين بكوا لفراقه رجالًا ونساء، ويُلقي التبعة على سيف الدولة. وأول القصيدة:

فراقٌ ومن فارقتُ غير مذمَّم وأمٌّ من يَمَّمت خيرُ مُيَمَّم
وما منزلُ اللذاتِ عندي بمنزل إذا لم أبَجَّلْ عنده وأكَرَّم
سجيةُ نفس ما تزال مُليحةً من الضَّيم مَرميًّا بها كلُّ مَخرَم
رحلتُ فكم باكٍ بأجفان شادن عليَّ وكم باكٍ بأجفان ضيْغم
وما ربَّة القُرط المَليح مكانُه بأجزعَ من ربِّ الحسام المصمِّم
فلو كان ما بي من حبيب مقنَّع عَذَرتُ ولكن من حبيب مُعمَّم
رمَى واتقى رميي، ومن دون ما اتقى هوًى كاسرٌ كفِّي وقوسي وأسهمي

ويقول في آخر القصيدة يتنجز وعده، ويستبطئه:

ولو كنت أدري كم حياتي قسمتها وصيَّرت ثلثَيها انتظارَكَ، فاعلم
ولكنَّ ما يمضي من الدهر فائتٌ فجُدْ لي بحظٍّ البادر المتغنم
رضيتُ بما ترضى به لي محبةً وقُدْتُ إليك النفسَ قَود المسلِّم
ومثلُك من كان الوسيطُ فؤاده فكلَّمَه عنِّي ولم أتكلَّم

(و) ووقع خلاف بين أنوجور وكافور؛ لأن جماعة من الجند اتصلوا بالأمير فأنكر كافور هذا وطالبه بتسليمهم فوقعت بينهما وحشة أيامًا ثم سلمهم إليه فقتلهم.[٣] واصطلحا وطولب أبو الطيب بذكر الصلح فقال قصيدة هي خير ما يُقال في ثمرات الوفاق وعواقب الشقاق، ومدح فيها كافورًا، وأنشدها في شعبان سنة ٣٤٧ بعد شهرين من القصيدة السابقة، ومطلعها:

حسم الصلحُ ما اشتهته الأعادي وأذاعته ألسن الحسَّاد

[٣] نسخة المعري ونسخة الديوان التي نشرتها.

وأرادته أنفس حال تدبير ك ما بينها وبين المراد

(ز) مضت على أبي الطيب سنة وثلاثة أشهر ولم يبلغ من كافور منيته، فلما جاء عيد الفطر سنة سبع وأربعين وثلاثمائة أنشده القصيدة التي أولها:

أغالب فيك الشوقَ والشوقُ أغلب وأعجبُ من ذا الهجر، والوصل أعجب

وفي شرح المعري ونسخ من الديوان: «كان كافور تقدم إلى أصحاب الأخبار يُرجفون بأنه ولاه موضعًا من الصعيد، وينفذ إليه قومًا يعرفونه ذلك، فلما كثر هذا وعلم أن أبا الطيب لا يثق بكلام يسمعه حمل إليه ستمائة دينار ذهب، فقال هذه القصيدة.»

ومهما يكن فقد أظهر فيها أبو الطيب ندمه على ترك سيف الدولة إلى كافور، وهذه جرأة على الممدوحين لا يعرفها الشعراء. يقول بعد المطلع:

أما تغلط الأيام فيَّ بأن أرى بغيضًا تُنائي أو حبيبًا تقرِّب
ولله سَيرى ما أقل تئيَّةً عشيةَ شَرقيَّ الحَدالى وغُرَّب[٤]
عشيةَ أحفى الناس بي من جفوته وأهدى الطريقين التي أتجنَّبُ

ويقول بعد أبيات:

لحى الله ذي الدنيا مُناخًا لراكب فكلُّ بعيد الهمِّ فيها معذَّب

[٤] الحدالى وغرب جبلان في الشام كانا شرقيه وهو ذاهب إلى مصر، وهذا كما قال في القصيدة «وا حر قلباه ممن قلبه شبم»:

لئن تركنا ضميرًا عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة فلا أشتكي فيها ولا أتعتَّب
وبي ما يذود الشعر عني أقلُّه ولكنَّ قلبي يا ابنة القوم قُلَّب

ويقول:

أبا المسك هل في الكأس فضلٌ أناله فإني أغنِّي منذ حين وتشرب
وهبت عَلَى مقدار كفَّيْ زماننا ونفسي على مقدار كفَّيك تطلب
إذا لم تَنُط بي ضيعة أو ولاية فجُودك يكسوني وشُغلك يسلُب
يضاحك في هذا العيد كلٌّ حبيبَه حذائي وَأبكي من أحب وأندب
أحِنُّ إلى أهلي وأهوى لقاءهم وأين من المشتاق عَنقاء مُغرب

(ح) ويصمت أبو الطيب بعد هذه القصيدة ثمانية أشهر لا يمدح كافورًا، وما كان قبل يسكت عن مدحه أكثر من شهرين أو ثلاثة، وهذا يدل على أن سخط أبي الطيب، ونقمته على أبي المسك، قد اشتدا ولا سيما إذا عرفنا أن عيد الأضحى سنة ٣٤٧ كان في هذه الأشهر الثمانية فلم يهنئه به خلافًا لما عوده، وفي هذه الأشهر نظم الشاعر قصيدتين، نظم الأولى حين بلغه أن جماعة نعوه في مجلس سيف الدولة، وقد أعرب فيها عن حزنه، وسخطه على زمانه، وعتبه على الحمدانيين، وعرض بفراق كافور كما فارقهم، وأول القصيدة:

بم التعلل؟ لا أهل ولا وطن ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكَنُ
أريد من زمني ذا أن يبلِّغني ما ليس يبلغه في نفسه الزمن

ويقول فيها لسيف الدولة:

يا من نُعيتُ على بُعدٍ بمجلسه كلٌّ بما زعم الناعون مرتَهَن
كم قد قُتلت وكم قَدْ مِتُّ عندكم ثم انتفضتُ فزال القبر والكفن
قد كان شاهَد دفني قبل قولهم جماعةٌ ثم ماتوا قبلَ مَن دَفنوا

ويصف بني حمدان بأنهم لا يرعون الجوار وينغِّصون رفدهم بالمن ثم يقول:

سهرتُ بعد رحيلي وحشةً لكم ثم استمر مريري وارعوَى الوسَن
وإن بليتُ بودٍّ مثل ودِّكم فإنني بفراق مثله قَمِنُ

قال ابن جني: حُكي أن سيف الدولة لما سمع هذا البيت قال: سار وحق أبي.

ولم ينشد كافورًا هذه القصيدة، ولكن ختمها بأبيات في مدحه واستنجازه الوعد علمًا بأنها ستبلغه. يختم القصيدة بقوله:

أبلى الأجلة مهري عند غيركم وبُدِّل العُذْرُ بالفسطاط والرسَن
عند الهمام أبي المسك الذي غرقت في جُوده مضرُ الحمراء واليمن
وإن تأخر عني بعضُ موعده فما تأخرُ آمالي ولا تَهِنُ
هو الوفيُّ ولكني ذكرتُ له مودَّةً فهو يبلوها ويمتحن

والقصيدة الثانية التي نظمها في هذه الفترة قصيدة يتبين فيها تفكيره في الناس والدنيا، ويقول فيها: إن مصائب الزمان كثيرة، ولكن الناس لا يكتفون بها فيخلقون لأنفسهم مصائب بالقتال والنزال، وإن مطلب النفوس أصغر من أن يتقاتل الناس عليها.

وهذه القصيدة من خير ما قال في الحكم ومطلعها:

صَحب الناسُ قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا

(ط) ثم تكون وقعة تضطر أبا الطيب إلى أن ينشد كافورًا من شعره، ذلكم أن كافورًا كان قد اصطنع شبيبًا العقيلي الخارجي، وولاه عمان والبلقاء وما يليهما، فعظم أمره، وخرج على كافور، وسار إلى دمشق في جيش كثيف ودخل المدينة.

وفي أثناء الهرج والمرج أُلفي شبيب ميتًا، فارتاع أصحابه وهزموا وتفرقوا. واختلفت الروايات في موته: قيل: ألقت عليه امرأة حجرًا، وقيل: سقطت رجل فرسه في قناة فسقط عنها، وقيل: شرب سويقًا مسمومًا، وقيل: اعتراه صرع كان يعتريه.

وجاءت الأخبار مصر يوم الجمعة ثاني جمادى الثانية سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، وطالب كافور أبا الطيب بأن يذكر هذا في شعره فقال القصيدة التي أولها:

عدوُّك مذموم بكل لسان   وإن كان من أعدائك القمَران

وهي قصيدة يلقى بها الشاعر ممدوحه بعد ترك مدحه ثمانية أشهر، وكأنه أراد أن يهجوه ويغيظه بها لا أن يمدحه، فأول القصيدة:

عدوك مذموم بكل لسان   وإن كان من أعدائك القمران
ولله سرٌّ في عُلاك وإنما   كلام العِدى ضربٌ من الهذَيان

ثم لم يستطع أن يكتم إعجابه بشبيب، وأبو الطيب تعجبه الشجاعة والبطولة حيثما تجليا، وكأنه يرثي شبيبًا في هذه القصيدة لا يُهنئ كافورًا بقتله، يقول:

فإن يك إنسانًا مضى لسبيله   فإن المنايا غايَةُ الحيَوان
وما كان إلا النارَ في كل موضع   تُثير غبارًا في مكان دُخان
فنال حياةً يشتهيها عدوُّه   وموتًا يُشهِّي الموتَ كلَّ جبان
نفى وقع أطراف الرماح برمحه   ولم يخشَ وقعَ النجم والدبران
ولم يدر أن الموت فوق شواته   مُعارُ جَناح محسنُ الطيران
وقد قتلَ الأقرانَ حتى قتلته   بأضعفِ قِرن في أذلِّ مكان
أتته المنايا في طريق خفيَّة   على كلِّ سمع حوله وعِيان
ولو سلكت طُرْق السلاح لردَّها   بطول يمين واتساع جنان
تقصَّده المقدارُ بين صِحابه   على ثقةٍ من دهره وأمان
وهل ينفع الجيشَ الكثيرَ التفافُه   على غير منصور وغير مُعان

يريد أبو الطيب أن يقول لكافور: إنك لم تغلب شبيبًا وما كنت لتقدر عليه في الحرب ولكنك قتلته غيلة أو كفاك أمره القضاء.

وكأنه بعد هذه الأبيات يريد أن يكفر عنها قليلًا وينال ثقة كافور ليركن إليه وينيله ما ابتغى فتراه ينعي الوفاء ويقول: إن العاقل لا يكفر النعمة، وإن كفران شبيب أودى به، ويختم الكلام بقوله:

وعند مَن اليوم الوفاءُ لصاحب؟ شبيبٌ وأوفى مَن ترى أخَوان

وأنَّى ينفع أبا الطيب كلامه في كفر النعمة والوفاء بعد أن أسمع ممدوحه شعرًا يهون فيه انتصاره على عدوه، ويشيد بذكر هذا العدو، ولم يكن أبو المسك غبيًّا عن فهم دقائق الشعر، وقد روى ابن جني في شرح هذه القصيدة، قال: حكى إبراهيم بن محمد العلوي أنه كان بحضرة كافور، وأبو الطيب ينشده هذه القصيدة فلما قال: «بأضعف قرن في أذل مكان»، قال كافور وهو يتكلم بكلام الخدم: «لا والله بل أشد قرن في أعز مكان، فروى الناس بأضعف قرن وجعلوا مكان أذل أعز.»

(ي) وبعد هذه القصيدة التي اضطرته إليها الحادثات والتي هي أقرب إلى الهجاء من المدح انقطع شاعرنا عن مدح الأستاذ كافور الإخشيدي ستة عشر شهرًا.

وفي هذه الفترة أصابته حمى فقال قصيدة باكية شاكية يصف فيها حاله في مصر، ويعرض ببخل كافور ومنعه إياه السفر ويتمنى الرحيل، وكتبها يوم الاثنين لأربع خلون من ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، ويقول في أول القصيدة:

مَلومكما يجلُّ عن الملام ووقعُ فعاله فوق الكلام
ذراني والفلاةَ بلا دليل ووَجهي والهجيرَ بلا لثام
فإني أستريح بذي وهذا وأتعبُ بالإناخة والمُقام
عيونُ رواحلي إن حِرتُ عيني وكلُّ بُغام راحلةٍ بُغامي
فقد أرد المياه بغير هاد سوى عدِّي لها برقَ الغمام
يُذمُّ لمهجتي ربِّي وسيفي إذا احتاج الوحيد إلى الذمام
ولا أُمْسِي لأهل البخل ضيفًا وليس قِرًى سوى مُخ النعام
ولما صار وُدُّ الناس خِبًّا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

إلى أن يقول:

أقمت بأرض مصر فلا ورائي   تخِبُّ بي الرِّكاب ولا أمامي
وملَّنِي الفِراش وكان جنبي   يملُّ لقاءه في كلِّ عام
قليل عائدي سَقِمٌ فؤادي   كثير حاسدي صَعبٌ مرامي
عليل الجسم ممتنع القيام   شديدُ السكر من غير المُدام

ويصف الحمى ونوباتها ثم يقول:

أبنتَ الدهر عندي كل بنت   فكيف وصلتِ أنت من الزحام
جرحت مجرَّحا لم يبق فيه   مكانٌ للسيوف ولا السهام

ويذكر شوقه إلى السفر ثم يقول:

يقول لي الطبيب أكلت شيئًا   وداؤك في شرابك والطعام
وما في طِبِّه أني جواد   أضرَّ بجسمه طولُ الجِمام
تعوَّد أن يغبَّر في السرايا   ويدخلَ من قتام في قتام
فأمسِك لا يُطال له فيَرعَى   ولا هو في العليق ولا اللجام

وقد قال ابن جني، ومثله في شرح المعري: إن أهل مصر شغفوا بهذه القصيدة وبلغت كافورًا فساءته.

(أ) أبو شجاع فاتك: وفي هذه الفترة أيضًا كان اتصال أبي الطيب بأبي شجاع فاتك الملقب بالمجنون.

وكان فاتك روميًّا أسر ورُبي في فلسطين، ثم أخذه الإخشيد من سيده في الرملة كرهًا بلا ثمن فأعتقه صاحبه.

قال في شرح المعري: «فكان معه حرًّا في عدة المماليك كريم النفس حر الطبع بعيد الهمة.

وكان في أيام كافور مقيمًا بالفيوم من أعمال مصر، وهو بلد كثير الأمراض لا يصح به جسم؛ وإنما أقام به أنفةً من الأسود وحياءً من الناس أن يركب معه، وكان

الأسود يخافه ويكرمه فزعًا، وفي نفسه ما في نفسه، فاستحكمت العلة في بدن فاتك، وأحوجته إلى دخول مصر فدخلها ولم يمكن أبا الطيب أن يعوده وفاتك يسأل عنه ويراسله بالسلام، ثم التقيا في الصحراء فحمل إلى منزله للوقت هدية قيمتها ألف دينار ذهب، ثم أتبعها هدايا بعدها.»

وقال صاحب الإيضاح: وصل إليه من أنواع صلاته وأصناف جوائزه ما تبلغ قيمته عشرين ألف دينار.

وقال صاحب الإيضاح أيضًا: «وقادوا بين يديه (يدي فاتك) في مدخله إلى مصر أربعة آلاف جنيبة منعلة بالذهب فسماه أهل مصر بفاتك المجنون.

ويزيد ابن خلكان على هذا أن الفيوم كان إقطاعًا لفاتك، وأن أبا الطيب كان يسمع بكرم فاتك وشجاعته، ولا يستطيع أن يقصده خيفة كافور، وأن أبا الطيب استأذن كافورًا في مدح فاتك فأذن له.»[٥]

وسيرى القارئ كيف جزع الشاعر لوفاة أبي شجاع ورثاه أبلغ رثاء، ورثاء فاتك بثلاث قصائد بعد خروج الشاعر من مصر وانقطاع أمل الشاعر في مثوبة فاتك أو أحد من أقاربه، وما في هذه القصائد من الحزن ومن الإعجاب بشجاعة فاتك ومروءته وسخائه، كل هذا يدل على وفاء الشاعر، كما يدل على إكباره الشجاعة والمروءة وما يتصل بهما من أخلاق.

وفي النسخة (١٥٣٠) أن هذا المدح كان بعد استقرار الحال بين فاتك والأستاذ.

ولا ريب أن شاعرنا ما اتصل بفاتك واستأذن كافورًا في مدحه، وهو يعلم ما بينهما من المنافسة، إلا بعد أن يئس من كافور أو كاد.

أنشد الشاعر مدح فاتك في تاسع جمادى الثانية سنة ٣٤٨، وفي هذه القصيدة أبيات تعد تعريضًا بكافور، فأولها:

لا خيل عندك تُهديها ولا مال فليُسعد النطق إن لم تُسعِد الحال
واجز الأميرَ الذي نعماه فاجئة بغير قول، ونُعمى الناس أقوال

[٥] وكذلك في نسخة ١٥٣٠.

أليس هذا تعريضًا بكافور الذي وعده فلم يفِ له؟ وفيها يقول:

كفاتك ودخول الكاف منقصة　　كالشمس قلت، وما للشمس أمثال

* * *

يريك مخبره أضعاف منظره　　بين الرجال وفيها الماء والآل
تملك الحمد حتى ما لمفتخر　　في الحمد حاء ولا ميم ولا دال

وأكبر الظن أن هذه القصيدة أسخطت كافورًا على أبي الطيب، وأبعدت أمل الشاعر في كافور.

(ب) آخر المدائح: وفي شوال سنة ٣٤٩ أنشد أبو الطيب كافورًا آخر مدائحه، بعد أن انقطع عن إنشاده ستة عشر شهرًا كما أسلفت، وبعد أن مدح فاتكًا، وبعد أن أنشأ قصيدة الحمى التي ساءت كافورًا، فلماذا عاد إلى مدحه وماذا قال؟

أما عوده إلى المدح فإجابة لطلب كافور، وفي نسخة المعري: «وكان كافور يتطلع إلى مدحه ويقتضيه، ولم يكن له بد من مداراته.»

وأحسب تطلع كافور إلى مدح أبي الطيب أحيا في نفسه حشاشة الأمل، فعاد يرمي آخر سهم غير يائس أن يصيب.

بدأ الشاعر يذكر شيبه، وأنه يحمده ولا يذمه، ثم قال فاخرًا بنفسه غير مطامن منها ولا غافل عنها ساعة يتوسل فيها بكافور إلى مطالبه:

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه　　ولو أن ما في الرأس منه حراب
لها ظفر إن كل ظفر أعده　　وناب إذا لم يبق في الفم ناب
يغير مني الدهر ما شاء غيرها　　وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب
وإني لنجمٌ تهتدي صحبتي به　　إذا حال من دون النجوم سحاب
غنيٌ عن الأوطان لا يستخفني　　إلى بلد سافرت عنه إياب
وعن ذملان العيس، إن سامحت به　　وإلا ففي أكوارهن عقاب

ومطلع القصيدة:

مُنًى كن لي أن البياض خضاب   فيخفى بتبييض القرون شباب

تحدث عن نفسه في ثمانية عشر بيتًا ثم مدح كافورًا بتسعة، ثم طالبه بإنجاز ما وعد:

لنا عند هذا الدهر حق يلطه   وقد قل إعتاب وطال عتاب
وقد تُحدث الأيام عندك شيمة   وتنعمر الأوقات وهي يباب
ولا ملك إلا أنت والملك فضلة   كأنك سيف فيه وهو قراب
أرى لي بقربي منك عينًا قريرة   وإن كان قربًا بالبعاد يشاب
وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا   ودون الذي أملت منك حجاب
أقل سلامي حب ما خف عنكم   وأسكت كيما لا يكون جواب
وفي النفس حاجات وفيك فطانة   سكوتي بيان عندها وخطاب
وما أنا بالباغي على الحب رشوةً   ضعيف هوًى يبغى عليه ثواب
وما شئت إلا أن أدل عواذلي   على أن رأيي في هواك صواب
وأعلم قومًا خالفوني فشرقوا   وغربت أني قد ظفرت وخابوا

ويمدحه بعد هذه الأبيات بثلاثة أبيات، ثم يختم القصيدة بقوله:

إذا نلت منك الود فالمال هين   وكل الذي فوق التراب تراب
وما كنت لولا أنت إلا مهاجرًا   له كل يوم بلدة وصحاب
ولكنك الدنيا إليَّ حبيبة   فما عنك لي، إلا إليك، ذهاب

بقي أبو الطيب بمصر بعد هذه القصيدة أربعة عشر شهرًا لا يمدح كافورًا، وتتفق نسخ الديوان والشروح على أنه ما كان يلقاه إلا أن يركب فيسير معه في الطريق لئلا يوحشه.

(٤) ما الذي أمَّل الشاعر من كافور؟

وكان أبو الطيب ضيف كافور مدة مقامه في مصر، وكانت هذه الضيافة صلة بينهما بعد انقطاع الشاعر عن مدحه وغشيان حضرته، ودليلنا على هذه الضيافة ما نقلنا أولًا من أن كافورًا أخلى للشاعر دارًا، وما نجده في هجاء كافور بعد كقول أبي الطيب:

إني نزلت بكذابين ضيفهم   عن القرى وعن الترحال محدود

* * *

جوعان يأكل من زادي ويُمسكني   لكي يقال عظيم القدر مقصود

* * *

لو كان ذا الآكل أزوادنا   ضيفًا لأوسعناه إحسانًا
لكننا في العين أضيافه   يُوسعنا زورًا وبهتانًا

لو كانت منية أبي الطيب أن ينال مالًا من كافور لبلغ بعض منيته فقد أعطاه كافور وأكثر العطاء أحيانًا، ولكن أبا الطيب طمع في ضيعة أو ولاية:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله   فإني أغني منذ حين وتشرب
وهبت على مقدار كفي زماننا   ونفسي على مقدار كفيك تطلب
إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية   فجودك يكسوني وشغلك يسلب

قال هذا في قصيدة أنشأها بعد أن أرسل إليه كافور ستمائة دينار ذهب كما تقدم. ومن قبل قال بعد قدومه مصر بشهر واحد:

فارم بي ما أردت مني فإني   أسد القلب آدمي الرواء
وفؤادي من الملوك وإن كا   ن لساني يرى من الشعراء

ثم قال بعد أن وعده الولاية:

فكن في اصطناعي محسنًا كمجرب يبن لك تقريب الجواد وشده
إذا كنت في شك من السيف فابله فإما تنفيه وإما تعده
وما الصارم الهندي إلا كغيره إذا لم يفارقه النجاد وغمده

وقال في القصيدة نفسها:

وما رغبتي في عسجد أستفيده ولكنها في مفخر أستجده

وقال في القصيدة النونية التي لم ينشدها أمام كافور، وقد أشرف على اليأس:

هو الوفي ولكني ذكرت له مودة فهو يبلوها ويمتحن

(٥) لماذا خيب كافور أمله؟

طلب أبو الطيب ولاية أو ضيعة وألح في الطلب، ووعده كافور وذاع بين الناس حينًا أنه ولاه كما تقدم، فلماذا أخلف كافور وعده، وخيب أمل صاحبه؟

قال في الصبح المنبي: وسأل أبو الطيب كافورًا أن يوليه صيداء من بلاد الشام أو غيرها من بلاد الصعيد، فقال له كافور: «أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سمت نفسك إلى النبوة، فإن أصبت ولاية وصار لك أتباع فمن يطيقك؟»

ولست أصدق أن كافورًا قال للشاعر هذا ولعل هذا كان في نفسه.

ولم يأل أبو الطيب في فخره، وذِكر همته وآماله البعيدة، مما يراه القارئ بينًا فيما قدمت من شعره.

وسبب آخر يذكره مؤرخو أبي الطيب هو ذكر سواده.

في الصبح المنبي، قال الوحيدي:

> كان المتنبي يعلم أن ذكره السواد على مسامع كافور أمر من الموت، فإذا ذكر لون السواد بعد ذلك فقد أساء إلى نفسه، وعرضها للقتل والحرمان، وكان من إحسان الصنعة وإجمال الطلب ألا يذكر لونه، وله عنه مندوحة.

ولست أشارك في هذا الرأي، فقد ذكر أبو الطيب سواد كافور في القصيدة الأولى، ثم ذكره من بعد، ولم يكن أبو الطيب غبيًّا، فلو أحس كراهة كافور هذا لتجنبه، وقد قدمت أنه لما أنشده:

إنما التهنئات للأكفاء ولمن يدني من البعداء

حلف ليبلغنه جميع ما في نفسه، وفي هذه القصيدة يذكر السواد، ويقول:

يفضح الشمس كلما ذرت الشمس بشمس منيرة سوداء
إنما الجسم ملبس وابيضاض النفس خيرٌ من ابيضاض القباء

فلو كره كافور ذكر السواد هذه الكراهة ما اهتز للقصيدة هذه الهزة.

وينبغي ألا ننسى أن الشاعر بعد أشهر من إقامته بمصر شرع يشكو إخلاف كافور، فلما طال عليه الأمد أكثر من تذكيره واستنجازه في كلام لا يخلو من توبيخ كقوله:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله فإني أغني منذ حين وتشرب

وقوله:

وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا ودون الذي أملت منك حجاب

فهذا وأشباهه زاد في نفور كافور، وأبعد الشاعر من غايته.

وقصيدة شبيب التي أنشدها الشاعر أمام كافور، وقصيدة الحمى التي بلغت كافورًا على ألسنة الناس، كان لهما وقع سيئ عليه.

وكذلك مدح فاتك لم يكن ليُرضي كافورًا، وإن أذن به، وقد أثبت فيما تقدم أبياتًا في قصيدة فاتك يمكن عدها تعريضًا بكافور. ولم يقتصر الشاعر على مدح فاتك بل أنس به وركن إليه، وتمكنت بينهما المودة.

وفي نسخة الديوان التي نشرتها:

ولما مدح أبو الطيب أبا شجاع فاتكًا شق على الأسود وشقت عليه قصيدة الحمى.

ولقائل أن يقول: إن الشاعر ما ألحف في مطالبة كافور وخاطبه بما يقارب التوبيخ، ولا قال ما قال في قصيدة شبيب ولا مدح فاتكًا، إلا بعد أن يئس من كافور.

والجواب أن أبا الطيب أعرب عن رجائه في كافور حتى القصيدة الأخيرة، فحشاشة الأمل في نفسه كانت جديرة أن تمنعه أن يقول ويفعل ما يبعده من آماله.

وما أحسب أبا الطيب كان غبيًّا عن أثر ما يقول ويفعل في نفس كافور، ولكن الرجل كان عظيم النفس، أبيًّا، جريئًا لا يحاسب نفسه فيما يقول ولا يبالي كثيرًا موقع كلامه من نفوس الممدوحين، ولم يكن إشفاقه من العواقب يملك عليه قوله وفعله، ويخفض من كبريائه.

وبعدُ فلا ينبغي أن ننسى الوزير ابن الفرات، وقد أغفله أبو الطيب فلم يمدحه، وقد مدحه شعراء آخرون منهم الناشئ، مدح كافورًا ووزيره، ولو توسل شاعرنا بالوزير لكان أقرب إلى أمله، وأظنه كبر عليه أن يمدحه، أو لم يجد من حفاوته ما يغريه بمدحه، كما أبى مدح الوزير المهلبي في بغداد.

(٦) روايات عن أبي الطيب بمصر

قبل أن أتكلم في رحيل أبي الطيب عن مصر أثبت واقعات حدثت له أيام مقامه بها:

كان أبو بكر الكندي من أدباء مصر وعلمائها في القرن الرابع، برع في الحديث واللغة والنحو والأدب ولقب سيبويه لمكانته في النحو وغريب اللغة، وقد حدث علي بن حمزة، قال حدثني أبو الطيب قال: «وسيبويه هذا فصيح خفيف الروح يركب حمارًا يدور عليه ويتكلم والناس يكتبون ألفاظه.» وقال: «وقف سيبويه المجنون على باب مسجد الجامع بمصر فقال: ملوك الناس ثلاثة أقرع وأفظع وأرقع، وذكر كلامًا كثيرًا، ثم قال: وهذا الذي لهج أهل مصر بشعره، لو قال:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدوًّا له ما من مداجاته بد

لكان أحسن من «صداقته».

قال علي بن حمزة: فاستحسنت أنا وجميع من حضر وقلنا هو أحسن. فقال أبو الطيب: لم يدر ما أردت، قال: والذي أراد أبو الطيب أحسن.»[٦]

وهذه القصة تُروى في الصبح المنبي على هذه الصورة:

حدث محمد بن الحسن الخوارزمي قال: مررت بمحمد بن موسى الملقب بسيبويه وهو يقول مدح الناس المتنبي على قوله:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدوًّا له ما من صداقته بد

ولو قال ما من مداراته أو مداجاته بد لكان أحسن وأجود، قال: واجتاز المتنبي به فوقف عليه وقال: أيها الشيخ أحب أن أراك، فقال له: رعاك الله وحياك؛ فقال له: بلغني أنك أنكرت عليَّ قولي: «عدوًّا له ما من صداقته بد»، فما كان الصواب عندك؟ فقال له: الصداقة مشتقة من الصدق في المودة، ولا تسمي الصديق صديقًا وهو كاذب في مودته، فالصداقة إذن ضد العداوة، ولا موقع له في هذا الموضع، ولو قلت: ما من مداراته أو مداجاته لأصبت. هذا رجل منا (يريد نفسه) قال:

أتاني في قميص اللاذ يسعى   عدو لي يلقب بالحبيب

فقال المتنبي: أمع هذا غيره؟ قال: نعم.

وقد عبث الشراب بوجنتيه   فصير خده كسنا اللهيب
فقلت له متى استعملت هذا   لقد أقبلت في زي عجيب
فقال الشمس أهدت لي قميصًا   مليح اللون من نسج المغيب
فثوبي والمدام ولون خدي   قريب من قريب من قريب

فتبسم المتنبي وانصرف، وسيبويه يصيح عليه: أُبكم الرجل وجلال الله.

[٦] نسخة الأوقاف ببغداد.

وفي معجم الأدباء[٧] أن الخطيب أبا الوليد بن عسال حج، فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي، واستشرف، ورأى أن لقيته فائدة يكتسبها، وجملة فخر يحتسبها فصار إليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ففاوضه قليلًا، ثم قال: ألا أنشدني لمليح الأندلس — يعني ابن عبد ربه — فأنشده:

يا لؤلؤًا يسبي العقول أنيقًا ورشًا بتقطيع القلوب رفيقًا
ما إن رأيت وما سمعت بمثله درًّا يعود من الحياء عقيقًا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقا

فلما أكمل إنشاده استعادها منه، ثم صفق بيديه وقال: «يا بن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبوًّا.»

وفي يتيمة الدهر[٨] عن ابن جني قال: وحدثني المتنبي قال حدثني فلان الهاشمي من أهل حران بمصر، قال: أحدثك بطريفة، كتبت إلى امرأتي وهي بحران كتابًا تمثلت فيه ببيتك:

بِمَ التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

فأجابتني عن الكتاب وقالت: ما أنت والله كما ذكرته في هذا البيت، بل أنت كما قال الشاعر في هذه القصيدة:

سهرت بعد رحيلي وحشةً لكم ثم استمر مريري وارعوى الوسن

هذا ولا ريب أن ديوان أبي الطيب قرئ عليه بمصر، وسنبين في الكلام على معرفته باللغة أنه أملى بها تصحيحًا لكتاب المقصور والممدود لابن ولاد.

[٧] ترجمة ابن عبد ربه.

[٨] ترجمة أبي الطيب.

الفصل الثالث عشر

الرحيل من مصر

(١) هل منع كافور أبا الطيب أن يرحل عن مصر؟

أقام شاعرنا في مصر أربع سنين وستة أشهر كما قدمنا، وقد بينا أنه قد بدأ يشكو مِطال كافور بعد ثلاثة أشهر من قدومه عليه وأنه لم ينشئ في مدحه ما بين شوال سنة ٣٤٧ وسفره من مصر، وهي ثمانية وثلاثون شهرًا، إلا قصيدتين: قصيدة شبيب العقيلي والقصيدة الآخرة، وأنه بعد القصيدة الخاتمة بقي أربعة عشر شهرًا لا يمدح الرجل ولا يلقاه، وقد ذكر الرحيل في شعره مرارًا، فما الذي أمسكه في مصر هذه المدة؟ أكان الرحيل محظورًا عليه؟

يقول في قصيدة الحمى:

أقمت بأرض مصر فلا ورائي　　تخب بي الركاب ولا أمامي
وملني الفراش وكان جنبي　　يمل لقاءه في كل عام

ويقول:

ألا يا ليت شعر يدي أتمسي　　تصرف في عنان أو زمام
وهل أرمي هواي براقصات　　محلاة المقاود باللغام
فربتما شفيت غليل صدري　　بسير أو قناة أو حسام
وضاقت خطة فخلصت منها　　خلاص الخمر من نسج الفدام
وفارقت الحبيب بلا وداع　　وودعت البلاد بلا سلام

يقول لي الطبيب: أكلت شيئًا | وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبه أني جواد | أضر بجسمه طول الجمام
تعود أن يُغبر في السرايا | ويدخل من قتام في قتام
فأمسك لا يطال له فيرعى | ولا هو في العليق ولا اللجام

فانظر كيف يتمنى الرحيل، ويرى فيه شفاءه، فكيف أقام سنة بعد هذه القصيدة؟ ومن قوله في القصيدة التي هجا بها كافورًا عند رحيله من مصر:

إني نزلت بكذابين ضيفهم | عن القرى وعن الترحال محدود

وقوله:

جوعان يأكل من زادي ويُمسكني | لكي يقال عظيم القدر مقصود

وقوله:

لو كان ذا الآكل أزوادنا | ضيفًا لأوسعناه إحسانًا
لكننا في العين أضيافه | يوسعنا زورًا وبهتانًا
فليته خلى لنا طرقنا | أعانه الله وإيانا

وهذا يُشعر أن كافورًا كان يمنعه المسير.

وفي الديوان ما هو أبين من هذا، في شرح المعري ونسخ من الديوان أن الشاعر كتب إلى كافور يستأذنه في المسير إلى الرملة ليتنجز مالًا بها، وأراد أن يعرف رأيه في مسيره، فأجابه: لا والله، أطال الله بقاءك، لا نكلفك المسير ولكن ننفذ رسولًا يأتيك به، فلما قرأ الجواب قال:

أتحلف لا تكلفني مسيرًا | إلى بلد أحاول فيه مالًا
وأنت مكلفي أنبى مكانًا | وأبعد شقة وأشد حالًا
إذا سرنا عن الفسطاط يومًا | فلقني الفوارس والرجالا

لتعلم قدر من فارقت مني   وأنك رمت من ضيمي محالا

وسنرى في رحيل أبي الطيب إلى الكوفة أنه رحيل هارب لا رحيل مودع مشيع.

فلماذا منع كافور أبا الطيب الرحيل؟ أنزل كافور الشاعر الأبي دارًا، وأعطاه أكثر ما يعطي الشعراء، وحسب أن هذا يكفيه وأنه يكون عنده كما كان عند سيف الدولة، فلما طالبه بولاية أو ضيعة وعده، ثم خافه حين رأى علو نفسه، وبعد أمانيه، ولما سمع من حبسه في صباه، وأنه ادعى النبوة. وأسباب أخرى سنذكرها عند الكلام على هجاء كافور.

فلما ألح أبو الطيب في اقتضاء كافور ما وعده، وأشفق كافور أن يُنيله، بقي الشاعر بين يأس قريب ورجاء بعيد، وتلدد كافور لا يدري ما يفعل، أيولي هذا الرجل الطماح ولاية أم يعطيه ضيعة أم يرضيه بعطاء جزيل ليس هو أهلًا له أم يتركه يذهب حيثما شاء فيعرض نفسه للهجاء، ويحرم مدائح الشاعر الذائع الصيت التي تطير بذكره في الآفاق، فمنى نفسه أن يبقى أبو الطيب بجانبه قانعًا بما يدره عليه بين الحين والحين مشيدًا بذكره.

جوعان يأكل من زادي ويمسكني   لكي يقال عظيم القدر مقصود

(٢) من الفسطاط إلى الكوفة

أقام أبو الطيب في مصر أربعة عشر شهرًا لا يمدح كافورًا ولا يلقاه إلا أن يركب فيسير معه لئلا يوحشه.

وكان يتعزى بأبي شجاع فاتك والحديث معه، فلما تُوفِيَ فاتك عزم على الرحيل، وكانت وفاته ليلة الأحد وقت العشاء الآخرة لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمسين وثلاثمائة[١] فقد لبث أبو الطيب بعد فاتك شهرين يدبر لرحيله، «وقد أعد كل ما يحتاج إليه على مر الأيام في لطف ورفق ولا يعلم به أحد من غلمانه، وهو يظهر

[١] المعري، والواحدي ونسختي من الديوان.

الرغبة في المقام، وطال عليهم التحفظ، فخرج ودفن الرماح في الرمل، وحمل الماء على الإبل في الليل من النيل عُدة لعشر ليال وتزود لعشرين.»[٢]

وكان كافور يتحسس أخباره حتى قيل: إن جيرانه كانوا يراعونه، وإن جماعة كانوا يرقبون داره يتعرفون من يدخل إليه، وإن صاحب الخبر كان يفد إلى بابه كل يوم[٣]

وفي ليلة عيد الأضحى أنشأ قصيدته الباكية الساخطة التي أولها:

عيدٌ بأية حال عدت يا عيد؟	بما مضى أم لأمر فيه تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهم	فليت دونك بيدًا دونها بيد
لولا العلى لم تجب بي ما أجوب بها	وجناء حرف ولا جرداء قيدود
وكان أطيب من سيفي معانقةً	أشباه رونقه الغيد الأماليد
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي	شيئًا تتيمه عين ولا جيد
يا ساقيَّ أخمر في كئوسكما	أم في كئوسكما هم وتسهيد
أصخرة أنا؟ ما لي لا تحركني	هذي القيان ولا تلك الأغاريد
إذا أردت كميت اللون صافية	وجدتها وحبيب النفس مفقود

ويقول في هجاء كافور:

جوعان يأكل من زادي ويمسكني	لكي يقال عظيم القدر مقصود
ويلمها خطة ويلم قابلها	لمثلها خُلق المهرية القود
وعندها لذ طعم الموت شاربه	إن المنية عند الذل قنديد

قال في الإيضاح:

وكان رسم السلطان أن يستقبل العيد بيوم تعد فيه الخلع والحملانات وأنواع المبار لرابطة جنده، ورتبة جيشه، وصبيحة العيد تفرق، وثاني اليوم يذكر

[٢] المعري، ونسخة أوقاف بغداد.

[٣] المعري، ونسخة أوقاف بغداد.

له من قبل ومن رد واستزاد، فاهتبل المتنبي غفلة كافور، ودفن رماحه وسار ليلته.[٤]

وكتب أبو الطيب إلى عبد العزيز بن يوسف الخزاعي في بلبيس يطلب منه دليلًا، وتتفق الروايات على أنه كتب إليه هذه الأبيات:

جَزَى عربًا أمست ببلبيس ربها   بمسعاتها تَقْرَرْ بذاك عيونها
كراكر من قيس بن عيلان ساهرًا   جفون ظباها للعلى وجفونها
وخص به عبد العزيز بن يوسف   فما هو إلا غيثها ومعينها
فتى زان في عيني أقصى قبيلة   وكم سيد في حلة لا يزينها

ولا ريب أن أبا الطيب كان يعرف عبد العزيز من قبل، ويركن إليه ولولا معرفته إياه ووثوقه به ما كتب إليه ولا مر به، وبرهان هذا أن في النسخة (١٥٣٠) وله في عبد العزيز الخزاعي قبل رحيله من مصر:

لئن مر بالفسطاط عيشي لقد حلا   بعبد العزيز الماجد الطرفين
فتى زان قيسًا بل معدًا جميعًا   وما كل سادات الشعوب بزين
تناول ودي من بعيد فناله   جرى سابقًا في الود ليس برين

فانظر قوله لئن مر بالفسطاط وقوله: «تناول ودي من بعيد فناله» تر أن المودة بدأت بين الرجلين، وأبو الطيب في الفسطاط، وأحسب الشاعر قد كتب إليه يؤذنه بسيره، ويسأله دليلًا، ثم مر به.

وقد نزل عنده حين مر ببلبيس فأضافه وأكرمه وسيره.[٥]

وفي شرح المعري ونسخ من الديوان:

وأخفى طريقه حتى قال بعض أهل البادية: هبه سار فهل محا أثره؟ وقال بعض المصريين إنما أقام حتى عمل طريقًا تحت الأرض، وتبعته البادية

[٤] الخزانة ج١ ص٣٨٥.

[٥] النسخة ١٥٣٠.

والحاضرة ومن وثقوا به من الجند، وكتبوا إلى عمالهم بالحوفين والجفار وغزة والشام وجميع البوادي.

وأحسب خروج أبي الطيب خفية أثار أحاديث الناس، وخلق طائفة من القصص التي تحركها العامة حول الحادثات الخفية العجيبة وليس عجيبًا أن يتبعه كافور جماعة، ويكتب إلى عماله، فما كان ليرضى خروج شاعره على هذه الشاكلة غير مادح ولا مستأذن، خروجًا يفتح عليه بابًا من الهجاء والتشهير، وأحسب القصيدة التي أنشأها أبو الطيب ليلة العيد بلغت كافورًا بعد قليل فثارت ثائرته. وتحفُّظُ أبي الطيب في مسيره دليل على أنه كان يتوجس شرًّا من كافور أن يتبعه جندًا أو يكتب إلى من يقطع عليه الطريق.

وتتبعُ أبي الطيب في سفره وتعرفُ ما عرض له في طريقه، يشوق كل متأدب معجب بهذا الشاعر الشجاع، وأنا أثبت هنا القصة بعد أن قابلت منها روايتين محرفتين في شرح المعري ونسخة بغداد، ونتفًا في شرح ابن جني، فصححتها على قدر الطاقة.

ثم اهتديت، بعد الطبعة الأولى، إلى نسخة من الديوان قديمة صحيحة جعلتها أصلًا لطبعة الديوان التي أخرجتها على ذكرى الشاعر بعد ألف سنة من وفاته، وفي هذه النسخة مقدمات للقصائد وتفصيل للحوادث لا يجدها الباحث في نسخة أخرى.

وهي توافق في قصة سفر أبي الطيب من مصر إلى العراق ما في شرح المعري إلا قليلًا.

وإليك هذه القصة العجيبة كما جاءت في هذه النسخة:

«وكانت للأسود عليه عيون، وكان جميع جيرانه يراعونه حتى كان قوم يسهرون حذاء منزله يتفقدونه ويتعرفون من يدخل إليه ويخرج من عنده، ويفد كل يوم صاحب الخبر إلى بابه، حتى يقف على حاله، وهو يعلم بذلك فلا يظهره لهم.

وكان يتسلى بفاتك والحديث معه، وتوفي فاتك فعمل أبو الطيب على الرحيل، وقد أعد كل ما يحتاج إليه على مر الأيام في رفق ولطف لا يعلم به أحد من غلمانه، وهو يظهر الرغبة في المقام، وطال عليهم التحفظ فخرج فدفن الرماح في الرمل، وحمل الماء على الإبل في الليل من النيل عُدة لعشر ليال، وتزود لعشرين.

وكتب إلى عبد العزيز بن يوسف الخزاعي «الأبيات التي قدمتها» وأخفى طريقه فلم يأخذوا له أثرًا حتى قال بعض أهل البادية؛ هبه سار فهل محا أثره، وقال بعض المصريين: إنما أقام حتى عمل طريقًا تحت الأرض.

وتبعته البادية والحاضرة ومن وثقوا به من الجند، وكتبوا إلى عمالهم بالحوفين والفجار وغزة والشام وجميع البوادي.

وعبر أبو الطيب بموضع يعرف بنجة الطير[٦] إلى الرثنة حتى خرج إلى ماء يعرف بنخل في التيه بعد أيام وتسميه العامة بحرًا — فلقي عنده في الليل ركبًا وخيلًا صادرة عنه فقاتلوه فأخذهم. وتركهم وسار حتى قرب من النقاب فرأى رائدين لبني سليم على قلوصين، فركب وطردهما حتى أخذهما فذكرا له أن أهلهما أرسلوهما رائدين ووعداه النزول ذلك اليوم بين يديه، فاستبقاهما ورد عليهما القلوصين وسلاحهما، وسار وهما معه حتى توسط بيوت بني سليم آخر الليل، فضرب له ملاعب بن أبي النجم خيمة بيضاء وذبح له وغدا فسار إلى النقع فنزل ببادية من معن وسنبس، فذبح له عفيف المعني غنمًا وأكرمه، وغدا من عنده وبين يديه لصان من جذام يدلانه في الطريق، فصعد في النقب المعروف بتربان، وفيه ماء يُعرف بغرندل فسار يومه وبعض ليلته ونزل وأصبح فدخل حِسْمَى.

وحسمَى هذه أرض طيبة، تؤدي أثر النحلة من لينها، وتنبت سائر النبات مملوءة جبالًا في كبد السماء متناوحة ملس الجوانب، إذا نظر الناظر إلى قلة أحدها فتل عنقه حتى يراها، بشدة، ومنها ما لا يقدر أحد أن يصعده، ولا يكاد القتام يفارقها، وذلك معنى قول النابغة:

فأصبح عاقلًا بجبال حسمَى دقاق الترب محتزم القتام

وقد اختلف الناس في تفسير هذا البيت ولم يعلموا ما أراد، وتكون مسيرة ثلاثة أيام في يومين يعرفها من رآها من حيث رآها؛ لأنها لا مثيل لها في الدنيا ومن جبالها جبل يُعرف بأرم عظيم العلو تزعم البادية أن عليه كرومًا وصنوبرًا.

فوجد بني فزارة بها شاتين فنزل بقوم من عدي فزارة فيهم أولاد لاحق ابن مخلب.[٧]

[٦] معجم البلدان: نجة الطير موضع بمصر وأرض التيه له ذكر في خبر المتنبي.

[٧] في شرح المعري: مجلب.

وكان مخلب هذا خرج يطلب ناقة له فقدها، وكانت فزارة قد أخذت غزيًّا غزاها فكانت الأسرى في القد بين البيوت فسمعه بعض الأسرى ينشد الناقة، فقال هي بموضع كذا وكذا وجدناها أمس فشربنا لبنها وتركناها لنعود فنأخذها؛ فنادى مخلب على شهادتكم يا معشر العرب، ثم عاد فلبس سلاحه وركب فرسه وقال: الغزي ضيوفي، فخلصهم من القد بعد اختلاف الناس وخوف الشر، فرد عليهم كل شيء أخذ لهم، وقراهم وسيرهم وقال:

إن تك ناقتي منعت غزيًّا — تجر صرارها ترعى الرحابا
فأي فتى أحق بذاك مني — وأجدر في العشيرة أن يُهابا

وكان بينه وبين أمير بني فزارة حسان بن حكمة مودة وصداقة فنزل بجار للقوم ليوري عنهم فلا يعلم بما بينه وبينهم واسم الجار وردان بن ربيعة من طي ثم من معن ثم من بني شبيب، فاستغوى عبيده وأفسدهم عليه وأجلسهم مع امرأته، فكانوا يسرقون له الشيء بعد الشيء من رحله.

وطابت حِسْمَى لأبي الطيب فأقام بها شهرًا، وكتب الأسود إلى من حوله من العرب ووعدهم، وظهر لأبي الطيب فساد عبيده، وكان الطائي يرى عند أبي الطيب سيفًا مستورًا فيسأله أن يريه إياه فلا يفعل؛ لأنه كان على قائمه ونعله ذهب من مائة مثقال، وكان السيف لا ثمن له، فجعل الطائي يحتال على العبيد بامرأته طمعًا في السيف؛ لأن بعضهم أعطاه خبره.

فلما أنكر أبو الطيب أمر العبيد، ووقف على مكاتبة الأسود لكل العرب التي حوله في أمره، أنفذ رسولًا إلى فتى من بني فزارة ثم من بني مازن ثم ولد هرم بن قطبة بن سيار يقال له: فليتة بن محمد، وفيهم يقول بعض البادية:

إذا ما كنت مغتربًا فجاور — بني هرم بن قطبة أو دثارًا
إذا جاورت أدنى مازني — فقد ألزمت أقصاها الجوارا

وكان قد وافقه قبل ذلك على المراسلة، فسار إليه، وترك أبو الطيب عبيده نيامًا وتقدم إلى الجمال فشد على الإبل وحمل خوفًا أن يحتبس[٨] عنه بعض عبيده، فلم يعلموا حتى أنبههم وطرحهم على الإبل، وجنب الخيل وسار تحت الليل والقوم لا يعلمون برحيله، ولا يشكون أنه يريد البياض، فأخذ طريق البياض فلما صار برأس الصوان أنفذ فليتة بن محمد، إلى عرب بين يديه وتوقف.

وأخذ أحد العبيد في الليل السيف فدفعه إلى عبد آخر ودفع إليه فرسه، وجاء ليأخذ فرس مولاه، وانتبه أبو الطيب، وقال الغلام: أخذ العبد فرسي، يغالط بهذا الكلام، وعدا نحو الفرس ليقعد في ظهره، فالتقى هو وأبو الطيب عند الحصان، وسل العبد السيف فضرب رسنه، فضرب أبو الطيب وجه العبد فقسمه (فخر على رتمة)[٩] وأمر الغلمان فقطعوه، وانتظروا الصباح، وكان هذا العبد أشد من معه وأفرسهم (قال الرتم شجر له أغصان ملس دقاق سباط والواحدة رتمة).[١٠]

فلما أصبح أتبع العبد علي الخفاجي وعلوان المازني، وأخذا أثره فأدركاه عصرًا وقد قصر الفرس الذي تحته، فسألهما عن مولاه فقالا جاءك من ثم؛ وأشارا إلى موضع، فدنا منهما كالعائذ وهو يتبصر، فقالا له: تقدم، فقال: ما أراه، فإن رأيته جئتكما، وإن لم أره فما لكما عندي إلا السيف، فامتنع منهما، وعادا في غد ووافق عودة فليتة، فقال فليتة: لقد كان فيما جرى خيرة؛ لأن الوقت الذي اشتغلتم بقتله فيه، كانت سرب الخيل عابرة مع ذلك العلم، ولو كنتم زلتم عن موضعكم لحدث بعضكم بعضًا، فقال أبو الطيب ارتجالًا:

إن تك طيئ كانت لئامًا ... فألأمها ربيعة أو بنوه
وإن تك طيئ كانت كرامًا ... فوردان لغيرهم أبوه
مررنا منه في حسمى بعبد ... يمج اللؤم منخره وفوه
أشذ بعرسه عني عبيدي ... فأتلفهم، ومالي أتلفوه
فإن شقيت بأيديهم جيادي ... لقد شقيت بمنصلي الوجوه

[٨] في شرح المعري: يختلس.

[٩] الزيادة من شرح المعري.

[١٠] ما بين القوسين من شرح المعري.

وقال فيه:

لحى الله وردانًا وأمًّا أتت به ... له كسب خنزير وخرطوم ثعلب
فما كان منه الغدر إلا دلالة ... على أنه فيه من الأم بالأب
إذا كسب الإنسان من هن عرسه ... فيا لؤم إنسان ويا لؤم مكسب
أهذا اللذيا بنت وردان بنته ... هما الطالبان الرزق من شر مطلب[11]
لقد كنت أنفي الغدر عن توس طيئ[12] ... فلا تعذلاني رب صدق مكذب

وقال أيضًا (في العبد الذي قتله):

أعددت للغادرين أسيافًا ... أجدع منهم بهن آنافا
لا يرحم الله أرؤسًا لهم ... أطرن عن هامهن أقحافا
ما ينقم السيف غير قلتهم ... وأن تكون المئون آلافا
يا شر لحم فجعته بدم ... وزار للخامعات أجوافا[13]
قد كنت أغنيت عن سؤالك بي ... من زجر الطير لي ومن عافا[14]
وعدت ذا النصل من تعرضه ... وخفت لما اعترضت إخلافًا
لا يذكر الخير إن ذُكرت ولا ... تُتبعك المقلتان توكافا[15]
إذا امرؤ راعني بغدرته ... أوردته الغاية التي خافا

وسار أبو الطيب حتى نظر إلى آثار الخيل، ولم يجد مع فليتة خبرًا عن العرب التي طلبها، فقال له: اخرق بنا على بركة الله إلى دومة الجندل، وذلك أنه أشفق أن تكون عليه عيون بحسمى قد علمت أنه يريد البياض فسار حتى انحدر إلى الكفاف

[11] بنت وردان: دويبة كالخنفساء حمراء تألف القاذورات.

[12] التوس: الأصل.

[13] الخامعات: الضباع.

[14] في شرح الواحدي أن العبد الذي قتل كان سأل عائفًا عن حال المتنبي فذكر له من حاله ما زين له الغدر به.

[15] وكف المطر: قطر.

فورد البويرة بعد ثلاث ليال، وأدركتهم لصوص أخذت آثارهم وهم عليها فلم يطمعوا فيهم، وسار معهم حمصي بن القلاب.

فلما توسط بسيطة (وهي أرض تقرب من الكوفة) رأى بعض عبيده ثورًا يلوح فقال: هذه منارة الجامع، ونظر آخر إلى نعامة في جانبها الآخر، فقال وهذه نخلة، فضحك أبو الطيب وضحكت البادية فقال:

بسيطة مهلا سقيت القطارا   تركت عيون عبيدي حيارى
فظنوا النعام عليك النخيل   وظنوا الصوار عليك المنارا
فأمسك صحبي بأكوارهم   وقد قصد الضحك فيهم وجارا

وورد العقدة بعد ليال وسقى بالجراوي؛ واجتاز ببني جعفر بن كلاب، وهم بالبريت والأضارع فبات فيهم؛ وسار إلى أعكش حتى ورد الرهيمة، ودخل الكوفة فقال في شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة:

ألا كل ماشية الخيزلَى   فدى كل ماشية الهيدبَى

ا.هـ.»

لم يسلك أبو الطيب طريقًا معهودة بين مصر والعراق، تجنب طريق الشام إذ كانت في سلطان كافور، فما سلك طريق دمشق إلى الكوفة ولا طريق الفرات، ولم يسلك طريق الحاج المصري إلى الحجاز، ولا طريق الحاج العراقي من المدينة إلى الكوفة، فهذه المواضع التي ذكرت في الرواية المتقدمة والمواضع التي ذكرها أبو الطيب في قصيدته ليست من منازل الطرق المعروفة في كتب المسالك، فقد سار؛ كما قال صاحب الإيضاح: «على الحلل والأحياء والمفاوز المجاهيل والمناهل الأواجن.»[١٦] ومن أجل هذا كان أبو جعفر وزير عضد الدولة يختلف إليه في شيراز ليحفظ المناهل والمنازل من مصر إلى الكوفة.[١٧]

[١٦] الخزانة ص٣٨٥.

[١٧] الخزانة ص٣٨٨.

وحقٌّ أن مسير أبي الطيب من الفسطاط إلى الكوفة على هذه الشاكلة تصديقُ ما ادعى في شعره من الجرأة والدربة على الأسفار بالليل والنهار، والخبرة بالبوادي، والمعرفة بقبائل العرب وسادتها، والدهاء والحزم. وقد صدق حين قال:

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والضرب والطعن والقرطاس والقلم

(٣) بلوغه الكوفة

بلغ أبو الطيب الكوفة في شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة بعد ثلاثة أشهر من خروجه من الفسطاط، فأنشأ قصيدة يعدد فيها المواضع التي مر بها في مسيره، وقد عد واحدًا وعشرين موضعًا، ويفخر بما فعل ويهجو كافورًا، وأول القصيدة:

ألا كل ماشية الخيزلَى   فدى كل ماشية الهيدبَى
وكل نجاة بجاوية   خنوف وما بي حسن المِشَى
ولكنهن حبال الحياة وكيد   العداة وميط الأذى
ضربت بها التيه ضرب القمار   إما لهذا وإما لذا
إذا فزعت قدمتها الجياد   وبيض السيوف وسمر القنا
فمرت بنخل وفي ركبها   عن العالمين وعنه غنى

وذكر مواضع مر بها إلى أن قال:

فلما أنخنا ركزنا الرماح   بين مكارمنا والعلى
وبتنا نقبل أسيافنا   ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعراق   ومن بالعواصم أني الفتى
وأني وفيت وأني أبيت   وأني عتوت على من عتا
وما كل من قال قولًا وفى   ولا كل من سيم خسفًا أبى
ومن يك قلبٌ كقلبي له   يشق إلى العز قلب التوى

ولا بد للقلب من آلة ... ورأي يصدع صم الصفا
وكل طريق أتاه الفتى ... على قدر الرِّجل فيه الخُطى

ثم أخذ يهجو كافورًا ووزيره، ويصف حاله في مدحه:

ونام الخويدم عن ليلنا ... وقد نام قبل عمى لا كرى
وكان على قربنا بيننا ... مهامه من جهله والغبى
وماذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكى
بها نبطيٌّ من اهل السواد ... يدرس أنساب أهل الفلا
وأسود مشفره نصفه ... يقال له أنت بدر الدجى
وشعر مدحت به الكركدن ... بين القريض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحًا له ... ولكنه كان هجو الورى

هكذا رجع الشاعر الهمام إلى بلده بعد أن غاب عنها نحو ثلاثين سنة.

الفصل الرابع عشر

رثاء فاتك وهجاء كافور

خرج أبو الطيب من مصر ناقمًا على كافور الذي وعده ومطله ثم أخلفه، باكيًا على صديقه أبي شجاع فاتك الذي أعطاه بغير وعد وتودد إليه فأنس به ورجا أن يجد فيه صديقًا معوانًا في النائبات، أخرجه من مصر خيبة أمله في كافور ومصيبته في أبي شجاع، فانظر قلب الشاعر مقسمًا بين نقمة يصبها على عدوه وحرقة يضرمها الحزن والحسرة على صديقه، وهو بين النقمة والحزن يرى الزمان وأهله فيأتي بالحكمة الثائرة الساخطة حينًا والحكمة الوادعة حينًا، وقد أبان في هجاء كافور عن قلب حقود لا يغفر الذنب ولا يعفو عن الإساءة كما أبان في رثاء فاتك عن قلب وفيٍّ لا ينسى المودة ولا يكفر النعمة.

١

فأما رثاء فاتك ففي ثلاث قصائد:

الأولى العينية التي أنشأها حين وفاة أبي شجاع وتوفي ليلة الأحد عشاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمسين وثلاثمائة، وأنشدها بعد رحيله عن الفسطاط.[١] وقد رحل عنها بعد شهرين من وفاة فاتك، وأولها:

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصِيٌّ طيع

[١] نسختي من الديوان.

يتنازعان دموع عين مسهد   هذا يجيء بها وهذا يرجع
النوم بعد أبي شجاع نافر   والليل مُعيٍ والكواكب ظلع
إني لأجبن من فراق أحبتي   وتحس نفسي بالحمام فأشجع
ويزيدني غضب الأعادي قسوة   ويلم بي عتب الصديق فأجزع

وفي البيتين الأخيرين وصف صادق لنفسه فقد كان في هذه القصيدة نفسها قاسيًا على عدوه كافور، رقيقًا يذوب حسرات على صديقه فاتك.

وانظر كيف يجتمع الغضب والحزن في قوله:

قبحًا لوجهك يا زمان فإنه   وجه له من كل لؤم برقع
أيموت مثل أبي شجاع فاتك   ويعيش حاسده الخصي الأوكع
أبقيت أكذب كاذب أبقيته   وأخذت أصدق من يقول ويسمع
وتركت أنتن ريحة مذمومة   وأخذت أطيب ريحة تتضوع

ثم يقول في رثاء فاتك وهو يفكر في كافور وأشباهه:

المجد أخسر والمكارم صفقة   من أن يعيش لها الكريم الأروع
والناس أنزل في زمانك منزلا   من أن تعايشهم وقدرك أرفع

والقصيدة الثانية نظمها في الكوفة وقد أخرج تفاحة من الند عليها اسم فاتك فقال:

يذكرني فاتكًا حلمُه   وشيء من الند فيه اسمه
ولست بناسٍ ولكنني   يُجدد لي ذكره شمه
وأي فتى سلبتني المنون   لم تدر ما ولدت أمه
ولا ما تضم إلى صدرها   ولو علمت هالها ضمه
بمصر ملوك لهم ما له   ولكنهم ما لهم همه
فأجود من جودهم بخله   وأحمد من حمدهم ذمه
وأشرف من عيشهم موته   وأنفع من وجدهم عدمه

وإن منيته عنده ... لكالخمر سُقِّيه كرمه
فذاك الذي عبه ماؤه ... وذاك الذي ذاقه طعمه
ومن ضاقت الأرض عن نفسه ... حرى أن يضيق بها جسمه

وهذه ذكرى تنطق بالحسرة على صديقه والوفاء له، تأمل قوله: ولست بناسٍ إلخ، وقوله: وأي فتى سلبتني المنون إلخ، لترى الحزن الصادق والوفاء الخالص.

ويرثي فاتكًا مرة أخرى بعد خروجه من بغداد في شعبان سنة اثنتين وخمسين، ورثاء الشاعر بالعراق صديقًا له مات في مصر قبل سنتين، وقد أدى حق رثائه من قبل، برهان على إعجاب أبي الطيب بأبي شجاع واعترافه بفضله وعلى ما كان بين الرجلين من مودة محكمة وما كان في خلق أبي الطيب من وفاء، يقول في أول المرثية يذكر أسفاره:

حتام نحن نُساري النجم في الظلم ... وما سراه على خف ولا قدم
ولا يُحس بأجفان يحس بها ... فقد الرقاد غريب بات لم ينم
تُسود الشمس منا بيض أوجهنا ... ولا تُسود بيض العذر واللمم
وكان حالهما في الحكم واحدة ... لو احتكمنا من الدنيا إلى حكم

ويصف سيره عن مصر ثم يصف غلمانه الذين صحبوه في أسفاره:

في غلمة أخطروا أرواحهم ورضوا ... بما رضيت رضَى الأيسار بالزلم
تبدو لنا كلما ألقوا عمائمهم ... عمائم خلقت سودًا بلا لثم
بيض العوارض طعانون من لحقوا ... من الفوارس شلالون للنعم
قد بلغوا بقناهم فوق طاقته ... وليس يبلغ ما فيهم من الهمم
في الجاهلية إلا أن أنفسهم ... من طيبهن به في الأشهر الحرم
ناشوا الرماح وكانت غير ناطقة ... فعلموها صياح الطير في البهم

ثم يدخل إلى رثاء فاتك بقوله:

تخدي الركاب بنا بيضًا مشافرها   خضرًا فراسنها في الرغل والينم[٢]
مكعومة بسياط القوم نضربها   عن منبت العشب نبغي منبت الكرم
وأين منبته من بعد منبته   أبي شجاع قريع العرب والعجم
لا فاتك آخر في مصر نقصده   ولا له خلف في الناس كلهم
من لا تشابهه الأحياء في همم   أمسى تشابهه الأموات في الرمم
عدمته وكأني سرت أطلبه   فما تزيدني الدنيا على العدم

ثم يقول إنه سيترك القلم إلى السيف، وهذا أول كلام عن التوسل بالسيف إلى آماله منذ اتصل بسيف الدولة:

ما زلت أُضحك إبلي كلما نظرت   إلى من اختضبت أخفافها بدم؟
أسيرها بين أصنام أشاهدها   ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامي قوائل لي   المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبدًا بعد الكتاب به   فإنما نحن للأسياف كالخدم
أسمعتني ودوائي ما أشرت به   فإن عصيت فدائي قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهندي حاجته   أجاب كل سؤال عن هل بلم

وينعى الوفاء في الناس وكأنه يعني كافورًا:

غاض الوفاء فما تلقاه في عدة   وأعوز الصدق في الإخبار والقسم
سبحان خالق نفسي كيف لذتها   فيما النفوس تراه غاية الألم

[٢] الرغل نبات أخضر صغير ينبسط على الأرض. رأيته في بحيرة العاقول على مقربة من المدينة المنورة فسألت جنديًّا كان معي من أهل المدينة فقال: هذا الرغل.

ويختم القصيدة بقوله:

وقت يضيع وعمر ليت مدته   في غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه في شبيبته   فسرهم وأتيناه على الهرم

وفي هذه القصيدة أثر للخيبة وسوء اللقاء اللذين مُني بهما في بغداد، إلى خيبته التي مُني بها في مصر.

٢

هجاء كافور

(أ)

جاش أبو الطيب على أبي المسك لعنات تموج بها أبحر الشعر، وقذف عليه حممًا يهدم بها ما شاد في مدحه من بيوت، فلماذا هذا الهجاء؟

إن مدح الشعراء يُبغى ثوابه فلا ينبغي أن نلمس له أسبابًا أخرى، ولكن الهجاء لا ثواب عليه، بل يدعو الشاعر إليه نقمة على المهجو أدت إليها أسباب؛ فما الذي نقم أبو الطيب من كافور؟

أعطى كافور الشاعر كثيرًا؛ ضيفه في دار خاصة، ووصله صلات مختلفة، نجد في نسخ الديوان أنه خلع عليه حين قدم مصر وأعطاه آلافًا من الدراهم، وأعطاه مرة فرسًا أدهم، وأعطاه ستمائة دينار ذهب مرة أخرى، والذي يعطي هذا العطاء جملة يعطي غيره في هذه السنوات التي أمضاها الشاعر في ضيافته، وأبو الطيب يقول:

وإني لفي بحر من الخير أصله   عطاياك أرجو مدها وهي مده

أحسب أن كافورًا أعطى الشاعر أقل مما أمل ودون ما تعود من سيف الدولة، وكان الشاعر يؤمل أن ينال مالًا كثيرًا وينال إلى المال ضيعة أو ولاية، وقد قدمت بيان هذا.

ولم يكن كافور أهلًا لهذا الهجاء بما أقل هباته أو بما منع الشاعر ولاية أو ضيعة، ولكنه استحقه بما وعد ومطل ثم أخلف، فملأ نفس الشاعر الطموح أملًا، ثم ذبذبه بين الرجاء والخيبة، ثم أيأسه بعد انتظار طويل.

وكان أبو الطيب يبغي لنفسه مجدًا ويريد أن يسوغ فراق سيف الدولة بما ينال من هذا المجد، وكان يخشى أن يشمت به أعداؤه، فكان حرمان كافور إياه هدم مجد بناه في نفسه وإثارة ندم على فراق ابن حمدان، وإشمات أعداء وحساد طالما ذكرهم في شعره، ثم زاده غيظًا أن كافورًا حاول أن يمسكه عنده ولم ييسر له الرحيل.

وعلى قدر هذا كله كان سخطه ومرارة هجائه، وأبو الطيب إذا حقد اضطرم قلبه فإذا هجا رمى بالحمم كالإرة[٣] المضطرمة.

ولم يهجُ في حياته إلا ثلاثة: ابن كيغلغ وكافورًا وضبة؛ ولكنه هجاء حاطم هادم مقذع بعثه الحقد والغل لا التلهي والسخرية.

(ب)

وأهاجي كافور قسمان: قسم جاء في أثناء منظومات تضمنت أغراضًا أخرى غير الهجاء، وذلك في ثلاث قصائد وقطعة، في القصيدة التي أنشأها قبل خروجه من مصر بيوم واحد:

عيدٌ بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

والقصيدة التي وصف فيها سيره من مصر إلى الكوفة:

ألا كل ماشية الخيزلَى فدى كل ماشية الهيدبَى

والقصيدة العينية التي رثى بها فاتكًا:

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصي طيع

والقطعة التي نظمها حين رأى في الكوفة من هدايا فاتك تفاحة من الند عليها اسمه.

[٣] الإرة: البركان.

والقسم الثاني ست قطع فيها أربعة وأربعون بيتًا.

وليس يعنينا ما في الهجاء من شتم وسخرية وازدراء، ولكن يعنينا الأبيات التي تعرب عما نقمه الشاعر من كافور، وما أثار غضبه عليه لنتعرف باعث هذا الهجاء.

فمن هجائه في القطع قوله:

أَمَـيْـنًـا وإخـلافًـا وغـدرًا وخـسـة وجبنًا؟ أشخصًا لحت لي أم مخازيا؟

فهو يصفه بالمين والإخلاف والغدر؛ لأنه كذبه وعده.

وفي قطعة أخرى:

ما من يرى أنك في وعده كمن يرى أنك في حبسه
لا يُنجز الميعاد في يومه ولا يعي ما قال في أمسه
وإنما تحتال في جذبه كأنك الملَّاح في قلسه
فلا تُرجَّ الخير عند امرئ مرت يد النخاس في رأسه

وفي قطعة ثالثة:

لو كان ذا الآكل أزوادنا ضيفًا لأوسعناه إحسانا
لكننا في العين أضيافه يوسعنا زورًا وبهتانا
فليته خلى لنا طرقنا أعانه الله وإيانا

فتأمل قوله: «يوسعنا زورًا وبهتانًا»، وقوله «فليته خلى لنا طرقنا.»

ومن قوله في قصيدة الخروج:

أمسيت أروح مثر خازنًا ويدًا أنا الغني وأموالي المواعيد
إني نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدي وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ويقول في القصيدة العينية التي رثا بها أبا شجاع:

أبقيت أكذب كاذب أبقيته وأخذت أصدق من يقول ويسمع

فهذه هي الأبيات التي تبين لنا سبب الهجاء وما عداها سب قليل الغناء.
وفي القصيدة الميمية التي رَثَى بها فاتكًا يقول غير مصرح باسم كافور:

غاض الوفاء فما تلقاه في عدة وأعوز الصدق في الإخبار والقسم

(جـ)

متى نظم هذه الأهاجي؟

أما القصائد الثلاث فمعروفة التاريخ، العينية التي رثى بها أبا شجاع أنشأها حين وفاته وأنشدها بعد رحيله كما قدمت، والدالية نظمها قبل خروجه من مصر بيوم واحد، وقصيدة السفر قالها حينما حل بالكوفة.

وأما القطع الأخرى غير المؤرخة ففي الواحدي ونسخة بغداد ونسختي أن القطعة التي مطلعها:

أريك الرضى لو أخفت النفس خافيًا وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيًا

نظمها حينما خرج من عند كافور وقد أنشده أولى مدائحه، وهذا قول لا يقبله النقد فلم يكن لأبي الطيب أن يهجو كافورًا وقد جاءه مادحًا مملوءًا رجاء، ولما ير منه ما يكره، ولأن الشاعر يقول في القطعة:

أمينًا وإخلافًا وغدرًا وخسة ... إلخ.

ولم يكن كافور وعده إذ ذاك شيئًا فأخلف، وأحسب هذه القطعة وضعت بعد القصيدة الأولى في بعض نسخ الديوان؛ لأنها توافقها وزنًا ورويًّا؛ فوهم الشراح من أجل هذا.

والقطعة:

أنوك من عبد ومن عرسه   من سلط العبد على نفسه

وضعت في شرح الواحدي والمعري والنسخة (١٥٣٠) ونسختي بعد القصيدة الميمية التي أنشدها في ربيع الثاني سنة ٣٤٧ وقيل: إنه نظمها بعد هذه القصيدة، وهذا ممكن ولكنه بعيد فما أظن أبا الطيب هجا كافورًا إلا حين أشرف على اليأس منه وانقطع عن مدحه زمنًا طويلًا وذلك في سنة ٣٤٨ فما بعدها:

والقطعة التي يقول فيها:

وأسود أما القلب منه فضيق   نخيب وأما بطنه فرحيب
يموت به غيظًا على الدهر أهله   كما مات غيظًا فاتك وشبيب

نُظمت بعد موت فاتك في شوال سنة ٣٥٠.

والقطعة التي يقول فيها:

فليته خلى لنا طرقنا   أعانه الله وإيانا

قيلت حين همَّ بالرحيل.

وأحسب بعض القطع أنشئت بعد خروجه من مصر.

وأما القصيدتان اللتان يقال إنهما وجدتا في رحله بعد قتله فسيأتي الكلام فيهما.

الفصل الخامس عشر

أبو الطيب في العراق

(١) حال العراق إذ ذاك

نشأت دولة بني بويه في أوائل القرن الرابع الهجري، وتعاون الإخوة الثلاثة علي والحسن وأحمد بنو بويه على التسلط في فارس والعراق واستولى أصغرهم أحمد على بغداد سنة ٣٣٤هـ، وكان بها الخليفة العباسي المستكفي بالله، فمنحهم الولاية على ما بأيديهم ولقب عليًّا عماد الدولة، والحسن ركن الدولة، وأحمد معز الدولة؛ وقد تنازع بنوهم على السلطان من بعد، وتشعبت إماراتهم، وبقي ملكهم في العراق إلى سنة ٤٤٧ حين استولى عليه السلاجقة.

بقي معز الدولة في بغداد حتى تُوفِيَ سنة ٣٥٦، وكان استيلاؤه على العراق إيذانًا بانتقال السلطان جملة من أيدي الخلفاء إلى ملوك البويهيين، فبعد أسابيع من دخوله بغداد خلع الخليفة المستكفي بالله وسمل عينيه وولي مكانه الخليفة المطيع.

وكان هذا الاستيلاء إيذانًا بالخراب فقد شغب الجند على معز الدولة طالبين أرزاقهم، فأخذ الأموال من الناس ظلمًا، وأقطع قواده القرى جميعها، فأهملوا الطرق والمشارب فخربت المزارع، وكانوا كلما نقص الدخل زاد ظلمهم، ومصادرتهم أموال الناس.

وقدم أبو الطيب العراق بعد ستة عشر عامًا من استيلاء معز الدولة فوجدها أسوأ حالًا منها يوم تركها، وأقام بالكوفة التي هجرها في صباه مرات فرارًا من القرامطة والأعراب، فشهد بعد سنتين من قدومه غارة بني كلاب عليها، وشارك هو في الحرب والدفاع عنها، وسيأتي ذكر هذا بعد.

وكان يلي الوزارة الحسن بن محمد المعروف بالوزير المهلبي وليها ثلاثة عشر عامًا وثلاثة أشهر من سنة ٣٣٩ إلى سنة ٣٥٢.

وكان أديبًا شاعرًا اجتمع حوله جماعة من الأدباء منهم القاضي التنوخي، وأبو الفرج الأصفهاني، ومدحه جماعة من الشعراء منهم السري الرفاء، وابن البقال، وألف علي بن هرون المنجم كتابًا باسمه.

وكان جوادًا ذا مروءة معوانًا لأصحاب الحاجات، رتب لرجل فقير عرف أنه من أولاد معن بن زائدة مائة دينار وكسوة كل سنة، ولما مات التنوخي صلى عليه وقضى دينه وكان خمسين ألف درهم.

وكان مسرفًا في بذخه كلفًا بمجلس اللهو والمجون عرف بها.

وسترى ما كان بينه وبين أبي الطيب.

(٢) في الكوفة

أقام أبو الطيب في العراق منذ قدمها في ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة إلى أن سافر إلى فارس في صفر سنة أربع وخمسين، وذلك زهاء ثلاث سنين، وكانت إقامته ببلده الكوفة، ولسنا ندري كم مرة ذهب إلى بغداد، والروايات تصف قدومه إلى بغداد وإقامته بها مرة واحدة، وسنرى أن بغداد لم تكرم مثواه فأحسبه ما ذهب إليها من بعد إلا في طريقه إلى فارس سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.

ولا نعرف من سيرته بالكوفة إلا ما يتصل بشعره من الوقائع:

(أ) في جمادى الثانية سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة كان هجاؤه لضبة بن زيد العيني.

وفي نسخ كثيرة من الديوان قصة هذا الهجاء متفقة في فحواها مختلفة في التفصيل، وأوفاها رواية المعري ونسخة بغداد، وهذا نسقها:

كان قوم من أهل العراق قتلوا يزيد العيني ونكحوا امرأته، ونشأ منها له ولد بالعين يُسمى ضبة يغدر بكل من نزل به وأكل معه أو شرب.

واجتاز أبو الطيب بالطف فنزل بأصدقاء له، وسارت خيلهم إلى هذا العبد واستركبوه فلزمه المسير معهم، فدخل العبد الحصن وامتنع به وأقاموا عليه أيامًا لا سلاح له إلا شتمهم من وراء الحصن أقبح شتم، ويسمي أبا الطيب باسمه ويشتمه،

وأراد القوم أن يجيبوه بمثل ألفاظه، وسألوه ذلك فتكلف لهم على مشقة، وعلم أنه لو سبه لهم معرضًا لهم يفهم ولم يعمل فيه عمل التصريح فخاطبه على ألسنتهم من حيث هو فقال:

ما أنصف القوم ضبه وأمه الطرطبه ... إلخ

وهي قصيدة بلغ فيها الغاية من الإقذاع وأبو الطيب إذا حقد أفاض حقده هجاء لا يبالي فيه ما يقول، وسير أبي الطيب مع أصدقائه لقتال ضبة أو شتمه دليل على ما تمكن فيه من طباع البادية، وسيأتي أن الرجل كان بدويًّا في طباعه وسيرته، ثم إفحاشه في هذا الهجاء لا يقوم به الاعتذار بأن ضبة لم يكن يفهم التعريض، فمن قبل هجا ابن كيغلغ فلم يقصر في الإفحاش والتصريح.

ويقول ابن جني في شرحه ديوان أبي الطيب: «ورأيته وقد قرأت عليه هذه القصيدة وهو ينكر إنشادها.» وقال الواحدي: «كان المتنبي إذا قرئت عليه هذه القصيدة ينكر إنشادها، وأنا أيضًا والله أنكر كتابتها وتفسيرها، ولست أرويها، إنما أحكيها على ما هي عليه، وأستغفر الله تعالى من خط ما لا يُزلف لديه.»

(ب) وبعد ستة أشهر من هذه الواقعة كانت حوادث في الكوفة اشترك فيها أبو الطيب وقاتل، ثم مدح قائد الجيش الذي قدم من بغداد لحرب الأعراب الذين أغاروا على البلد.

قال في شرح المعري ومثله في نسختي:

ونجم خارجي من بني كلاب بظهر الكوفة، وذُكر له أن خلقًا من أهل الكوفة قد أجابوه وحلفوا له، فسارت إليها بنو كلاب معه ليأخذها، ورفعت الرايات، وخرج أبو الطيب على الصوت من ناحية قطوان، فلقيته قطعة من الخيل في الظهر فقاتلها ساعة، فانكشفت وقد جرح فيها وقتل منها، وسار في الظهر حتى دخل إلى جمع السلطان والرعية من درب البراجم، ووقعت المراسلة سائر اليوم وعادوا من غد فاقتتلوا إلى آخر النهار فلم يصنع الخارجي شيئًا، ورجع وقد اختلفت فيه بنو كلاب وتبرأ بعضها منه، وعاد بعد أربعة أيام فالتقوا في الظهر فوقعت بالسلطان والعامة جراح، وقتل من بني كلاب، وطعن فرس لأبي الطيب تحت غلام له في لبته فمات لوقته، فحمله أبو الحسن محمد بن عمر العلوي على فرس، وجرح غلام له فرسين وقتل رجلًا.

وعادوا من غد فالتقى الناس عند دار أسلم وبينهم حائط فقتل من بني كلاب بالنشاب عدة فانصرفوا ولم يقفوا لقتال.
ووردت الأخبار إلى بغداد فسار أبو الفوارس دلير بن لشكروز في جماعة من القواد، فورد الكوفة بعد رحيل بني كلاب، فأنفذ إلى أبي الطيب ساعة نزل، ثيابًا نفيسة من ديباج رومي وخز وديبقي فقال يمدحه، وأنشده إياها في الميدان وهما على فرسيهما، وكان تحت دلير جواد أصفر وعليه حلية ثقيلة فقاده إليه، وذلك كله في ذي الحجة سنة ٣٥٣.

ومطلع القصيدة:

كدعواك كل يدعي صحة العقل ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل
لهنك أولى عاذل بملامة وأحوج ممن تعذلين إلى العذل
تقولين ما في الناس مثلك عاشق جدي مثل من أحببته تجدي مثلي
محب كنى بالبيض عن مرهفاته وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير أنني جناها أحبائي وأطرافها رسلي
عدمت فؤادًا لم تبت فيه فضلة لغير الثنايا الغر والحدق النجل

ويصف ممدوحه بالعفة والشجاعة، وهما خلتان يحبهما الشاعر:

عفيف تروق الشمسَ صورةُ وجهه فلو نزلت شوقًا لحاد إلى الظل
شجاع كأن الحرب عاشقة له إذا زارها فدته بالخيل والرجل
وريان لا تصدى إلى الخمر نفسه وصديان لا تروى يداه من البذل
فتمليك دلير وتعظيم قدره شهيد بوحدانية الله والعدل

(٣) أبو الطيب في بغداد

ذهب أبو الطيب إلى بغداد بعد رجوعه من مصر إلى الكوفة، ولا ندري متى ذهب إليها، ولكنا نعلم أنه خرج منها في شعبان سنة اثنتين وخمسين؛ ونحن نعرف أنه لقي الوزير المهلبي حين قدومه بغداد ونعرف أن المهلبي برح بغداد إلى البصرة في جمادى الآخرة

سنة اثنتين وخمسين، ومات قبل أن يرجع إلى دار الخلافة، فقد كان أبو الطيب ببغداد من جمادى إلى شعبان، ولا ندري كم أقام قبل هذا، وأحسبه لم يطل الإقامة بها.

نزل في ربض حميد في الجانب الغربي من بغداد في دار علي بن حمزة البصري اللغوي الذي روى ديوانه، وروى عنه ابن جني بعض أشعار أبي الطيب وبقي ضيفه إلى أن رحل عن المدينة.[1]

وكان ببغداد معز الدولة بن بويه ووزيره المهلبي، ولا ريب أنهما تطلعا إلى مدح الشاعر النابه الذي أشاد ببني حمدان خصوم بني بويه، ولكن أبا الطيب لم يمدح الملك ولا وزيره، فلماذا؟ قال صاحب الإيضاح: فلما حصل المتنبي ببغداد نزل في ربض حميد فركب إلى المهلبي فأذن له فدخل وجلس إلى جنبه، وصاعدٌ خليفته دونه، وأبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، فأنشدوا هذا البيت:

سقى الله أمواهًا عرفت مكانها   جُرامًا وملكوما وبذر فالغمرا

وقال المتنبي جرابا. وهذه أمكنة قتلتها علمًا، وإنما الخطأ وقع من النقلة، فأنكره أبو الفرج.

قال الشيخ هذا البيت أنشده أبو الحسن الأخفش صاحب سيبويه في كتابه جرامًا بالميم، وهذا الصحيح وعليه علماء اللغة.

وتفرق المجلس عن هذه الجملة، ثم عادوا في اليوم الثاني، وانتظر المهلبي إنشاده فلم يفعل، وإنما صده ما سمعه من تماديه في السخف، واستهتاره بالهزل، واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه، وكان المتنبي مر النفس صعب الشكيمة حادًّا مجدًّا فخرج.

فلما كان اليوم الثالث أغروا به ابن الحجاج حتى علق بلجام دابته في صينية الكرخ وقد تكابس الناس عليه من الجوانب وابتدأ ينشده:

يا شيخ أهل العلم فينا ومن   يلزم أهل العلم توقيره

فصبر عليه المتنبي ساكتًا ساكنًا إلى أن نجزها ثم خلى عنان دابته، وانصرف المتنبي إلى منزله.

[1] الخطيب. وياقوت ج٢ ص٥٠٢ ط بيروت.

وابن الحجاج هذا شاعر خليع ماجن فلم يكن أبو الطيب ليعبأ به.

وقد روى ياقوت عن المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابي عن والده أبي إسحاق قال: «راسلت أبا الطيب المتنبي رحمه الله في أن يمدحني بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف درهم، ووسطت بيني وبينه رجلًا من وجوه التجار، فقال: قل له والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولا أوجب علي في هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت، وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير (يعني أبا محمد المهلبي) وتغير عليك؛ لأني لم أمدحه، فإن كنت لا تبالي هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمست ولا أريد منك مالًا ولا عن شعري عوضًا. قال والدي: فتنبهت على موضع الغلط، وعلمت أنه قد نصح فلم أعاوده.»[٢]

فهذه الرواية ترينا تطلع الرؤساء إلى مدح أبي الطيب وأن المهلبي كان راغبًا في مديحه مغيظًا من إغفاله إياه.

وروى ياقوت في أخبار علي بن يوسف البقال أن المهلبي أحضره فأنشده بحضرة المتنبي، وأن المتنبي قال ما رأيت ببغداد من يجوز أن يقطع عليه اسم شاعر إلا ابن البقال.[٣]

ولست أرى رأي الثعالبي في اليتيمة أن أبا الطيب ترفع عن مدح المهلبي ذهابًا بنفسه عن مدح غير الملوك، فلو صح هذا ما مدح ابن العميد، والذي أراه أن أبا الطيب ازدرى المهلبي كما قال صاحب الإيضاح، وأن المهلبي لم يلقه من التكريم والإعظام بما يُنشطه إلى مدحه، وأحسب أبا الطيب كان يريد مدحه وأنه لذلك زاره مرتين، وكان المهلبي وسيلته إلى معز الدولة كما كان ابن العميد وسيلته إلى عضد الدولة، فلما غاضب المهلبي لم يجد إلى معز الدولة وسيلة.

وأغرى المهلبي جماعة من شعراء بغداد فوقعوا في أبي الطيب، قال الثعالبي:

> فأغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه، وتباروا في هجائه وفيهم ابن الحجاج وابن سكرة الهاشمي، والحاتمي، وأسمعوه ما يكره، وتماجنوا به

[٢] ياقوت ج١ ص٣٤٦.

[٣] ج٢ ص٥١٢.

وتنادروا عليه فلم يجبهم ولم يفكر فيهم، وقيل له في ذلك، فقال: إني قد فرغت من إجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء:

أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرًّا به الماء الزلالا

وقولي:

أفي كل يوم تحت ضِبني شويعر ضعيف يقاويني، قصير يُطاول
لساني بنطقي صامتٌ عنه عادل وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأتعبُ مَن ناداك من لا تُجيبه وأغيظُ من عاداك من لا تشاكل
وما التيهُ طبي فيهم غير أنني بغيض إليَّ الجاهل المتعاقل

وقولي:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

وبلغ أبا الحسين بن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقيعة شعراء بغداد فيه واستحقارهم، وكان حاسدًا له طاعنًا عليه هاجيًا إياه، زاعمًا أن أباه كان سقاء بالكوفة، فشمت به وقال:

قولا لأهل زمان لا خلاق لهم ضلوا عن الرشد من جهل بهم وعموا
أعطيتم المتنبي فوق مُنيته فزوجوه برغمٍ أمهاتكم
لكن بغداد جاد الغيث ساكنها نعالها في قفا السقاء تزدحم

وفي اليتيمة بعد هذا قطعتان أخريان من أهاجي ابن لنكك فيهما ستة أبيات.

مناظرة الحاتمي

ومما كان بين أبي الطيب وبين أعوان المهلبي ما حكاه الحاتمي في مناظرته لأبي الطيب ببغداد.[٤] وأظن الحاتمي قد كذب على خصمه وبالغ فيما ادعى إرضاءً للمهلبي، والناقد الخبير يعرف ألوان التناقض والكذب في دعاويه، وليس يتسع المجال هنا لذكرها ونقدها.

وقد قال ياقوت عن الحاتمي هذا إنه كان مبغضًا لأهل العلم وهجاه ابن الحجاج وغيره بأهاج مرة.

وفي إقامة أبي الطيب بمدينة السلام قرئ عليه ديوانه وسمعه جماعة منهم علي بن حمزة البصري راوية الديوان وابن جني، والقاضي أبو الحسن المحاملي.[٥]

ويذكر الثعالبي وغيره قصة المتنبي في بغداد ثم يقولون إنه خرج منها إلى ابن العميد، وليس هذا حقًّا فقد لبث سنة ونصفًا في الكوفة بعد مفارقته بغداد ثم مر ببغداد في طريقه إلى أرجان.

[٤] انظر ترجمة الحاتمي في ياقوت وانظر الصبح المنبي.

[٥] الخطيب البغدادي وياقوت ج٥، ص٢٠٢.

الفصل السادس عشر

أبو الطيب وسيف الدولة

لما سمع سيف الدولة بخروج أبي الطيب من مصر مراغمًا كافورًا وبلوغه الكوفة كاتبه معرضًا برجوعه إلى حلب، وأهدى إليه مرة بعد مرة، وفي بعض نسخ الديوان أنه أرسل ابنه إليه، فأجابه أبو الطيب في شوال سنة ٣٥٢ بعد ست سنين من فراقه بقصيدة يتبين فيها حزنه وإكباره سيف الدولة، ولكنه يتغاضى عما أراده الأمير من رجوع شاعره إليه.

وكان سيف الدولة خرج وهو مريض للقاء الروم وقد ساروا لغزو طرسوس فرجعوا، وبلغ أبا الطيب الخبر فذكر حرب الروم في قصيدته، يقول في مطلعها:

ما لنا كلنا جو يا رسول   أنا أهوى وقلبك المتبول
كلما عاد من بعثت إليها   غار مني وخان فيما يقول
أفسدت بيننا الأمانات عينا   ها وخانت قلوبهن العقول

وفي هذا إشارة إلى حساده الذين أفسدوا بينه وبين سيف الدولة، ثم يقول فيمزج الحزن بالنسيب:

زودينا من حسن وجهك ما دام   فحسن الوجوه حال تحول
وصلينا نصلك في هذه الدنيا   فإن المقام فيها قليل
من رآها بعينها شاقه القطان   فيها كما تشوق الحمول

ويقول في مدح سيف الدولة:

الذي زلت عنه شرقًا وغربًا   ونداه مقابلي ما يزول
ومعي أينما سلكت كأني   كل وجه له بوجهي كفيل

إلى أن يقول:

كيف لا تأمن العراق ومصر   وسراياك دونها والخيول
لو تحرفت عن طريق الأعادي   ربط السدر خيلهم والنخيل
ودرى من أعزه الدفع عنه   فيهما أنه العزيز الذليل
أنت طول الحياة للروم غاز   فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم   فعلى أي جانبيك تميل
قعد الناس كلهم عن مساعيك   وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا   كالذي عنده تدار الشمول

وفي هذا تعريض بالإخشيديين وبني بويه ملوك مصر والعراق.

لست أرضى بأن تكون جوادًا   وزماني بأن أراك بخيل
نغص البعد عنك قرب العطايا   مرتعي مخصب وجسمي هزيل
إن تبوأت غير دنياي دارًا   وأتاني نيل فأنت المنيل
من عبيدي إن عشت لي ألف كافو   ر ومن نداك ريف ونيل

ثم توفيت أخت سيف الدولة الكبرى في ميا فارقين (في شعبان سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة) وورد خبرها إلى العراق فقال يرثيها في المحرم سنة ثلاث وخمسين بقصيدة أولها:[١]

[١] في تاريخ هذه القصيدة خلاف، ويضعها بعض الرواة قبل القصيدة التي قبلها.

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب   كنايةً بهما عن أشرف النسب
طوى الجزيرة حتى جاءني، خبر   فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا   شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

وكان لهذا الرثاء أثره في نفس ابن حمدان فأرسل بعدُ إلى أبي الطيب هدية ومالًا وأمانًا بخطه وكتابًا يستدعيه، فكتب أبو الطيب في ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين قصيدة أولها:

فهمت الكتاب أبر الكتب　　　فسمعًا لأمر أمير العرب
وطوعًا له وابتهاجًا به　　　وإن قصر الفعل عما يجب

ويقول معتذرًا عن القعود عنه:

وما عاقني غير خوف الوشاة　　　وإن الوشايات طرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم　　　وتقريبهم بيننا والخبب
وقد كان ينصرهم سمعه　　　وينصرني قلبه والحسب
وما قلت للبدر أنت اللجين　　　ولا قلت للشمس أنت الذهب
فيقلق مني البعيد الأناة　　　ويغضب مني البطيء الغضب
وما لاقني بلد بعدكم　　　ولا اعتضت من رب نعماي رب
ومن ركب الثور بعد الجواد　　　أنكر أظلافه والغبب
وما قست كل ملوك البلاد　　　فدع ذكر بعض بمن في حلب

ويذكر محاربته الروم وجهاده حاميًا للثغور الإسلامية، ثم يختم القصيدة بقوله:

أرى المسلمين مع المشركين　　　إما لعجز وإما رهب
وأنت مع الله في جانب　　　قليل الرقاد كثير التعب
كأنك وحدك وحدته　　　ودان البرية بابن وأب
فليت سيوفك في حاسد　　　إذا ما ظهرت عليهم كئب
وليت شكاتك في جسمه　　　وليتك تجزي ببغض وحب
فلو كنت تجزي به نلت منك　　　أضعف حظ بأقوى سبب

ويتبين من هذه القصيدة أن أبا الطيب كان لا يزال عاتبًا على سيف الدولة معاتبًا إياه على ما كان يصغي إلى المفسدين بينهما في الحين بعد الحين.

انظر قوله: وقد كان ينصرهم سمعه إلخ، وقوله آخر القصيدة: وليتك تجزي ببغض وحب إلخ، وكان إلى هذا العتب يخشى أن يعود الوشاة إلى الإفساد بينهما:

وما عاقني غير خوف الوشاة　　　وإن الوشايات طرق الكذب

ثم كان إلى هذا وذاك حياء الشاعر من لقاء الأمير ومصاحبته بعد ما فارقه مراغمًا وعرض به في القصائد المصريات.

وسنرى أنه في مدح عضد الدولة لم يتجنب ما يسيء إلى سيف الدولة كقوله:

وقد رأيت الملوك قاطبة　　　وسرت حتى رأيت مولاها

وقد رُوي أن سيف الدولة لما سمع هذا البيت قال: تُرى هل نحن في الجملة؟

ولو أنه كان يفكر في الرجوع إلى بني حمدان بعد العودة إلى العراق أو يرى هذه العودة ممكنة يومًا لتجنب ما يسوء الأمير وما يكدر المودة بعد ما صفت.

الفصل السابع عشر

أبو الطيب في فارس

(١) عند ابن العميد

قال ابن خلكان في ترجمة أبي الفضل جعفر بن الفرات وزير كافور الإخشيدي:

ذكر الخطيب أبو زكريا التبريزي في شرحه ديوان المتنبي أن المتنبي لما قصد مصر ومدح كافورًا مدح الوزير أبا الفضل المذكور بقصيدته الرائية التي أولها:

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

وجعلها موسومة باسمه، فكانت إحدى قوافيها جعفرًا، وكان قد قال فيها:

صغت السوار لأي كف بشرت بابن الفرات وأي عبد كبرا

فلما لم يرضه صرفها عنه ولم ينشده إياها، فلما توجه إلى عضد الدولة قصد أرجان، وبها أبو الفضل بن العميد فحول القصيدة إليه، وحذف منها لفظ جعفر وجعل ابن العميد مكان ابن الفرات.

وقال صاحب الإيضاح: «وكان السبب في قصده أبا الفضل بن العميد على ما أخبرني أبو علي بن شبيب القاشاني — وكان أحد تلامذتي ودرس علي بقاشان سنة ثلاثمائة وسبعين وتوزَّر للأصبهبد بالجبل وأبوه أبو القاسم توزَّر لوشمكير بجرجان — عن العلوي العباسي نديم أبي الفضل بن العميد الذي يقول فيه:

أبلغ رسالاتي الشريف وقل له　　قدك اتئد أربيت في الغُلَواء

أن المعروف بالمطوق الشاشي كان بمصر وقت المتنبي فعمد إلى قصيدته في كافور:

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب　　وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

وجعل مكان أبا المسك أبا الفضل، وسار إلى خراسان وحمل القصيدة أعني قصيدة المتنبي إلى أبي الفضل وزعم أنه رسوله فوصله أبو الفضل بألفي درهم، واتصل هذا الخبر بالمتنبي ببغداد فقال رجل يعطي لحامل شعري هذا فما تكون صلته لي؟»[١]

وهاتان روايتان خليقتان بالرد، ويكفي التأمل في القصيدتين لنرى كذب الروايتين، ففي القصيدة الرائية أبيات لا تصلح لخطاب ابن الفرات ولا مدحه، وأبيات تصف سفر أبي الطيب إلى أرجان، وما كان أبو الطيب عييًا بالشعر فيحول قصيدة من مدح ابن الفرات إلى مدح ابن العميد ويتكلف حذف أبيات وإثبات أبيات، وتغيير أخرى لتلائم ممدوحه الثاني.

والقصيدة البائية فيها ندم أبي الطيب على فراق سيف الدولة وأبيات فيها اسم كافور، وأبيات فيها لوم كافور على حرمانه الشاعر مما أمَّل، ويذكر الشاعر في القصيدة العيد وشوقه إلى أهله، ثم أبيات أخرى لا تلائم مدح ابن العميد. وما كان الشاشي ليغفل عن هذا وما كانت هذه الرسالة المفتراة لتخيل عند ابن العميد النقادة.

وروى صاحب الصبح المنبي أن ابن العميد كان يخاف ألا يقصده أبو الطيب ويعامله معاملة المهلبي، فكان يتحامل عليه ويغض من شعره.

[١] الخزانة ج١ ص٣٨٥.

رُوي عن بعض أصحاب ابن العميد قال: «دخلت عليه يومًا قبل دخول المتنبي فوجدته واجمًا، وكانت قد ماتت أخته عن قريب فظننته واجدًا لأجلها، فقلت: لا يحزن الله الوزير فما الخبر؟ قال: إنه ليغيظني أمر هذا المتنبي واجتهادي في أن أُخمل ذكره وقد ورد عليَّ نيف وستون كتابًا في التعزية ما منها إلا وقد صدر بقوله:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملًا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل إلى إخماد ذكره؟ فقلت: القدر لا يغالب، والرجل ذو حظ من إشاعة الذكر واشتهار الاسم، فالأولى ألا تشغل فكرك بهذا الأمر.

ويؤخذ من رواية الصبح المنبي أن ابن العميد لم يرسل إلى المتنبي يدعوه، وفي بعض نسخ الديوان أنه أرسل إليه، في نسخة الوزير تاج الدين المحفوظة في دار الكتب المصرية والتي رمزت إليها بالحرف ت في تعليق على الديوان: «ثم خرج أبو الطيب من الكوفة إلى العراق (لعله يريد بغداد) فراسله ابن العميد أبو الفضل محمد بن الحسين وزير ركن الدولة من أرجان فسار إليه.»

ومهما يكن فقد فصل من مدينة السلام يوم الخميس ١١ صفر سنة ٣٥٤،[٢] وذلك بعد سبعة عشر شهرًا من خروجه من بغداد المرة الأولى بعد أن يئس من المهلبي ومعز الدولة، وسار من طريق الأهواز، ولقيه التنوخي بها كما في تاريخ الخطيب، وبلغ أرجان في الشهر نفسه، ويحدثنا صاحب الإيضاح عن دخوله أرجان روايةً عن ابن جني عن علي بن حمزة البصري قال:

> كنت مع المتنبي لما ورد أرجان، فلما أشرف عليها وجدها ضيقة البقعة والدور والمساكن، فضرب بيده على صدره وقال: تركت ملوك الأرض يتعبدون بي، وقصدت رب هذه المدرة، فما يكون منه؟ ثم وقف بظاهر المدينة وأرسل غلامًا على راحلته إلى ابن العميد، فدخل عليه وقال: مولاي أبو الطيب خارج

[٢] شرح ابن جني.

البلد، وكان وقت القيلولة وهو مضجع في دسته، فثار من مضجعه واستثبته ثم أمر حاجبه باستقباله، فركب واستركب من لقيه في الطريق، ففصل عن البلد بجمع كثير فتلقوه وقضوا حقه وأدخلوه البلد، فدخل على أبي الفضل فقام له من الدست قيامًا مستويًا، وطُرح له كرسي عليه وسادة ديباج، وقال أبو الفضل: كنت مشتاقًا إليك يا أبا الطيب.

ثم أفاض المتنبي في حديث سفره، وأن غلامًا له احتمل سيفًا وشذ عنه. وأخرج من كمه عقب هذه المفاوضة درجًا فيه قصيدته:

باد هواك صبرت أم لم تصبرا　　وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

فوحى أبو الفضل إلى حاجبه بقرطاس فيه مائتا دينار وسيف غشاؤه فضة، وقال: هذا عوض عن السيف المأخوذ، وأفرد له دارًا نزلها، فلما استراح من تعب السفر كان يغشى أبا الفضل كل يوم ويقول: ما أزورك إكبابًا إلا لشهوة النظر إليك، ويؤاكله.[٣]

لبث أبو الطيب شهرين عند ابن العميد، وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه ويتعجب من حفظه وغزارة علمه.

وقد مدح الشاعر ابن العميد بثلاث قصائد؛ الأولى التي مطلعها:

باد هواك صبرت أم لم تصبرا　　وبكاك إن لم يجز دمعك أو جرى

وفيها يقول بعد النسيب:

أعطى الزمان فما قبلتُ عطاءه　　وأراد لي فأردت أن أتخيرا
أرجان أيتها الجياد فإنه　　عزمي الذي يدع الوشيج مكسرًا
لو كنت أفعل ما اشتهيت فعاله　　ما شق كوكبك العجاج الأكدرا

[٣] الخزانة ج١.

أمي أبا الفضل المبر أليتي   لأيممن أجل بحر جوهرا
أفتى برؤيته الأنام وحاش لي   من أن أكون مُقصِّرًا أو مُقصِرا
صُغتُ السوار لأي كف بشرت   بابن العميد وأي عبد كبرا
إن لم تغثني خيله وسلاحه   فمتى أقود إلى الأعادي عسكرا

فقد رجع إلى ذكر الخيل والسلاح والأعادي كما ترى في البيت الأخير. ويصف بلاغة ابن العميد ومهابته ثم يقول:

أرأيت همة ناقتي في ناقة   نقلت يدًا سرحًا وخفًّا مجمرا
تركت دخان الرمث في أوطانها   طلبًا لقوم يوقدون العنبرا
وتكرمت ركباتها عن مبرك   تقعان فيه وليس مسكا أذفرا
فأتتك دامية الأظل كأنما   حذيت قوائمها العقيق الأحمرا
بدرت إليك يد الزمان كأنها   وجدته مشغول اليدين مفكرا
مَن مبلغ الأعراب أني بعدهم   لاقيت رسطاليس والإسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه   متملكًا متبديًا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما   رد الإله نفوسهم والأعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدمًا   وأتى «فذلك» إذ أتيت مؤخرًا[٤]

ربما يظن أن في قول أبي الطيب: «تركت دخان الرمث إلخ» و«من مبلغ الأعراب إلخ» تحقيرًا للعرب لا يجمل بهذا الشاعر العربي القح، وجواب هذا في الكلام على العروبة في شعر أبي الطيب فيما يأتي.

والقصيدة التالية مدحه بها يوم النوروز وقد انتقد ابن العميد شعره فهو يمدحه ويعتذر بقوله:

هل لعذري عند الهمام أبي الفضل   قبول سواد عيني مداده؟

[٤] فذلك، يقولها الحاسب حين يجمع الأعداد ويكتبها قبل حاصل الجمع يريد المتنبي أن ابن العميد هو حاصل جمع المتقدمين.

أنا من شدة الحياء عليل ... مكرمات المعلة عواده
ما كفاني تقصير ما قلت فيه ... عن علاه حتى ثناه انتقاده
إنني أصيد البزاة ولكن ... أجل النجوم لا أصطاده
رب ما لا يعبر اللفظ عنه ... والذي يضمر الفؤاد اعتقاده
ما تعودت أن أرى كأبي الفضل ... وهذا الذي أتاه اعتياده
إن في الموج للغريق لعذرًا ... واضحًا أن يفوته تعداده
للندى الغلب إنه فاض والشعر ... عمادي وابن العميد عماده
نال طبي الأمور إلا كريمًا ... ليس لي نطقه ولا فيَّ آده
ظالم الجود كلما حل ركب ... سيم أن تحمل البحار مزاده
غمرتني فوائد شاء فيها ... أن يكون الكلام مما أفاده
ما سمعنا بمن أحب العطايا ... فاشتهى أن يكون فيها فؤاده

وقال صاحب الإيضاح: أرسل ابن العميد بعض ندمائه إلى المتنبي: كان يبلغني شعرك بالشام والمغرب، وما سمعته دونه. فلم يحر جوابًا إلى أن حضره النيروز وأنشده مهنئًا ومعتذرًا.

وفي الأبيات اعتراف بما أخذه ابن العميد عليه، واعتذار عنه، وكأن شاعرنا استشعر الهيبة حين مدح أديبًا كبيرًا وهو لم يتعود مدح الأدباء النقاد، كما يقول: ما تعودت أن أرى كأبي الفضل ... إلخ.

وقد أدرك الواحدي هذا فقال في شرح هذا البيت: وهذا يدل على تحرز المتنبي منه وتواضعه له، ولم يتواضع لأحد في شعره ما تواضع له.

وأزيد على هذا أن اهتمام الشاعر بابن العميد وتهيبه إنشاد هذا الأديب العالم أوحيا إلى أبي الطيب شيئًا من التكلف والإغراب في القصيدة الأولى، فقد أراد أن يأتي بأمر بدع، وأن يتفلسف مسايرة لابن العميد فحط هذا من شعره.

وبعد هذه القصيدة في الديوان قطعتان الأولى خمسة أبيات أنشأها حين ورد عليه كتاب من أبي الفتح بن أبي الفضل بن العميد يثني عليه ويذكر شوقه إليه، وهي:

بكتب الأنام كتاب ورد ... فدت يد كاتبه كل يد

يعبر عما له عندنا ويذكر من شوقه ما نجد[٥] ... إلخ

والثانية أربعة أبيات يصف فيها مجمرة رآها عند ابن العميد:

أحبُّ امرئ حبت الأنفس وأطيب ما شمه معطس
ونشرٌ من الند لكنما مجامره الآس والنرجس[٦] ... إلخ

ثم يودعه بالقصيدة الثالثة:

نسيت وما أنسى عتابًا على الصد ولا خفرًا زادت به حمرة الخد

وفيها يصف غلمانه الذين صحبوه في أسفاره كما وصفهم من قبل في مرثية فاتك الميمية:

تبدل أيامي وعيشي ومنزلي نجائب لا يفكرن في النحس والسعد
وأوجه فتيان حياءً تلثموا عليهن لا خوفًا من الحر والبرد
وليس حياءُ الوجه في الذئب شيمةً ولكنه من شيمة الأسد الورد
إذا لم تُجزهم دار قوم مودةٌ أجاز القنا والخوف خير من الود
يحيدون عن هزل الملوك إلى الذي توفر من بين الملوك على الجد

إلى أن يقول في مدح ابن العميد:

فإن يكن المهدي من بان هديه فهذا، وإلا فالهدى ذا فما المهدي؟

ثم يقول:

تفضلت الأيام بالجمع بيننا فلما حمدنا لم تُدمنا على الحمد

---

[٥] نسختي من الديوان ص٥٤٦.

[٦] نسختي من الديوان ص٥٥١.

وفي هذا تسوية نفسه بابن العميد وهي عادته في مدائحه. ثم يذكر أهله وانتظارهم رجوعه:

وقد كنت أدركت المنى غير أنني　　　يعيِّرني أهلي بأدراكها وحدي

(٢) عند عضد الدولة

كان عضد الدولة بصيرًا بالأدب له شعر جيد، وكانت دولته هو وبني بويه عامة دولة للأدب العربي، وتولى الوزارة لهم ابن العميد والصاحب والمهلبي.

وكان الشعر الفارسي يترعرع في الجهات النائية من فارس لا في الجهات القريبة من العراق العربي، ولم يهتم أحد من بويه ووزرائهم بشعراء الفرس، إذ كان الأدب العربي غالبًا، والشعر العربي أبعد صيتًا وأروج سوقًا.

وكان عضد الدولة يسمع بأبي الطيب ويتمنى قدومه عليه، ففي الإيضاح أنه كان جالسًا في البستان الزاهر في يوم زينته وأكابر حواشيه وقوف؛ فقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الحكاري: ما يُعوز مجلس مولانا سوى أحد الطائيين[٧] فقال عضد الدولة: لو حضر المتنبي لناب عنهما.

أرسل عضد الدولة إلى ابن العميد يسأله أن يدعو أبا الطيب إلى المسير إليه، وكان الشاعر يريد العود من أرجان إلى الكوفة، وفي قصيدة وداع ابن العميد ما يشعر بهذا، فقد اعتذر عن الرحيل بتطلع أهله إليه، وهذا صريح في كلام صاحب الإيضاح فهو يقول: «لما ودع أبا الفضل بن العميد ورد كتاب عضد الدولة يستدعيه فعرفه ابن العميد، فقال: ما لي وللديلم؟ فقال أبو الفضل: عضد الدولة أفضل مني، ويصلك بأضعاف ما وصلتك به. فأجاب بأني مُلَقًّى من هؤلاء الملوك، أقصد الواحد بعد الواحد، وأملكهم شيئًا يبقى ببقاء النيرين، ويعطونني عرضًا فانيًا، ولي ضجرات واختيارات فيعوقونني عن مرادي فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه ...» فكاتب ابن العميد عضد الدولة بهذا الحديث فورد الجواب بأنه مملك مراده في المقام والظعن.

[٧] يعني أبا تمام والبحتري، وقد توفيا منذ زمن بعيد، ولكن المتكلم يتمنى أن يكون في المجلس أحدهما أو من يشبههما.

وصدق أبو الطيب في حديثه عن الملوك وفراقهم فكذلك فارق سيف الدولة وكافورًا.

وفي شرح المعري:

«وجه أبو شجاع عضد الدولة في طلبه، ولم يمكن الأستاذ مخالفته فحمله مكرهًا.

سار من أرجان فلما كان على أربعة فراسخ من شيراز استقبله عضد الدولة بأبي عمر الصباغ أخي أبي محمد الأبهري صاحب كتاب حدائق الآداب، فلما تلاقيا وتسايرا استنشده فقال المتنبي: الناس يتناشدونه فاسمعه. فأخبر أبو عمر أنه رسم له ذلك عن المجلس العالي، فبدأ بقصيدته التي فارق مصر بها:

ألا كل ماشية الخيزلَى فدى كل ماشية الهيدبَى

ثم دخل البلد فأنزل دارًا مفروشة ورجع أبو عمر الصباغ إلى عضد الدولة فأخبره بما جرى وأنشده أبياتًا من كلمته وهي:

فلما أنخنا ركزنا الرماح بين مكارمنا والعُلى
وبتنا نقبل أسيافنا ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أني الفتى
وأني وفيت وأني أبيت وأني عتوت على من عتا

فقال عضد الدولة: هو ذا يتهددنا المتنبي.

ثم لما نفض غبار السفر واستراح ركب إلى عضد الدولة فلما توسط الدار انتهى إلى قرب السرير مصادمة فقبل الأرض واستوى قائمًا، وقال شكرت مطية حملتني إليك، وأملًا وقف بي عليك، ثم سأله عضد الدولة عن مسيره من مصر، وعن علي بن حمدان فذكره وانصرف.» ا.هـ.

أنشأ أبو الطيب عند عضد الدولة ست قصائد وأرجوزة طردية وقطعة، وإحدى القصائد تعزية بعمة عضد الدولة التي توفيت ببغداد، والأخريات مدائح ليس فيها من التاريخ إلا وصفه هزيمة وهشوذان الكردي الثائر على بني بويه في قصيدتين.

وأولى القصائد القصيدة التي مطلعها:

أوه بديل من قولتي واها   لمن نأت والبديل ذكراها

ويؤخذ من الإيضاح أن الأولى هي التي وصف فيها الشعب في طريقه إلى شيراز:

مغاني الشعب طيبًا في المغاني   بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن ترتيب الديوان وعنوان الأولى في النسخ، وقوله في الثانية يصف ابني عضد الدولة:

ولم أر قبله شبلي هزبر   كشبليه ولا مهري رهان

وهو لم يرهما إلا بعد قدومه إلى شيراز، وغشيانه مجلس عضد الدولة.

كل هذا يدل على أن الأولى هي: أوه بديل من قولتي واها.

ويعنينا من هذه القصائد في تاريخ أبي الطيب أنه استوحش من فقد العربية في فارس، وذكر الشام وحن إليها في قصيدتين، ولم نر ذلك في شعره بمصر والعراق كأنه حن إلى ملاعب الصبي من بلاد العرب حين رحل إلى بلاد العجم، يقول في القصيدة الأولى:

أحب حمصًا إلى خناصرة   وكل نفس تحب محياها ... إلخ

ويقول في الثانية:

مغاني الشعب طيبًا في المغاني   بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها   غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها   سليمان لسار بترجمان

إلى أن يقول وقد افتقد الضيافة التي تعودها في بلاد العرب:

ولو كانت دمشق ثنى عناني　　لبيق الثرد صيني الجفان
يلنجوجي ما رُفعت لضيف　　به النيران ندي الدخان
تحل به على قلبٍ شجاع　　وترحل منه عن قلبٍ جبان
بلاد لم يزل منها خيال　　يشيعني إلى النَّوبندجان

وكذلك يدل على حنينه إلى العرب، ولا سيما باديتهم وهو مغرم بالبداوة، تغزله بالبدويات في القصيدة اللامية التي مدح بها عضد الدولة:

اثلث فإنا أيها الطلل　　نبكي وترزم تحتنا الإبل

يقول فيها:

في مقلتي رشأ تديرهما　　بدوية فتنت بها الحلل
تشكو المطاعم طول هجرتها　　وصدودها ومن الذي تصل

وقد وصل عضد الدولة الشاعر صلات كثيرة، روى صاحب الإيضاح أنه لما أنشده القصيدة الأولى «حمل إليه عضد الدولة من أنواع الطيب في الأردية والأمنان، من بين الكافور والعنبر والمسك والعود، وقاد فرسه الملقب بالمجروح، وكان اشتُري له بخمسين ألف شاة، وبدرةً دراهمها عدلية، ورداء حشوه ديباج رومي مفصل، وعمامة قومت بخمسمائة دينار، ونصلًا هنديًّا مرصع النجاد والجفن بالذهب.»

وأنه لما دخل عليه يوم نثر الورد قال ما خدمت عيناي قلبي كاليوم، وأنشده قطعة فأعطاه فرسًا وخلعة وبدرة.

وروى صاحب اليتيمة أنه وصله بأكثر من مائتي ألف درهم، وأنه لما استأذنه في المسير أمر أن يخلع عليه الخلع الخاصة، ويقاد إليه الحملان الخاص، وتعاد صلته بالمال الكثير.

وقد ظهر أثر هذا في شعر أبي الطيب ولا سيما قصيدة التوديع.

أقام أبو الطيب في شيراز زهاء ثلاثة أشهر وقرئ عليه ديوانه، ثم أنشد قصيدة الوداع في شعبان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، ولا بد من وقفة نتأمل فيها هذه القصيدة.

يبالغ الشاعر في شكر الأمير ويقول:

أروح وقد ختمت على فؤادي   بحبك أن يحل به سواكا
وقد حملتني شكرًا طويلًا   ثقيلًا لا أطيق به حراكًا
أحاذر أن يشق على المطايا   فلا تمشي بنا إلا سواكا

ويظهر الشاعر رغبته في الرجوع إلى الأمير:

لعل الله يجعله رحيلًا   يعين على الإقامة في ذراكا
فلو أني استطعت خفضت طرفي   فلم أبصر به حتى أراكا
وكيف الصبر عنك وقد كفاني   نداك المستفيض وما كفاكا

ويقول:

وما أنا غير سهم في هواء   يعود ولم يجد فيه امتساكا

ويعتذر بأن أهله في شوق إليه وحزن لغيابه.

وكم دون الثوية من حزين   يقول له قدومي: ذا بذاكا
ومن عذب الرُّضاب إذا أنخنا   يقبل رحل تروك والوراكا
يحرم أن يمس الطيب بعدي   وقد عبق العبير به وصاكا
ويمنع ثغره من كل صب   ويمنحه البشامة والأراكا
يحدث مقلتيه النومُ عني   فليت النوم حدث عن نداكا

ويقول ما يدل على أنه يتوقع شرًّا في طريقه:

فزل يا بُعد عن أيدي ركاب لها وقع الأسنة في حشاكا
وأيا شئت يا طرقي فكوني أذاة أو نجاة أو هلاكا
فلو سرنا وفي تشرين خمس رأوني قبل أن يروا السماكا
يُشَرِّدُ يُمْنُ فنَّاخُسْرَ عَنِّي قنا الأعداء والطعن الدراكا
وألبس من رضاه في طريقي سلاحًا يذعر الأعداء شاكا

فقوله: وأيًّا شئت إلخ ... وقوله: إن يمن فناخسر يشرد عنه الأعداء والطعن، وإن رضاه سلاح له في طريقه، يشعر أنه يخاف الطريق، ويحذر عدوًّا عليها أو لصًّا.

وقد روى العكبري أن عضد الدولة قال: تطيرت عليه من ترك النجاة بين الأذاة والهلاك. ومعنى هذا أن سامع القصيدة شعر أن فيها ما يتطير منه، وقد قال من قبل في قصيدة يصف الأمن في بلاد عضد الدولة:

أروض الناس من ترب وخوف وأرض أبي شجاع من أمان
يُذم على اللصوص لكل تجر ويضمن للصوارم كل جان

وفي هذا إعراب عن إشفاق أبي الطيب من الطريق وتوقعه شرًّا فيها، وأنه عرف أن الطريق خارج مملكة عضد الدولة مخوفة، هذا ما يعرب عنه كلامه، وأحسبه عرف في العراق وفي طريقه إلى أرجان فشيراز أن السبل آمنة في أرض عضد الدولة مخوفة في بلاد العراق حيث سلطان معز الدولة البويهي، ولا أدري أتوقع مع هذا شرًّا من عدو يقصده بسوء أم لا.

الفصل الثامن عشر

رجوعه إلى العراق وقتله في الطريق

١

خرج أبو الطيب من شيراز لثمان خلون من شعبان قاصدًا بغداد فالكوفة.[١]

ويقول بعض الرواة: إن أبا الطيب لما قدم على عضد الدولة ومدحه وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس محلاة ثم دس إليه من يسأله أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال: إن سيف الدولة كان يعطي طبعًا وعضد الدولة يعطي تطبعًا، فغضب عضد الدولة وأوصى إلى جماعة أن يقتلوه.[٢] وروى صاحب الإيضاح أن عضد الدولة قال: إن المتنبي كان جيد الشعر بالغرب، فلما بلغت المتنبي قال: الشعر على قدر البقاع.[٣]

وهاتان روايتان لا تثبتان على النقد، فأبو الطيب قد أفرغ وسعه في مدح صاحبه ونال من جوائزه ما ملأه شكرًا فكيف يقول ما نسب إليه؟ وكيف وهو يعلم أن كلامه حري أن يبلغ عضد الدولة؟ وتدل أخباره في شيراز أنه كان حذرًا كل الحذر أن تنقل عنه كلمة تسخط عضد الدولة.

انظر الرواية الآتية:

قال صاحب الصبح المنبي: حكى عبد العزيز بن يوسف الجرجاني كاتب الإنشاء عند عضد الدولة، قال لما دخل أبو الطيب المتنبي مجلس عضد الدولة وانصرف عنه

---

[١] ابن خلكان.

[٢] الصبح ص٩٩.

[٣] الخزانة ج١.

أتبعه بعض جلسائه وقال له: سله كيف شاهد مجلسنا وأين الأمراء الذين لقيهم منا، قال فامتثلت أمره وجاريت المتنبي في هذا الميدان، وأطلت معه عنان القول، فكان جوابه عن جميع ما سمع مني أن قال: ما خدمت عيناي قلبي كاليوم، ولقد اختصر اللفظ وأطال المعنى وأجاد فيه، وكان ذلك من أوكد الأسباب التي حظي بها عند عضد الدولة.

فهذه الرواية أشبه بحزم أبي الطيب، ولماذا يقول الشاعر في أمير أفاض عليه عطاءه، إن هذا عطاء متكلف وسيف الدولة كان يعطي طبعًا؟ أكان يبغي إرضاء سيف الدولة وهو في شيراز ولا يبالي إغضاب عضد الدولة، وقد قصده وبذل في مدحه وسعه ونال من عطاياه ما أثقله شكرًا؟ ورواية «الشعر على قدر البقاع» سبيلها في الرد والدحض سبيل أختها.

ثم ما الذي يغري عضد الدولة بقتل عظيم أشاد بذكره وآثره بالمدح على ابن عمه معز الدولة، ووعده أن يرجع إليه ليخلد مآثره. إن أعداء عضد الدولة أولى بهذه التهمة، وقد أدرك بعض المعاصرين أن قتل أبي الطيب إخفار لذمة عضد الدولة، فأنشأ أبياتًا يحرضه فيها على عقاب من أخفروا ذمته، وسيأتي هذا في رثائه.

سار الشاعر بمراكبه وأحماله وغلمانه حتى بلغ الأهواز، وبين الأهواز وشيراز واحد وخمسون فرسخًا، ثم سار خمسين فرسخًا حتى بلغ واسط، وهنا نقف لنعرض على القارئ روايتين؛ الأولى: مروية في الصبح المنبي عن الخالديين، والثانية: مروية في الخزانة عن الإيضاح.

قال الخالديان:

> كنا قد كتبنا إلى أبي نصر محمد الجبلي نسأله عما صدر لأبي الطيب المتنبي بعد مفارقته عضد الدولة وكيف قُتل — وأبو نصر هذا من وجوه الناس في الناحية وله فضل وأدب جزل وحرمة وجاه — فأجابنا عن كتابنا جوابًا طويلًا يقول في أثنائه: وأما ما سألتما عنه من خبر مقتل أبي الطيب فأنا أسوقه وأشرحه شرحًا بينًا.

وفي هذا الشرح يذكر أبو نصر قتل أبي الطيب وسببه ويبين تربص فاتك الأسدي في طريق الشاعر وعزمه على قتله فيقول:

> وأما شرح الخبر فإن فاتكًا هذا صديق لي، وهو، كما سمي، فاتك لسفكه الدماء وإقدامه على الأهوال في مواقف القتال، فلما سمع الشعر الذي هجى

به ضبة اشتد غضبه، ورجع على ضبة باللوم وقال له: كان يجب ألا تجعل لشاعر عليك سبيلًا، وأضمر غير ما أظهر.

واتصل به انصراف المتنبي من فارس وتوجهه إلى العراق وعلم أن اجتيازه بجَبُّل ودير العاقول. فلم يكن ينزل عن فرسه، ومعه جماعة من بني عمه رأيهم في المتنبي مثل رأيه، من طلبه واستعلام خبره من كل صادر ووارد.

وكان فاتك خائفًا أن يفوته، وكان كثيرًا ما ينزل عندي، فقلت له يومًا وقد جاءني وهو يسأل قومًا مجتازين عن المتنبي فقلت له: أكثرت المسألة عن هذا الرجل، فأي شيء تريد منه إذا لقيته؟ فقال: ما أريد إلا الجميل وعَذْله على هجاء ضبة. فقلت له: هذا لا يليق بأخلاقك. فتضاحك ثم قال: يا أبا نصر والله لئن اكتحلت عيني به أو جمعتني وإياه بقعة لأسفكن دمه، ولأمحقن حياته. قلت له: كف عافاك الله عن هذا القول، وأزل هذا الرأي من قلبك فإن الرجل شهير الاسم، بعيد الصيت، ولا يحسن منك قتله على شعر قاله، وقد هجت الشعراء الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام، فما سمعنا بشاعر قُتل بهجائه، وقد قال الشاعر:

هجوت زهيرًا ثم إني مدحته　　　وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

ولم يبلغ جرمه ما يوجب قتله، فقال: يفعل الله ما يشاء. وانصرف.

ولم يمض لهذا القول غير ثلاثة أيام حتى وافاني المتنبي ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والطيب والتجملات النفيسة والكتب الثمينة والآلات؛ لأنه كان إذا سافر لم يخلف في منزله درهمًا ولا شيئًا يساويه، وكان أكثر إشفاقه على دفاتره؛ لأنه كان قد انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحًا.

قال أبو نصر: «فتلقيته وأنزلته داري، وسألته عن أخباره وعمن لقي، فعرفني من ذلك ما سررت له، وأقبل يصف ابن العميد وعلمه وكرمه، وكرم عضد الدولة ورغبته في الأدب وميله إلى أهله.

فلما أمسينا قلت: يا أبا الطيب على أي شيء أنت مجمع؟ قال: على أن أتخذ الليل مركبًا فإن السير فيه يخف عليَّ، فقلت: هذا هو الصواب رجاء أن يخفيه الليل ولا يصبح إلا وقد قطع بلدًا بعيدًا، وقلت له: والرأي أن يكون معك من رجالة هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضع المخيفة جماعة يمشون بين يديك إلى بغداد، فقطب وجهه وقال: لِمَ قلت هذا القول؟ فقلت: لتستأنس بهم، فقال: أما والجُزار في عنقي فما بي حاجة إلى مؤنس غيره. قلت: الأمر إليك والرأي في الذي أشرت عليك. فقال: تلويحك ينبي عن تعريض وتعريضك ينبي عن تصريح، فعرفني وبين لي الخطب. قلت: إن الجاهل فاتكًا الأسدي كان عندي منذ ثلاثة أيام وهو غير راضٍ عنك؛ لأنك هجوت ابن أخته ضبة، وقد تكلم بأشياء توجب الاحتراز والتيقظ، ومعه أيضًا نحو العشرين من بني عمه قولهم مثل قوله.

فقال غلام أبي الطيب، وكان عاقلًا: الصواب ما رآه أبو نصر، خذ معك عشرين رجلًا يسيرون بين يديك إلى بغداد، فاغتاظ وشتمه شتمًا قبيحًا، وقال: والله لا أرضى أن يتحدث عني الناس بأني سرت في خفارة أحد غير سيفي.

قال أبو نصر: فقلت: يا هذا أنا أوجه قومًا من قبلي يسيرون بمسيرك وهم في خفارتك. فقال: والله لا فعلت شيئًا من هذا.

ثم قال: يا أبا نصر! أبخرء الطير تخوفني، ومن عبيد العصا تخاف عليَّ؟ والله لو أن مخصرتي هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد معطشون بخمس، وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيات ما جسر لهم خف ولا ظلف أن يرده، معاذ الله أن أشغل فكري بهم لحظة عين. فقلت له: قل إن شاء الله تعالى. فقال: هي كلمة مقولة لا تدفع مقضيًّا ولا تستجلب آتيًا.

ثم ركب فكان آخر العهد به.» ا.هـ.

نقف هنا لنتأمل في هذه الرواية المطولة قبل أن نقيسها إلى رواية أخرى:

يقول الخالديان: إنهما كتبا إلى أبي نصر محمد الجبلي ثم يقولان: «وأبو نصر هذا من وجوه الناس في تلك الناحية.» وليس في الرواية تصريح باسم ناحية؛ ولكن ذكرت ضمنًا في نسبة أبي نصر «الجَبُّلي». والذي أراه أنها نسبة إلى جَبْل، وهي بلدة بين النعمانية وواسط على دجلة تبعد عن النعمانية خمسة فراسخ إلى الشرق والجنوب، وعن دير العاقول ثلاثة عشر فرسخًا فهذا الراوي من بلدة تبعد عن مقتل أبي الطيب

نحو أحد عشر فرسخًا وهو يزعم أنه صديق للشاعر وقاتله وكلاهما نزل في داره قبل القتل بأيام قليلة، وخلاصة روايته:

(١) أن فاتكًا الأسدي خال ضبة العيني الذي هجاه أبو الطيب كان يكثر السؤال عن الشاعر ليقتله انتقامًا لأخته التي هجاها، وقد صرح بهذا لأبي نصر.

(٢) وأن أبا الطيب نزل على أبي نصر بجبل فأخبره ونصحه بالحذر فلم يقبل واحتقر فاتكًا وقومه احتقارًا شديدًا، وغلا في كلامه غلوًّا لا يليق برجل عاقل.

وفي خزانة الأدب عن الإيضاح رواية أخرى نصها:

> وأخبرنا أبو الحسن السوسي في دار الوقف بين السورين، قال: كنت أتولى الأهواز من قبل المهلبي وورد علينا المتنبي ونزل عن فرسه ومقوده بيده، وفتح عيابه وصناديقه لبلل مسها في الطريق وصارت الأرض كأنها مطارف منشورة، فحضرته أنا وقلت قد أقمت للشيخ نزلًا، فقال المتنبي: إن كان ثم فهاته، ثم جاء فاتك الأسدي بجمع، وقال: قدم الشيخ هذه الديار وشرفها بشعره والطريق بينه وبين دير قنة موحش، قد احتوشته الصعاليك، وبنو أسد يسيرون في خدمته، إلى أن يقطع هذه المسافة، ويبر كل واحد منهم بثوب بياض، فقال المتنبي: ما أبقى الله بيدي هذا الأدهم وذباب الجراز الذي أنا متقلده، فإني لا أفكر في مخلوق، فقام فاتك ونفض ثوبه، وجمع من رتوت الأعاريب الذين يشربون دماء الحجيج حسوًا، سبعين رجلًا ورصدوا له: فلما توسط المتنبي الطريق خرجوا عليه … إلخ.

هذه الرواية تؤيد الأولى في أن أبا الطيب أبى أن يسير في خفارة أحد وتخالفها في أن فاتكًا هو الذي عرض على الشاعر أن يخفره، ومعنى هذا أنه ما كان مبيتًا شرًّا له وأنه لو قبلت خفارته ما قتله، وفي الرواية مطاعن:

فقول أبي الحسن السوسي: «كنت أتولى الأهواز من قبل المهلبي إلخ»، يؤخذ منه أن مرور أبي الطيب بالأهواز كان في عهد المهلبي، والمهلبي تُوفِيَ سنة ٣٥٢ كما تقدم.

ومطعن آخر: لو أن فاتكًا لقي أبي الطيب في الأهواز فعرض عليه خفارته فأبى فعزم على قتله أو سلبه، ما صبر عليه حتى قطع المسافة من الأهواز إلى واسط وهي خمسون فرسخًا ثم سار من واسط حتى جاوز النعمانية، كما سيأتي. ثم قول فاتك: إن الطريق إلى دير قنة موحش بعيد أن يقال في الأهواز وبينها وبين دير قنة مراحل كثيرة وبلدان عامرة، وإنما يقال مثل هذا في موضع قريب من دير قنة مثل النعمانية أو جَبل.

ثم عرض فاتك خفارته على أبي الطيب وفي نفسه منه ما فيها مستبعد كذلك.

فرواية أبي نصر أجدر بالقبول بعد حساب المبالغة فيها كقول أبي الطيب عن بني أسد: «أبخرء الطير تخوفني إلخ.» فالرجل مهما تكبر وتهور كان أعقل من أن يقول مثل هذا القول، وأحسب أبا نصر حينما سئل عن مقتل أبي الطيب أراد أن يبين عن نصيبه في هذه القصة التي يتشوف الناس إلى سماعها فأدخل فيها شيئًا من الصنعة، ومبالغة القصاص، وبالغ في دعواه نصيحة أبي الطيب وفي إباء هذا قبول النصيحة.

٢

سار أبو الطيب من الأهواز إلى واسط فنزل بها، قال علي بن حمزة البصري عن القصيدة الكافية التي ودع بها الشاعر عضد الدولة: «هذه القصيدة آخر شعر قاله أبو الطيب، وكتبتها والتي قبلها عنه بواسط يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.»[٤]

بين واسط وبغداد زهاء أربعين فرسخًا، وعلى الطريق بلاد نذكر منها ما ذكر في روايات مقتل أبي الطيب، وهي النعمانية ودير قُنَّى ودير العاقول والصافية.

النعمانية في نصف الطريق بين واسط وبغداد غربي دجلة وهي قائمة اليوم، وكانت تسمى بغيلة فأعيد اسمها القديم. ودير العاقول كان على شاطئ دجلة الشرقي، وكان عنده مدينة مسماة باسمه، وكان على ميل من النهر أيام ياقوت، وبينه وبين بغداد خمسة عشر فرسخًا، وبينه وبين النعمانية زهاء خمسة فراسخ.

وإلى الجنوب الشرقي من دير العاقول على مقربة منه دير مرماري الذي يسمى دير قُنَّى أو (قنة) وهو على ستة عشر فرسخًا من بغداد يبعد عن الشاطئ قليلًا.

---

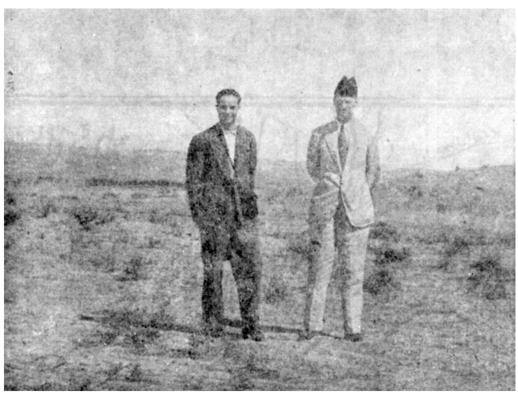
[٤] نسخة بغداد.

وأما دير قنى على الشاطئ الصافية إلى الجنوب والشرق من دير العاقول، وكانت على الشاطئ في زمن ياقوت (تنظر الخارطة).

وعلى نحو ثمانين كيلًا من بغداد إلى الجنوب والشرق توجد اليوم أرض تسمى أرض الدير، ذهبت إليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف[٥] فإذا تلال كثيرة متقاربة قليلة الارتفاع عليها حطام من الآجر والخزف تبعد عن شاطئ دجلة الشرقي نحو كيل واحد.

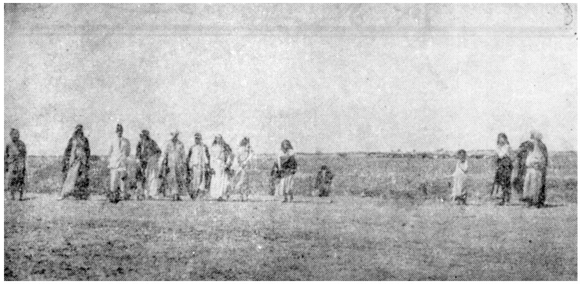
وقد سألت أعرابًا نازلين هناك من قبيلة شمر عن أرض أخرى تسمى أرض الدير في هذه الناحية فنفوا هذا، وسألت عن أسماء العاقول وقنى والصافية أتعرف اليوم هي أو ما يقرب منها فنفوا جازمين ...

وإذا نظرنا إلى المسافة بين هذه الأرض وبغداد فهي تقارب خمسة عشر فرسخًا، وهي تقارب المسافة المقدرة بين بغداد ودير العاقول في معجم البلدان وغيره.

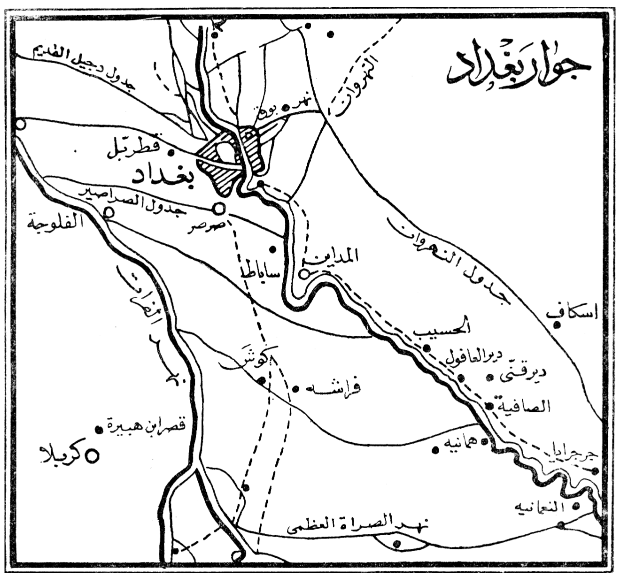


المؤلف وصديقه علي المليجي المهندس، على أطلال دير العاقول المعروفة اليوم بأرض الدير.

[٥] ١٢ حزيران (يونيه) سنة ١٩٢٦.



المؤلف في أطلال دير العاقول يسائل أعرابًا من شمر عن بعض الأسماء التاريخية.



ومهما يكن فأكبر الظن أن هذه التلال بقايا دير قنى أو دير العاقول، وكانا متقاربين، وهذا يدل على أن دجلة لم تغير مجراها كثيرًا في هذه الناحية.

وأما الصافية فأحسب موضعها الآن في مجرى النهر، فقد كانت أيام ياقوت على ميل من دير قنى وعلى الشاطئ، ويؤيد هذا قول صاحب مراصد الاطلاع عن الصافية: «وقيل: موضع دجلة.»

٣

الروايات في مقتل أبي الطيب متفقة في جملتها، ولكن بعضها أبين وأكثر تحديدًا من بعض، وهي في التحديد قسمان:

(١) روايات تجعل مقتله قرب النعمانية أو قرب دير العاقول دون ذكر الموضع الذي قتل به. انظر رواية أبي نصر الجبلي في الصبح ورواية الخطيب البغدادي.

(٢) روايات تذكر الصافية على أنها موضع القتل أو قريبة منه، وهي على مقربة من دير العاقول، بينه وبين النعمانية، فليست تناقض الروايات الأولى بل تزيد عليها تحديدًا.[٦]

(٣) رواية ابن خلكان التي تحاول الجمع بين الروايات فقول: «بالقرب من النعمانية في موضع يقال له الصافية من الجانب الغربي من سواد بغداد عند دير العاقول بينهما مسافة ميلين.»

وحق أن الصافية قريبة من دير العاقول ولكنها ليست قريبة من النعمانية إلا قربًا نسبيًّا.

(٤) رواية ابن جني ونسخة بغداد ونسخة في الموصل[٧] تذكر مكانًا محرفًا مضطربًا بين فرع ونيزع وشرع. والصواب أنها نيزع كما يأتي في الكلام على المعركة، ونيزع قريبة من الصافية.

يستطيع الباحث بعد هذا أن يقول: إن أبا الطيب قتل على مقربة من الصافية، ولكن ابن خلكان وابن الأنباري يقولان: «من الجانب الغربي من سواد بغداد.» والصافية على الشاطئ الشرقي، فكيف هذا؟

[٦] ابن الأنباري ونسخة الأوقاف والمعري.

[٧] مكتبة يحيى باشا الجليلي.

رواية ابن خلكان متناقضة بلا ريب؛ فهو يقول في موضع يقال له: «الصافية من الجانب الغربي» وهذا خطأ، وأحسبه اتبع ابن الأنباري فالعبارتان متقاربتان، فهل عبارة ابن الأنباري مقبولة؟

هو يقول: «حيال الصافية من الجانب الغربي» فيمكن أن يقال: إن مقتل الشاعر في الجانب الغربي حيال الصافية على الضفة الشرقية. وكلمة حيال هذه صحفت في بعض الروايات إلى جبال وليس عند الصافية جبال.

كان جائزًا قبول رواية ابن الأنباري بهذا التفسير لو لم نعرف الطريق بين واسط وبغداد أتساير الضفة الشرقية أم الغربية من دجلة، ولكننا نعرف من كتب المسالك أن الطريق شرقي دجلة، وقد عرفنا أنه مر بجبل وليس لنا أن نفرض أنه سار شرقي النهر من واسط إلى جبل حيث نزل على أبي نصر ثم عبر إلى النعمانية ليعبر إلى الشرق مرة أخرى، فكلمة الجانب الغربي ينبغي أن تكون محرفة عن الجانب الشرقي.

وخلاصة هذه الكلمة أن جمع هذه الروايات ونقدها وتعرف مواقع البلاد التي ذكرت في الروايات، والطريق بين واسط ودار الخلافة — كل أولئك يبين لنا أن مقتل أبي الطيب كان عند الصافية شرقي نهر دجلة على نحو ستة عشر فرسخًا من بغداد.

٤

الواقعة

سار أبو الطيب من واسط يؤم بغداد، وكان مسيره يوم السبت سابع عشر رمضان، وفي هذا اليوم كتب عنه روايته علي بن حمزة البصري القصيدتين الأخيرتين من شعره.

وبلغ جبل بعد أن سار زهاء سبعة عشر فرسخًا فنزل عند أبي نصر الجبلي كما تقدم.

ثم أخذ طريقه حتى حاذى النعمانية، وهي في نصف الطريق بين واسط وبغداد، وواصل سيره فمر بجر جرايًا على أربعة فراسخ إلى الجنوب والشرق من دير العاقول، وتقدم حتى جاوز الصافية، وبينها وبين بغداد ستة عشر فرسخًا، متوجهًا إلى دير العاقول.

وهناك كانت الموقعة التي قتل فيها الشاعر العظيم، وهذه روايات مختصرة عن هذه الوقعة، في آخر شرح ابن جني:

> وقتل يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وقت منصرفه من شيراز، بنيزع بين الكيل والرصافة والصافية، وابنه وغلام له يعرف بمفلح، قتلهم فاتك بن أبي جهل الأسدي وفراس بن بداد، وقيل: إنه قال له: يا قاذف المحصنات يا سباب! قبحًا لهذه اللحية.

وفي شرح المعري:

> وخرج من عند عضد الدولة حتى إذا قارب بغداد وخرج من دير العاقول، خرج عليه فرسان ورجال من أسد وشيبان، فقُتل بين الصافية ودير العاقول، وذلك يوم الاثنين لست ليال بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وقتل معه عبده، وقتل ابنه بعده.

وفي النسخة البغدادية:[٨] قال علي بن حمزة البصري:

> هذه القصيدة (يعني الكافية التي ودع بها عضد الدولة) آخر شعر قاله أبو الطيب، وكتبتها والتي قبلها منه بواسط يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وسار منها فقُتل بنيزع، قتله بنو أسد وابنَه وغلمانَه، وأخذوا ماله يوم الأربعاء لليلتين بقيتا منه، والذي تولى قتله منهم فاتك بن أبي الجهل بن فراس بن بداد.[٩] ومن قوله له: قبحًا لهذه اللحية يا سباب. وذلك أن فاتكًا هذا ذو قرابة لضبة بن يزيد العيني الذي هجاه المتنبي بقوله:
>
> > ما أنصف القوم ضبة إلخ، وهي من سخيف شعره، وكانت سبب قتله، وذهب دمه.

[٨] انظر المقدمة في وصف نسخ الديوان التي رجعت إليها في تاريخ أبي الطيب.

[٩] يقرن هذا بما تقدم عن شرح ابن جني أن القاتل فاتك بن أبي جهل الأسدي وفراس بن بداد، والظاهر أن الواو زائدة.

وفي النسخة التي طبعت عليها الديوان، بعد القصيدة الكافية التي مدح بها عضد الدولة وودعه:

هذا آخر ما قاله أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، ورحل من شيراز بعد ذلك في شعبان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة يريد الكوفة، فاعترضه فوارس بين دير العاقول والصافية، وكان التُمس منه خفارة لبعض الرجالة ليسلكوا به الطريق ويحموا عنه فلم يفعل.

وقال: معي سيفي ورمحي، أخفر!

ويقال: إن الذين خرجوا عليه من بني كلاب مع ضبة بن محمد العيني لما هجاه به:

ما أنصف القوم ضبة ... إلخ

وكان الفرسان نحو خمسين فارسًا، فقتل منهم جماعة وجرح جماعة فيهم عدة، وقُدِّرت الحرب من ضحوة إلى الأولى، ثم كلَّ أبو الطيب وولده ومملوكه، فلما تطاول الأمر استرسل وظفروا به، فقتلوه وولده والمملوك وأخذ جميع ما كان معه، ودفنوه في الموضع، وكان له قيمة كثيرة، ولم يكن طلبهم ما معه، سوى نفسه.

والذي قتله منهم فاتك بن فراس بن بداد، وكان قرابة لضبة.

ويقال: إنه لما قرب منه فاتك كان معه عبد يقال له: سراج، فقال له: يا سراج أخرج إليَّ الدرع. فأخرجها ولبسها وتهيأ للقتال ثم قال:

أفرغ الدرع يا سراج وأبصر ... ما ترى اليوم ها هنا من قتال
فلئن رحتُ في المكر صريعًا ... فانعَ للعالَمين كلَّ الرجال

ثم قال فاتك: قبحًا لهذه اللحية يا سباب ... فقال فاتك: ألست الذي تقول:

الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والطعن والضرب والقرطاس والقلم

فقال: أنا عند ذاك يا بن اللخناء العفلاء، ثم قاتل وبطح نفسًا أو نفسين، فخانته قوائم فرسه فغاصت إحداها في ثقبة كانت في الأرض، فتمكن منه الفرسان وأحاطوا به وقتلوه واقتسموا ماله ورحله، وأخذوا ابنه المحسد وأرادوا أن يستبقوه، فقال أحدهما: لا تفعلوا واقتلوه، فقتلوه.

وحكى الشريف ناصر قال: عبرت على بدنه، وكان مفروقًا بينه وبين رأسه، ورأيت الزنانير تدخل في فيه وتخرج من حلقه.

أعاذنا الله من كل سوء ومكروه بمنه وطوله.

وفي نسخة بغداد أن فاتكًا كان في نيف وثلاثين فارسًا رامحين وناشبين.

وفي الخزانة، عن الإيضاح، أن فاتكًا كان معه سبعون فارسًا، وأنهم قتلوا كل من كان مع أبي الطيب، وأن فاتكًا حمل عليه وطعنه في يساره ونكسه عن فرسه، وأن ابنه أفلت إلا أنه رجع يطلب دفاتر أبيه، فقنع خلفه الفرس أحدهم وحز رأسه.

وقال صاحب الإيضاح:

> كان المتنبي يحفظ ديواني الطائيين ويستصحبهما في أسفاره ويجحدهما. فلما قتل توزعت دفاتره، فوقع ديوان البحتري إلى بعض من درس علي، وذكر أنه رأى خط المتنبي وتصحيحه فيه.

ويقول أبو نصر الجبلي الذي أثبت روايته آنفًا:

> ولما صح خبر قتله وجهت من دفنه ودفن ابنه وغلمانه، وذهبت دماؤهم هدرًا.

٥

نظرات في هذه الروايات

ندع جانبًا تفصيلًا تختلف فيه الروايات وهو غير ذي خطر، فنجد الروايات التي ذكرتها وروايات أخرى لم أجد حاجة إلى ذكرها تجمع على ما يأتي:

(أ) أن أبا الطيب قُتل وهو راجع من شيراز إلى بلده.
(ب) وأن قتله كان في مكان قريب من الصافية ودير العاقول.

(ج) وأن الذي رصد له وخرج عليه هو فاتك الأسدي قريب ضبة العيني الذي هجاه الشاعر بالقصيدة المقذعة: ما أنصف القوم ضبة، القصيدة المشئومة التي يقول ابن جني: إنه كان يرى في وجه الشاعر الاشمئزاز وهو يقرؤها عليه.

(د) وأن معركة ثارت بين أبي الطيب ومن معه وبين فاتك ومن معه.

(هـ) وأن الشاعر وابنه محسدًا وبعض غلمانه قتلوا في المعركة وبعدها.

وأقول: إن أبا الطيب كان يستصحب غلمانه في أسفاره وقد وصفهم في قصيدة رثى بها أبا شجاع فاتكًا:

في غلمة أخطروا أرواحهم ورضوا　　بما رضيت رضا الأيسار بالزلم
تبدو لنا كلما ألقوا عمائمهم　　عمائم خلقت سودًا بلا لثم
بيض العوارض طعانون من لحقوا　　من الفوارس شلالون للنعم
قد بلغوا بقناهم فوق طاقته　　وليس يبلغ ما فيهم من الهمم
في الجاهلية إلا أن أنفسهم　　من طيبهن به في الأشهر الحرم

وذكرهم مرة أخرى في القصيدة التي ودع بها ابن العميد:

تبدل أيامي وعيشي ومنزلي　　نجائب لا يُفكرن في النحس والسعد
وأوجه فتيان حياء تلثموا　　عليهن لا خوفًا من الحر والبرد
وليس حياء الوجه في الذئب شيمة　　ولكنه من شيمة الأسد الورد
إذا لم تُجزهم دار قوم مودة　　أجاز القنا، والخوف خير من الود

ومثل أبي الطيب في أسفاره البعيدة التي يحمل فيها هبات الممدوحين لا يسير بغير أعوان.

وقد ذكر الرواة أن غلامه مفلحًا قتل معه، وذكروا أن بعض غلمانه قُتل.

وأكبر الظن أن الغلمان لم يثبتوا بعد قتل سيدهم، فمن لم يقتل قبله أو معه حين الوقعة نجا بنفسه بعد قتل سيده.

والبيتان المرويان في نسختي من الديوان:

أفرغ الدرع يا سراج وأبصر ... إلخ.

إن لم يكونا للشاعر فهما جديران به، ومثل أبي الطيب من يحسب نعيه نعي الرجال كلهم إلى الناس جميعًا.

٦

بقي تعيين اليوم الذي قُتل فيه.

رواية ابن جني أن القتل كان يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان.

ورواية علي بن حمزة البصري الأربعاء لثمان وعشرين من رمضان.

ورواية شرح المعري: الاثنين لأربع وعشرين من رمضان، وروايات أخرى تذكر ٢٢ و٢٥ و٢٧ وإذا أخذنا بقول علي بن حمزة البصري أنه كتب القصيدتين الأخيرتين عن الشاعر يوم السبت السابع عشر من رمضان فيوم الاثنين يوافق ١٩ و٢٦، فرواية شرح المعري أن الاثنين يوافق ٢٤ غلط.

والأربعاء المذكور في رواية علي بن حمزة وابن جني يوافق ٢١ و٢٨؛ فقول ابن جني يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان غلط.

وتبقى رواية علي بن حمزة الذي كتب عن الشاعر يوم السبت ١٧، وقال: إن مقتله كان الأربعاء ٢٨، وهي أصح الروايات فيما أرى.

ويؤيدها أن المسافة بين واسط ودير العاقول وهي خمسة وعشرون فرسخًا لا تقطع في يومين فلا تصح رواية يوم ١٩، ويبعد أن تقطع في ثلاثة أيام فتبعد رواية ٢١.

فالظاهر بعد كل هذا، أن الرجل قتل يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، كما يقول راويته علي بن حمزة البصري.

رحم الله أبا الطيب الذي يقول:

ردي حياض الردى يا نفس واتركي   حياض خوف الردى للشاء والنعم
إن لم أذرك على الأرماح سائلة   فلا دعيت ابن أم المجد والكرم

الفصل التاسع عشر

رثاء أبي الطيب

أثبت هنا ما اطلعت عليه من رثاء أبي الطيب لنعرف وقع قتله في نفوس الأدباء ولنتبين الصفات التي رثوه من أجلها.

رثاه صديقه أبو الفتح عثمان بن جني بقصيدة رواها ياقوت بعد قوله:

> وما كنت أعلم أنه ينظم القريض أو يسيغ ذلك الجريض حتى قرأت له مرثية في المتنبي.

وأثبت ستة عشر بيتًا، وكلامه يفهم أن هذه الأبيات بعض المرثية، ولكن يظهر عند قراءتها أنها المرثية كلها وهي:

غاض القريض وأودت نضرة الأدب ... وصوحت بعد ري دوحة الكتب
سُلبت ثوب بهاء كنت تلبسه ... كما تخطفت بالخطية السلب
ما زلت تصحب في الجُلى إذا انشعبت ... قلبًا جميعًا ورأيًا غير منشعب
وقد حلبت، لعمري، الدهر أشطره ... تمطو بهمة لا وانٍ ولا نصب
من للهواجل يُحبي ميت أرسمها ... بكل جائلة التصدير والحقب[1]

[1] في الصبح بيت بعد هذا هو:

أم من لسرحانها يقريه فضلته ... وقد تضور بين اليأس والسغب

قبَّاء خوصاء محمود عُلالتها ... تنبو عريكتها بالحلس والقتب
أم من لبيض الظبى توكافُهنَّ دم ... أم من لسمر القنا والزُّغْف واليَلب
أم للجحافل يُذكى جمر جاحمها ... حتى يقر بها من جاحم اللهب
أم للمحافل إذ تبدو لتعمرها ... بالنظم والنثر والأمثال والخطب
أم للصواهل محمرًا سرابلها ... من بعد ما غبرت معروفة الشهب
أم للمناهل والظلماء عاكفة ... يواصل الكر بين الورد والقرب
أم للقساطل تعتم الحروب بها ... أم من لضغم الهزبر الضيغم الحرب
أم للملوك يحليها ويلبسها ... حتى تمايس في أبرادها القشب
باتت وسادي أطراب تؤرقني ... لما غدوت لقًى في قبضة النوب
عمرت خدن المساعي غير مضطهد ... كالنصل لم يدَّنِس يومًا ولم يعب
فاذهب عليك سلام المجد ما قلقت ... خوص الركائب بالأكوار والشعب

ورثاه أبو القاسم المظفر بن علي الطبسي بأربعة أبيات رواها الثعالبي في اليتيمة:

لا رعى الله سرب هذا الزمان ... إذ دهانا في مثل ذاك اللسان
ما رأى الناس ثاني المتنبي ... أي ثان يُرى لبكر الزمان
كان من نفسه الكبيرة في جيش ... وفي الكبرياء ذا سلطان
كان في لفظه نبيًّا ولكن ... ظهرت معجزاته في المعاني

وفي رواية الصبح المنبي: «هو في شعره نبي ولكن ... إلخ.»

وكذلك رثاه ثابت بن هارون الرقي النصراني، وحرض عضد الدولة على عقاب من قتلوه:

الدهر أخبث والليالي أنكد ... من أن تعيش لأهلها يا أحمد
قصدتْك لما أن رأتك نفيسها ... بخلا بمثلك، والنفائس تقصد
ذقتَ الكريهة بغتة وفقدتها ... وكريه فقدك في الورى لا يفقد
قل لي إن اسطعت الخطاب، فإنني ... صب الفؤاد إلى خطابك مكمد
أتركتَ بعدك شاعرًا؟ والله لا ... لم يبق بعدك في الزمان مقصد

أما العلوم فإنها يا ربَّها   تبكي عليك بأدمع لا تجمد

* * *

يا أيها الملك المؤيد دعوة   عمن حشاه بالأسى يتوقد
هذي بنو أسد بضيفك أوقعت   وحوت عطاءك إذ حواه الفرقد
وله عليك بقصده، يا ذا العلى   حق التحرم والذمام الأوكد
فارع الذمام وكن لضيفك طالبًا   إن الذمام على الكريم مؤبد

الفصل العشرون

بيت أبي الطيب

يقول أبو الطيب في قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران، وهو أحد ممدوحيه في الشام قبل اتصاله ببني حمدان:

في الناس أمثلة تدور حياتها   كمماتها، ومماتُها كحياتها
هبتُ النكاح حذار نسل مثلها   حتى وفرت على النساء بناتها

وهذا يدل على أنه لم يتزوج إلى ذلك الوقت، وإذا أخذنا بترتيب الديوان فقد أنشأ هذه القصيدة بعد مفارقته بدر بن عمار؛ أي: بعد سنة ٣٢٩هـ، وسن أبي الطيب حينئذ زهاء ستة وعشرين عامًا.

ولا ندري متى تزوج، ولكن دلنا على أن له عيالًا حين قال لسيف الدولة سنة ٣٣٧، وقد أزمع المسير لنصرة أخيه ناصر الدولة وسأله أن يسير معه، قال:

يا من يعز على الأعزة جاره   ويذل عن سطواته الجبار
كن حيث شئت فما تحول تنوفة   دون اللقاء، ولا يشط مزار
وبدون ما أنا من ودادك مضمر   يُنضَى المطي ويقرب المستار
إن الذي خلفت خلفي ضائع   ما لي على قلقي إليه خيار
وإذا صحبت فكل ماء مشرب   لولا العيال، وكل أرض دار
إذن الأمير بأن أعود إليهم   صلة تسير بذكرها الأشعار

فقد أعلمنا أن له عيالًا يشفق عليهم، وقد نزح من العراق وحده فيما نعلم، فهؤلاء العيال زوجه وأولاده أو زوجه وحدها، وقد كنى عنها، تزوج الشاعر إذن قبل سنة

٣٣٧. وإن صح ترتيب الديوان في القصيدة التائية كما قلت آنفًا، فزواجه بين سنتي ٣٢٩ و٣٣٧هـ.

ويقول في رثاء ابن سيف الدولة (في بعض نسخ الديوان):

وقد ذقت حلواء البنين على الصبي   فلا تحسبني قلت ما قلت عن جهل

لا نجد في شعر أبي الطيب ذكرًا لأهله من بعد إلا في مصر حين يقول في قصيدة مدح بها كافورًا في شوال سنة سبع وأربعين وثلاثمائة:

يُضاحك في ذا العيد كلٌّ حبيبه   حذائي وأبكى من أحب وأندب
أحن إلى أهلي وأهوى لقاءهم   وأين من المشتاق عنقاء مُغرب
فإن لم يكن إلا أبو المسك أوهم   فإنك أحلى في فؤادي وأعذب

ويقول في قصيدة الخروج من مصر:

عيدٌ بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لأمر فيك تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهم   فليت دونك بيدًا دونها بيد

وفي النسخة (١٥٣٠) ونسخة الشرواني أبيات عنوانها في النسخة الأولى: «وله بعد ما هرب من مصر يذكر شوقه إلى ابنه وإلى شيخ كان له محبًّا يُسمى الحسين.»

والأبيات مضطربة ومنها:

لولا محمد بل لولا الحسين لما   رأيت رأيي بوهن العزم مختلطًا

وأحسب محمدًا هنا محرفة عن محسد وهو مشهور في أخبار أبي الطيب. وفي هذا بيان أن ابنه لم يكن معه في مصر، وأحسبه ترك أهله بالشام ثم لحقوه بالكوفة أو سبقوه إليها.

ونجد أبا الطيب يذكر أهله من بعد في توديع ابن العميد، يقول:

وقد كنت أدركت المنى غير أنني ... يعيرني أهلي بإدراكها وحدي
وكل شريك في السرور بمُصبحي ... أرى بعده من لا يرى مثله بعدي

ويذكرهم كذلك في توديع عضد الدولة:

وكم دون الثوية[1] من حزين ... يقول له قدومي: ذا بذاكا
ومن عَذْب الرضاب إذا أنخنا ... يُقبل رحل تُروَك[2] والوراكا
يحرم أن يمس الطيب بعدي ... وقد عبق العبير به وصاكا
ويمنع ثغره من كل صب ... ويمنحه اليشامة والأراكا
يحدث مقلتيه النومُ عني ... فليت النوم حدث عن نداكا

ولسنا نعرف عن زوجه شيئًا، وأكبر ظني أنها شامية، فقد تزوج بالشام، ولعل هذا يسر له ترك عياله هناك حين سار إلى مصر.

ولا نعرف من أولاده إلا محسدًا، ولم يذكره في شعره عدا الأبيات الطائية التي قدمتها، وهي ملحقة ببعض النسخ.

وعندنا من أخبار محسد مع أبيه نتف:

ذكر الحاتمي في حديثه عن لقاء أبي الطيب في بغداد أن الشاعر غضب على رجل كان حاضرًا مجلسه فقال: «يا محسد خذ بيده وأخرجه.»[3]

وفي طبقات الأدباء عن أبي زكريا التبريزي أن المتنبي كان بواسط جالسًا وعنده ابنه محسد قائمًا، وجماعة يقرءون عليه فورد إليه بعض الناس فقال أريد أن تجيز لنا هذا البيت وهو:

زارنا في الظلام يطلب سترًا ... فافتضحنا بنوره في الظلام

---

[1] مكان قرب الكوفة.

[2] اسم ناقة أعطاه إياها عضد الدولة.

[3] معجم الأدباء ج٦ ص٥١٢.

فرفع رأسه وقال: يا محسد قد جاءك بالشمال فأته باليمين فقال:

فالتجأنا إلى حنادس شَعر ستَرتنا عن أعين اللوام

وروى صاحب الإيضاح: «وكان أبو جعفر وزير بهاء الدولة[٤] مأمورًا بالاختلاف إليه، وحفظ المنازل والمناهل من مصر إلى الكوفة وتعرفها منه، فقال: كنت حاضره وقام ابنه يلتمس أجرة الغسال، فأحد المتنبي إليه النظر بتحديق فقال: ما للصعلوك والغسال؟ يحتاج الصعلوك إلى أن يعمل بيده ثلاثة أشياء، يطبخ قدره، وينعل فرسه، ويغسل ثيابه، ثم ملأ يده قطيعات بلغت درهمين أو ثلاثة.»

ليس عندي من أخبار الرجل في بيته وأخبار أولاده إلا هذه الشذرات، ولعل البحث يكشف عن غيرها فيما بعد.

[٤] أظنها عضد الدولة.

الفصل الحادي والعشرون

أخلاق أبي الطيب

لعل القارئ في غنى عمن يبين له عن أخلاق أبي الطيب، بعد الذي قرأ من سيرته تفصيلًا، وبعد أن عرف كيف اختلفت الغِيَر عليه، وكيف قابلها وأعرب عنها.

قد صحب القارئ الشاعر من نشأته إلى مماته فهو عالم بأخلاقه، عارف بنزعاته، ولكني أحاول في هذا الفصل أن أردَّ هذه الأخلاق والنزعات المتفرقة إلى أصولها في نفس الرجل، وأقول في ذلك قولًا يشبه أن يكون بيانًا وخلاصة لما قدمتُ في تاريخه:

(١) جماع أخلاقه

يتبين قارئ شعر الرجل ومتتبع سيرته الكبرياء والعُجب والإباء وبعد الهمة، والجرأة والإقدام والصبر، فيرى رجلًا قويَّ النفس كما كان قويَّ الجسم.

ويمكن رد هذه الأخلاق إلى ثلاثة: الشجاعة، والأنفة، وعلو الهمة، وهي أخلاق تتجلى في أقواله وأفعاله كلها إلا شذوذًا.

وقد مكنها في نفسه وأمرها نشأته في البادية، ثم صحبة الأعراب في الحين بعد الحين من بعدُ، وكثرة أسفاره، وتعرضه للصعاب والمخاوف.

وإن في هجرته إلى الشام شابًّا، وتطويفه في أرجائه، وهمِّه بالثورة أو دعوته إلى بيعته وهو في حدود العشرين من العمر، ومساواة نفسه بالممدوحين، وفي هجائه ابن كيغلغ هجاء مقذعًا، وهو رجل ذو بأس، ومقابلة وعيده بالسخرية، وفي شهود الحروب مع سيف الدولة، وفي غضبته على هذا الأمير، وإنشاده القصيدة: «وا حر قلباه ممن قلبه شَبم»، ثم مغاضبته إياه وسيره إلى مصر، وفي تعاظمه في قصائد كافور، والاشتداد في مطالبته بإنجاز وعده، ثم خروجه من مصر إلى الكوفة يشق الأهوال والفيافي، وفي إبائه مدح المهلبي ومعز الدولة؛ إذ لم يلقياه بما يستحق من الحفاوة، وهجاء ضبة بن يزيد،

وهو يعرف أخلاق البادية، وفي إبائه الخفارة وقد أُخبر أن شرًّا يرصده في طريقه، في هذا كله وفي كلفه في شعره بالحرب والضرب والسؤدد والمجد والإباء والثورة، لبرهانًا على ما أقول لا تعوزه الدلالة والقوة.

وفي الإيضاح: «سمعت أنه قيل للمتنبي، قولك في كافور:

فارم بي ما أردْتَ منِّي فإني   أَسَدُ القلب آدميُّ الرواء
وفؤادي من الملوك وإن كا   ن لساني يُرى من الشعراء

ليس قول ممتدح ولا منتجع إنما هو قول مضاد. فأجاب المتنبي إلى أن قال: هذه القلوب كما سمعت، أحدها يقول:

يقَرُّ بعيني أن أرى قِصَد القنَا   وصرعى رجال من وغًى أنا حاضره

وأحدها يقول:

يقَرُّ بعيني أن أرى مَن مكانها   ذُرَا عَقَدات الأجرع المتقاود.»

ولولا أن الرجل كان طامعًا في المجد ولا عصبية له ولا مال فاضطر إلى المدح وما يجرُّه المدح من المذلة والنفاق، لبلغ في الإباء والشمم ومكارم الأخلاق عامَّة أعلى مما بلغ.

(٢) ترفعه عن الدنايا

وهذه الأخلاق أدت إلى تعاليه عن مسايرة شعراء وقته في اللهو والمجون ومعاقرة الخمر، فقد عرف بعفته وتنزُّهه عما لا يليق بالرجل العظيم، وفخر بذلك في شعره خلاف جمهرة الشعراء في عصره، قال في قصيدة مدح بها أبا أيوب بن عمران:

وترى المروَّةَ والفتوَّة والأبوَّ   ةَ فيَّ كلُّ مليحة ضرَّاتِها
هنَّ الثلاث المانعاتي لذَّتي   في خلوتي لا الخوفُ من تبعاتها

وقال في بعض القصائد السيفية:

وقد استقدتُ من الهوى وأذقته　　من عفَّتي ما ذقت من بلباله

* * *

وما كلُّ من يهوى يعفُّ إذا خلا　　عفافي ويُرضي الحبَّ والخيل تلتقي

وأغيدُ يهوى نفسه كل عاقل　　لبيب ويهوى جسمه كلُّ فاسق

وقال في قصيدة كافورية:

وغيرُ فؤادي للغواني رميَّةٌ　　وغير بناني للزجاج رِكاب
تركنا لأطراف القنا كلَّ شهوة　　فليس لنا إلا بهن لِعاب

وقال في أرجوزة عضدية: لا تخطر الفحشاء لي ببال.

وقد عُرف بين أهل عصره بتجنب الخمر على كثرة غشيانه مجالس الأمراء والكبراء، وكان أصدقاؤه يعرضون عليه الشرب فيجيبهم بمثل قوله:

لأحبتي أن يملئوا　　بالصافيات الأكوُبا
وعليهم أن يبذُلوا　　وعليَّ ألَّا أشربا
حتى تكونَ الباتراتُ　　المسمعاتِ فأطربا

وقد بلغ من إبائه الخمر أن حلف عليه صديق له بالطلاق ليشربنَّ، وقال له الأمير ابنُ طغُج: بحقي عليك إلا شَربت. ولا أنكر أنه شرب مرات إجابة لأيمان أصدقائه، أو إلحاح ممدوحيه.

وهو ينقم على أمراء عصره الشرب واللهو في مثل قوله لسيف الدولة:

ألهى الممالكَ عن فخر قَفلتَ به　　شربُ المدامة والأوتارُ والنغم

وقوله في مدحه وهو بالعراق مُعرِّضًا بالأمراء الآخرين:

قعد الناس كلهم عن مساعيك وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول

(٣) صدقه وكراهته التصنُّع

ويتصل بهذا صدقه الذي عرف به حتى قال علي بن حمزة راويته: إنه ما كذب قط، وقد قال هو في بغداد:

في الصدق مندوحةٌ عن الكذب والجدُّ أولى بنا من اللعب

وفي ذلك البيت الفرد قاعدتان من قواعد أخلاقه.

ومن ذلك صراحته ونفوره من التكلف حتى فضَّل البداوة على الحضارة بأن حسنها طبيعي:

حُسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسنٌ غير مجلوب

وفضَّل النساء البدويات على الحضريات بأنهن أصرح لفظًا وأبعد من الزينة:

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغَ الكلام ولا صبغ الحواجيب

بل عدَّ خضاب الشيب من التمويه والكذب:

ومِن هوى كل من ليست مموَّهة تركتُ لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبتُ عن شَعرٍ في الرأس مكذوب

(٤) سخطه على الناس

وكان أبو الطيب، في اعتداده بنفسه وطموحه إلى السؤدد، وقصور عصبته وثروته عن بلوغ ما أمَّل، حاقدًا على الناس يحقرهم ويذمهم ويضطغن عليهم، ويتحدث بقتلهم كما مرَّ، وكان حقده يتجلى حين يحقِره إنسان أو يحول دون غايته، انظر كيف هجا ابن كَيغَلغ وكافورًا وضبة بشعر فيه من الإقذاع ما يكاد يوفي بالقارئ على الشك في أنه شعر أبي الطيب.

(٥) وفاؤه وتودُّده

وكان على شدة في طبعه، ومرارة في جِدِّه، وَدودًا لأصدقائه وفيًّا لهم، يتبسط معهم ويمازحهم، ويأسى لفراقهم، ويجزع لموتهم.

انظر كيف تقسَّم قلبُه بينه وبين بني حمدان، في أول مدائحه في كافور، وكيف رثى صديقه أبا شجاع رثاء صادقًا لم يُمله إلا الوفاء، ولم يكتف بمرثيَّة بل رثاه ثلاث مرات، وكلُّ مراثيه أنشأها بعد خروجه من مصر حين بعد عن فاتك، وما يُذكِّر به وانقطع كل أمل في الجزاء، وإحدى هذه المراثي قالها بعد وفاة صديقه بسنتين، فلم يكن الشاعر كاذبًا حين قال:

خُلقتُ ألوفًا لو رجعت إلى الصبا لفارقتُ شيبي موجَع القلب باكيا

وقد مثَّل شدته على أعدائه ورقته مع أصدقائه في قوله:

ويَزيدني غضب الأعادي قسوة ويلمُّ بي عتبُ الصديق فأجزع

ومما أُثر من مزاحه، وللمزاح دلالة على الأخلاق، ما رواه صاحب اليتيمة عن ابن جني، قال:

> حدثني أبو علي الحسين بن أحمد الصَّنَوبري: قال: خرجت من حلب أريدُ سيف الدولة، فلما برزت من السور إذا أنا بفارس متلثم قد أهوى نحوي

برمح طويل، وسدَّده إلى صدري، فكنت أطرح نفسي عن الدابة فَرَقًا، فلما قرب مني ثنى السنان وحسر لثامه، فإذا المتنبي وأنشدني:

نثرنا رءوسًا بالأحيدِب منهم   كما نُثرت فوق العروس الدراهم

ثم قال: كيف ترى هذا القول، أحسَن هو؟ فقلت له: ويحك قد قتلتني يا رجل.

قال ابن جني:

فحكيت أنا هذه الحكاية بمدينة السلام لأبي الطيب فعرفها وضحك لها، وذكر أبا علي من التقريظ والثناء بما يقال في مثله.

ويرى القارئ أن أبا الطيب لا يمزح إلا برمح.
ثم رأيُ أصدقائه المقرَّبين كابن جني، يشهد بأن الرجل كان صديقًا محمودًا.

(٦) انقباضه وتشاؤمه

وكان الشاعر العظيم حزين الطبع كثير التفكير في الدنيا وغيرها، فتراه ينطق بالكلمة الحزينة حيث ينتظر المقامُ غيرها أثناء مدح أو غزل.
يمدح سيف الدولة فيختم المدح بقوله:

ولو جاز الخلودُ خلدتَ فردًا   ولكن ليس للدنيا خليل

ويقول في آخر قصيدة أخرى سيفية:

فهنَّأك النصرَ معطيكه   وأرضاه سعيُك في الآجل
فذي الدار أخونُ من مومِس   وأخدعُ من كِفَّة الحابل
تَفانى الرجال على حبِّها   وما يحصلون على طائل

ويقول في القصيدة: «لياليَّ بعد الظاعنين شكول»:

وما عشتُ من بعد الأحبة سَلوة   ولكنني للنائبات حَمول
وإن رحيلًا واحدًا حال بيننا   وفي الموت من بعد الرحيل رحيل

وفي القصيدة: «ما لنا كلُّنا جوٍ يا رسول» التي أرسلها إلى سيف الدولة من العراق:

زوِّدينا من حسن وجهك ما دا   م فحسنُ الوجوه حالٌ تحول
وصلينا نصِلْك في هذه الد   نيا فإنَّ المُقام فيها قليل
من رآها بعينها شاقه القُطَّانُ   فيها كما تَشوق الحُمول

فانظر كيف غلبه الحزن والفكر في عاقبة الإنسان وهو يحاول النسيب.

ويقول في القصيدة العضدية: «أزائر يا خيال أم عائد»:

إذا خيالاته أطفْن بنا   أضحكه أنني لها حامد
لا أنكر الفضلَ ربما فعلتْ   ما لم يكن فاعلًا ولا واعد
ما تعرف العينُ فرق بينهما   كلٌّ خيالٌ وصاله نافد

فبينما يذكر خيال الحبيب غلب عليه الفكر في فناء الناس، فقال: إن الخيال كالحبيب: «كلٌّ خيالٌ وصاله نافد.»

فهذا جانب من أخلاق الرجل يتبينه المدقق في شعره.

(٧) وصفه بالبخل

ومن الأخلاق التي شاعت عن أبي الطيب البخل وقد رُويت في هذا حوادثُ مُثبتَة في اليتيمة والإيضاح والصبح المنبي:

قال الثعالبي: سمعت الخوارزمي يقول كان أبو الطيب المتنبي قاعدًا تحت قول الشاعر:

وإن أحق الناس بالبخل شاعر   يلوم على البخل الرجالَ ويبخل

وإنما أعرب عن عادته وطريقته في قوله:

بَليتُ بِلى الأطلال إن لم أقف بها وقوفَ شحيح ضاع في الترب خاتمه

فحضرت عنده يومًا بحلب وقد أحضر مالًا من صلات سيف الدولة، فصُبَّ بين يديه على حصير قد افترشه، ووُزن وأعيد في الكيس، وإذا بقطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال قد تخللت خَلَل الحصير، فأكب عليها بمجامعه يَنقُرها، ويعالج استنقاذها منه، ويشتغل بذلك عن جلسائه حتى توصل إلى إظهار بعضها فتمثل بقول قيس بن الخطيم:

تبدَّت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجبٌ منها وضنَّت بحاجب

ثم استخرجها وأمر بإعادتها إلى مكانها من الكيس، وقال: إنها تحضر المائدة.[1]

وخلاصة ما رواه صاحب الصبح أن سيف الدولة أتى ببدرة فشقَّها فقام أبو الفرج الببغاء وابن خالويه وأخذا منها، ولم يقُم أبو الطيب، فاغتاظ سيف الدولة ونثرها على الغلمان، فقام أبو الطيب يزاحمهم فغمزهم عليه فداسوه.

وأنَّ ابن العميد خالف أبا الطيب في سيفين أيهما أقطع، فاقترح أبو الطيب أن يجرَّب السيفان في قطْع الدنانير، وضَرب عشرين دينارًا فقطعها وقام يلتقطها، فقال ابن العميد: «ليلزم الشيخ مجلسَه، فإن أحد الخدم يلتقطها ويأتي بها إليك، فقال: بل صاحب الحاجة أولى.»

فأما قصة اليتيمة فليس فيها دليل بيِّن على البخل وقد يتشاغل الإنسان بمثل هذا رغبة في التشاغل، على أن الرجل جعلها مزاحًا حين قال: تبدت لنا كالشمس ... إلخ.

وقصة سيف الدولة بعيدة من كبرياء أبي الطيب، وما أحسبه قام لمزاحمة الغلمان ولكن سيف الدولة نثرها عنده، وأغرى غلمانه به، فإن صلحت القصة دليلًا على شيء فهي دليل على أنفة أبي الطيب من أن يقوم إلى سيف الدولة ليأخذ من البدرة التي شقها كما قام الببغاء وابن خالويه، وكيف يستكبر عن أن يقوم إلى المال ليأخذه من يد الأمير ولا يستكبر أن يلتقطه من الأرض ويزاحم فيه الغلمان.

[1] اليتيمة ج١، ص٨٤.

وقصة ابن العميد يمكن أن يقال فيها: إن أبا الطيب ما كان خائفًا من ضياع الدنانير في مجلس ابن العميد، وكان يستطيع أن يأمر بجمعها وهو قاعد، ويثق بتحصيلها، ولكنه كان مجلس رهان ولهو لا يلزم فيه التوقُّر.

ولعلَّ قصة الحصير وقصة ابن العميد تمثِّلان ما في خلق الرجل من التياسر وتجنُّب التكلف، كقصة الغسَّال التي تقدمت في أخبار محسَّد ابنه، ولست أدفع عن الرجل البخل ولكني أبيِّن مقدار دلالة هذه القصص.

قد تقدم قول الخوارزمي في بخل أبي الطيب، وقال ابن فُورَّجة: «ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه إلا بخله وشرهه على المال.»

ربما يكون شيوع الحديث عن بخله دليلًا عليه؛ ولكن ينبغي أن يُحسَب في هذا كلَف حسَّاد الرجل بالطعن عليه، ومبالغة الناس في مثل هذا؛ وتوهمهم أن الشعراء أغنياء بما ينالون من صلات، ومحاسبتهم إياهم على هذا الغنى محاسبةً يبالغون فيها مبالغتهم في تقدير الصلات التي ينالونها.

على أن أبا الطيب كان صريحًا في الإيصاء بتدبير المال وتوفيره؛ لأنه وسيلة المجد وعماده:

فلا ينحَلِل في المجد مالُك كلُّه   فينحلَّ مجدٌ كان بالمال عَقده
ودبِّره تدبيرَ الذي المجدُ كفُّه   إذا حارب الأعداء والمالُ زَنده

والحرص على المال وتدبيره ليس غريبًا من رجل كأبي الطيب طموح إلى السؤدد ليس له من وسيلة إليه إلا المال، وقد فسَّر ذلك حين سُئل عن بخله في قصَّة تشفع طرافتها لإثباتها هنا على طولها؛ وقد تقدمت الإشارة إليها في الكلام على ذهابه إلى بغداد في صباه. قال صاحب الصبح المنبي:

قال أبو البركات ابن أبي الفرج المعروف بابن زيد التكريتي الشاعر:

بلغني أنه قيل للمتنبي: قد شاع عنك من البخل في الآفاق ما قد صار سمَرًا بين الرفاق، وأنت تمدح في شعرك الكرم وأهله وتذمُّ البخل وأهله، ألستَ القائل:

ومن يُنفقِ الساعاتِ في جمع ماله مخافةَ فقرٍ فالذي فعل، الفقر

ومعلوم أن البخل قبيح، ومنك أقبح، فإنك تتعاطى كبر النفس وعلوَّ الهمة وطلبَ الملك، والبخل ينافي سائر ذلك، فقال: إن للبخل سببًا، وذلك أني أذكر أني وردت في صباي من الكوفة إلى بغداد، فأخذت خمسة دراهم بجانب منديلي وخرجت أمشي في أسواق بغداد، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة، فرأيت عنده خمسة من البطيخ باكورة، فاستحسنتها ونويت أن أشتريها بالدراهم التي معي، فتقدمت إليه وقلت: بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ؟ فقال بغير اكتراث: اذهب فليس هذا من أكلك، فتماسكت معه، وقلت: يا هذا دع ما يغيظ واقصِد الثمن، قال: ثمنها عشرة دراهم، فلشدة ما جبهني به ما استطعت أن أخاطبه في المساومة، فوقفت حائرًا ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل، وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهبًا إلى داره، فوثب إليه صاحب البطيخ من الدكان ودعا له، وقال: يا مولاي هذا بِطِّيخ باكورة، بإجازتك أحمله إلى البيت؟ فقال الشيخ: ويحك بكم هذا؟ قال: بخمسة دراهم، قال: بل بدرهمين، فباعه الخمسة بدرهمين، وحملها إلى داره، ودعا له وعاد إلى دكانه مسرورًا بما فعل.

فقلت: يا هذا ما رأيت أعجَبَ من جهلك، استَمتَ عليَّ في هذا البطيخ، وفعلت فِعلتك التي فعلت، وكنتُ قد أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم فبعتَه بدرهمين محمولًا، فقال: اسكت، هذا يملك مائة ألف دينار.

فعلمت أن الناس لا يكرمون أحدًا إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة ألف دينار، وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون: إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار.

إن لم تكن هذه القصة حقًّا، فهي تمثل ما كان في نفس أبي الطيب من التوسل إلى الجاه والسؤدد بجمع المال إذ لم يكن له وسيلة أخرى.

ذلك إجمال القول في أخلاق أبي الطيب كما نعرف من سيرته وشعره، ومن روايات شتى في كتب الأدب.

وينبغي ألا يعوَّل على غير هذا من أقوال لا ينصرها دليل، ومطاعن أشاعها الحسَّاد وخذلها الحق.

(٨) اتهامه بالغدر والكنود

يقول بعض الكاتبين عن أبي الطيب: إنه لا خُلق له، فهو منافق متقلب تقلُّب الأحوال كنود، يمدح الرجل فيُفضِّله على الناس طُرًّا، ثم يتركه إلى غيره فينسى ما قال من قبل ويرفعه فوق البشر، ثم يتركه إلى ثالث وهلم جرًّا، وهو قد صحب سيف الدولة ثمانيَ حِجج فأدرَّ عليه الرزق، ونبَّه من ذكره، فلم يمنعه ذلك أن يهجرَه مغاضبًا ويذهب إلى كافور فينظم في مدحه روائع القصائد، ويعرِّض بصديقه القديم بل يهجوه في مثل قوله:

رأيتكم لا يصونُ العرضَ جارُكم ولا يدرُّ على مَرعاكم اللبن

وقد أقام في كَنَف كافور أربع سنين يمدحه في الحين بعد الحين، ثم سخط عليه ففارقه مُراغمًا وصبَّ عليه لعنات محقت مدائحه كلها.

كذلك يقول القائلون، ومنهم من يُفيض على الشاعر من السب والهجاء ما يُذكرنا بأهاجي كافور.

وجوابي عن الشق الأول أن ذنب أبي الطيب في هذا أنه كان من شعراء القرن الرابع فسار على سنن سلفه ومعاصريه من الشعراء، وكان عُرف الناس يبيح للشاعر أن يكسب المال بشعره ولا يرى في هذا مهانة، وإذا تصدَّى الشاعر للمدح، فإنما هي صناعة قِوامها خَلق المعاني وتصويرُها، ورفعُ قدر الممدوح بها، وإبعاد صيته فيها، ولم يكن هذا المدح كله حقًّا فيجب على الشاعر أن يلائم بين ما قال أمس وما يقول اليوم، فإذا أردنا أن نقدر أخلاق الرجل فعلينا أن نزنها بميزان القرن الذي عاش فيه.

وأما سيرة الشاعر مع سيف الدولة فالرجل كان أعرف بصاحبه، وقد احتمل هنات ما زالت تتوالى حتى ضاق بها ذرعه، فأنذر صديقه وحذَّره فراقه، فلم يحذر واستمرَّ يستمع للمفسدين حينًا بعد حين.

وقد فارقه مغاضبًا وعتَب عليه أحيانًا فعرَّض به، وذكر أياديه أحيانًا فمدحه وأعرب عن ندمه لمفارقته في مدائح كافور، وكان تعريضه وتصريحه في بني حمدان

أشبهَ بقول الصديق الغاضب العاتب، الذي يجزع لفراق صديقه ويحاول أن يسوِّغ هذا الفراق.

وسيف الدولة نفسه لم يرَ في فعل أبي الطيب ما يصده عن مكاتبته والإهداء إليه ودعوته إلى جانبه وترغيبه في معاودة صحبته، وأبو الطيب هو الذي استمر عاتبًا على صديقه يؤاخذه باستماعه لوشايات حُسَّاده، ويُعلمه أنه خائف أن تعود الوشايات سيرتها الأولى، وقد أسلفت بيان هذا في الكلام على الشاعر والأمير في الفصل السادس عشر.

وأما كافور فقد قصده الرجل تاركًا صديقًا جذَب بضبعه وأسبغ عليه برَّه، وحسادًا ينالون منه ويرمونه بالغدر والكفران، منطويًا على أمل عظيم، راجيًا أن ينال المجد الذي طمح إليه، وأن يبلغ في مصر ما ينفي عنه قول أعدائه وطعن حساده، فأدناه كافور من أمله بمواعيده ثم مطله وسقاه الخيبة جرعة بعد جرعة، ثم اضطره إلى الفرار خائبًا خائفًا بعد انتظار سنوات أربع، فمضى وكأنه يسمع قهقهة سيف الدولة ومن حوله، ويحس شماته أعدائه أنَّى توجه.

وقد أعرب عما في نفسه من سيف الدولة وكافور ومن الملوك عامة في قوله لابن العميد: إني ملقًّى من هؤلاء الملوك أقصد الواحد بعد الواحد وأملِّكهم شيئًا يبقى ببقاء النيِّرين، ويعطونني عرضًا فانيًا.[٢]

لا أنكر أن الشاعر قسا على كافور واشتد في عتبه على بني حمدان، فإن يكن أبو الطيب ملومًا على شيء فعلى غلوِّه لا على أنه فارق سيف الدولة أو هجا كافورًا.

وحسب أبي الطيب أنه لم يهج أحدًا قط بأنه حرمه مالًا أو أكدى في عطاء وقد أعطاه أحد الممدوحين دينارًا، وأعطاه آخر دراهم قليلة، كما تقدم، فما هجا أحدًا بمنع أو تقتير، وإنما هجا من أراد الغض منه أو سامه هوانًا، هجا من أخذ عليه طريقه وحاول أن يقسره على أن يمدحه، وهو ابن كيغلغ، ومن ملأ نفسه أملًا بمواعيده وكذبه ثم مطله وأخلفه وهو كافور، وعرَّض بصديق رفع قدرَه ثم تجنى عليه يبتغي أن ينال ثمن ما أعطاه، من أنفته وإبائه، وهو سيف الدولة، ثم هجا ضبة بن يزيد استجابة

[٢] انظر [الفصل السابع عشر من الباب الثاني].

لأصدقائه وردًّا لشتمه، ولست أدفع عن الشاعر اللوم في هذا الهجاء ولكن أقول: إنه لم يهج من أجل المال.[٣]

(٩) قول معاصريه في أخلاقه

وأختم هذا الفصل بإثبات آراء بعض معاصري أبي الطيب إذ كانوا أعرف به وأبصر بزمانهم، وأقدر على تقدير الأخلاق فيه.

قال ابن فُورَّجة:

> كان المتنبي داهية، مرَّ اللسان، شجاعًا، حافظًا للآداب، عارفًا بأخلاق الملوك، ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه إلا بخله وشرهه على المال.

وقال صاحب الإيضاح:

> وكان المتنبي مرَّ النفس، صعب الشكيمة حادًّا مجدًّا.

وقال أبو الفتح بن جني:

> ولقد كان من الجد فيما يعانيه، ولزوم أهل العلم فيما يقوله ويحكيه، على أسدِّ وتيرة، وأحسن سيرة ... وحقًّا أقول لقد شاهدته على خلق قلما تكامل إلَّا لعالم موفق.[٤]

وأخيرًا أقول: إن لم يكن أبو الطيب عنى نفسه بهذه الأبيات فهي المثل الذي يصبو إليه:

وأهوى من الفتيان كلَّ سَمَيدع ... نجيب كصدر السمهريِّ المقوَّم
خَطت تحته العيسُ الفلاةَ وخالطت ... به الخيلُ كَبَّاتِ الخميس العرمرم
ولا عفَّةٌ في سيفه وسنانه ... ولكنها في الكف والفرج والفم

[٣] الصبح ص٥٠.
[٤] مقدمة شرح ابن جني.

الفصل الثاني والعشرون

البداوة في طباع أبي الطيب وشعره[1]

في خلق أبي الطيب قوة وخشونة تميلان به إلى كل قوي وكل خشن، وتعدلان عن كل ضعيف وكل لين، وفي خلقه صراحة تحبب إليه كل صريح من القول والفعل والرأي، وتنفره من كل مموه مزخرف، وقد لاءمت هذه الأخلاق التبدِّي، وزادها التبدي تمكنًا فيه، وظهر أثر هذا في فعله وقوله.

وسأمر بسيرة أبي الطيب سريعًا منبهًا إلى الحادثات والأقوال الدالة على حبِّه البداوة والمبينة عن تمكن البداوة في طبعه وأثرها في نفسه.

١

عاش الشاعر في البادية حقبة وهو صبي، روى الخطيب البغدادي عن محمد بن يحيى العلوي الكوفي أن أبا الطيب صحب الأعراب في البادية سنين ثم رجع إلى الكوفة بدويًّا قحًّا، وعاش في الشام بين البدو والحضر، وبعض ممدوحيه هناك من رؤساء البادية مثل سعيد بن عبد الله الكلابي، وشجاع بن محمد الطائي، وهو يقول في الشام:

أوانا في بيوت البدو رحلي وآونةً على قَتد البعير
أعرِّض للرماح السمر نحري وأنصِب حُرَّ وجهي للهجير

[1] مقال ألقيته في مهرجان أبي الطيب بدمشق ثم ألحقته بالكتاب.

وأسري في ظلام الليل وحدي كأني منه في قمر منير

ويقول:

ومُدقعين بسُبروت صحبتُهم عارين من حُلل كاسين من دَرن
خُرَّاب بادية غرثَى بطونهم مَكْن الضِّباب لهم زاد بلا ثمن
يستخبرون فلا أعطيهم خبري وما يطيش لهم سهم من الظِّنن

٢

وفي مصر حنَّ إلى البادية وفضَّل البداوة على الحضارة، وتغزل بالبدويات في القصيدة التي مطلعها:

مَن الجآذر في زيِّ الأعاريب حمرُ الحلى والمطايا والجلابيب؟

يقول فيها:

ما أوجه الحضر المستحسناتُ به كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوبٌ بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الآرام ناظرةً وغيرَ ناظرة في الحسن والطيب
أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا خرجن من الحمام مائلة أوراكهنَّ صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموَّهة تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبت عن شَعرٍ في الرأس مكذوب

وكانت له في مصر مع بعض رؤساء القبائل مودة، فلما أزمع الرحيل مغاضبًا كافورًا استعان بأحد أصدقائه عبد العزيز بن يوسف ببلبيس، وسأله دليلًا فأنفذه إليه، وقال في هذا:

جزى عربًا أمست ببُلبَيس ربُّها   بمسعاتها تقرِر بذاك عيونها
كراكر من قيس بن عيلان ساهرًا   جفونُ ظباها للعلى وجفونها
وخَصَّ به عبد العزيز بن يوسف   فما هو إلا غيثها ومَعينها
فتى زان في عيني أقصى قبيلة   وكم من فتى في حِلَّة لا يزينها

وكان سيره من الفسطاط إلى الكوفة برهانًا بينًا على ما تمكن في نفسه من أخلاق البادية وعاداتها، ودليلًا على خبرته بالسير في البيد، فقد سلك طريقًا أُنفًا لا تسلكه القوافل، ذكر في قصيدته التي وصف بها سفره اثنين وعشرين موضعًا ليس على السبل المطروقة منها إلَّا اثنان أو ثلاثة، فما سلك طريق الحاج المصري إلى الحجاز، ولا طريق دمشق إلى الكوفة، ولا طريق الفرات، بل سار على أحياء البادية والمفاوز المجاهيل والمياه الأواجن حتى بلغ غايته.

وكانت له في مسيره وقائع تمثله بدَويًّا قحًّا خبيرًا بقبائل البادية وعاداتها، مزودًا بجرأة الأعراب وإقدامهم.

٣

لما بلغ نخلًا في سيناء ألفى خيلًا صادرة عن الماء، فأشفق أن يكونوا عيونًا عليه أو عدوًّا له فقاتلهم وغلبهم، ولما قرب من النِّقاب رأى رجلين فطردهما وأخذهما فأخبراه أنهما رائدان من بني سليم فخلَّاهما، وسار وهما معه حتى توسط بيوت بني سُليم آخر الليل فضرب له ملاعب بن أبي النجم خيمة بيضاء وذبح له، وغدا فسار إلى النقع فنزل ببادية من مَعن وسُنْبُس فذبح له عفيف المَعني غنمًا وأكرمه، وغدا من عنده وبين يديه لصان من جُذام يدلَّانه. ولما بلغ حِسْمَى في شمال الحجاز وجد بني فزارة شاتين بها، فنزل بقوم من عَدي فزارة فيهم أولاد لاحق بن مخلب، وكان بينه وبين أمير فزارة حسان بن حكمة مودة، وأراد ألَّا يُعلم ما بينه وبينهم من ودٍّ فنزل بجار لهم من طيئ، واستطاب أبو الطيب حِسْمَى فأقام بها شهرًا، وما أحبَّ المُقام بالبادية إليه! ثم استراب ببعض عبيده وظن أنهم يسرقون أمتعته ويريدون سرقة سيف ثمين كان معه، أغراهم على هذا وردان بن ربيعة، فأرسل إلى فتى من بني مازن اسمه فليتة بن محمد وكان قد عرفه من قبل، فلما جاءه المازني تقدم شاعرنا فشد أحماله، وعبيدُه نيام، ثم أيقظهم وطرحهم على الإبل وسار والقوم لا يشعرون، وأخذ بعض العبيد السيف فدفعه وفرسه

إلى عبد آخر، وجاء إلى فرس أبي الطيب ليأخذه فانتبه الشاعر البدوي الشجاع، فقال العبد مخادعًا: أخذ الغلام فرسي، وعدا إلى فرس سيِّده ليركبه، فالتقى هو وأبو الطيب عند الفرس، وسلَّ العبد السيف فضرب الرسَن فضرب أبو الطيب وجهه فقتله، وأرسل رجلًا من بني خفاجة وآخر من بني مازن ليدركا العبد الذي أخذ السيف فلم يقدرا عليه.

وفي قتل العبد يقول الشاعر:

أعددت للغادرين أسيافا　　أجدع منهم بهنَّ آنافا
لا رحم الله أرؤسًا لهم　　أطَرْن من هامهنَّ أقحافا

إلى قوله:

إذا امرؤ راعني بغَدرته　　أوردته الغاية التي خافا

وأراد أبو الطيب أن يسلك إلى مكان اسمه البياض، فأرسل فُليتة إلى الأعراب الذين في طريقه، فعميت عليه أنباؤهم، وخشي أن يكون له على الطريق رصَد.

فعدل إلى دومة الجندل وواصل سيره حتى بلغ الكوفة في شهر ربيع الأول سنة ٣٥١ بعد ثلاثة أشهر من خروجه من الفسطاط، فهل يستطيع أن يسير هذا المسير ويفعل هذه الأفعال إلا بدوي جريء خبير بالبوادي؟ أليس في هذا تصديق قوله:

الخيل والليل والبيداء تعرفني　　والطعن والضرب والقرطاس والقلم

ألا يحق له أن يفخر به فيقول:

فلما أنخنا ركزنا الرما　　ح بين مكارمنا والعُلى
وبتنا نقبل أسيافنا　　ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعراق　　ومن بالعواصم أني الفتى
وأني وفيت وأني أبيت　　وأني عتوت على من عتا

وفي هذه القصيدة روح البداوة وألفاظها، انظر قوله:

وقلنا لها أين أرض العراق　　فقالت ونحن بتِربان: ها

واسأل اليوم بدويًّا عن مكان قريب يقل لك: ها.

٤

وفي قصة هجاء ضبة بن يزيد العيني دليل آخر على تبديه، فقد اجتاز بالطَّفِّ فنزل بأصدقاء له، وساروا إلى ضبة وسألوه أن يصحبهم فلم يسعه إلَّا السير معهم كما يقول الشاعر في بعض الروايات، فسيرُ الشاعر مع أصدقائه إلى قتال ضبة أو إرهابه دليل على ما تمكن من نفسه من عادات البادية.

٥

ولما رحل إلى فارس افتقد الوجه العربي واليد العربية واللسان العربي، وهو يصف مغاني شِعب بَوَّان:

ولكنَّ الفتى العربي فيها　　غريب الوجه واليد واللسان
مَلاعب جِنَّة لو سار فيها　　سليمانٌ لسار بترجمان

وافتقد عرب دمشق الذين كانوا يكرمون مثواه فقال:

ولو كانت دمشق ثنى عناني　　لبيق الثَّرد صيني الجفان
تحل به على قلب شجاع　　وترحل منه عن قلب جبان
منازل لم يزل منها خيال　　يشيِّعني إلى النَّوبندجان

وذكره الثرد والنَّار يدل على أنه يريد بادية دمشق لا حاضرتها، وقال في أول قصيدة مدح بها عضد الدولة:

أحب حمصًا إلى خُناصرة　　وكل نفس تحب محياها
حيث التقى خدها وتفاح　　لبنان وثغري على محيَّاها
وصِفت فيها مصيف بادية　　شتوت بالصَّحصَحان مشتاها
إن أعشبت روضة رعيناها　　أو ذكرت حِلَّة غزوناها
أو عرضت عانةٌ مقَزَّعة　　صدنا بأخرى الجياد أولاها
أو عبرت هَجمة بنا تُركت　　تكوس بين الشروب عَقراها

فهذه عيشة أهل البادية وعاداتهم يحن إليها أبو الطيب وهو يمدح: ملكًا في بلاد الفرس، ورجع إلى التغزل بالبدويات فقال في القصيدة التي مطلعها:

اثِلث فإنا أيها الطلل　　نبكي وتُرزِم تحتنا الإبل

* * *

الحسن يرحل كلما رحلوا　　معهم وينزل كلما نزلوا
في مقلَتي رشأ تديرهما　　بدَوية فتنت بها الحِلل
تشكو المطاعمُ طول هجرتها　　وصدودَها، ومن الذي تصل؟
ما أسأرتْ في القعب من لبن　　تركته وهو المسك والعسل

وقصة قتله برهان آخر على ما ندعي، فقد حذَّره أبو نصر الجَبلي، وأشار عليه أن يستصحب خفراء، فأبى أن يسير في خفارة.

٦

وشعر أبي الطيب تتجلى فيه قوة البداوة وعزتها، ومن آثار البداوة فيه تهاونه في خطاب الممدوحين وخروجه عن الإلف أحيانًا، ولذلك أخذ عليه النقاد مآخذ لا يتسع

المقام لذكرها، ومن آثارها الكلف بالحرب وآلاتها والخيل والسفر، وشعره مليء بهذا، ومن ذلك وصف الحبيبة بالمنعة في مثل قوله:

حبيب كأن الحسن كان يحبه — فآثره أو جار في الحين قاسمه
تحول رماح الخط دون سبائه — وتُسبَى له من كل حيٍّ كرائمه
ويُضحي غبارُ الخيل أدنى سُتوره — وآخرها نشر الكباء الملازمه

وقوله:

وما شرقي بالماء إلَّا تذكرًا — لماء به أهل الحبيب نُزول
يحرمه لمع الأسنة فوقه — فليس لظمآنٍ إليه سبيل

وقوله:

متى تزر قوم من تهوى زيارتها — لا يُتحفوك بغير البِيض والأسل

وقوله:

سوائر ربما سارت هوادجها — منيعة بين مطعون ومضروب
وربما وخَدت أيدي المطي بها — على نجيع من الفرسان مصبوب

ومن أثر البداوة استعمال بعض الألفاظ الغريبة أحيانًا بما ألف من خطاب الأعراب والأخذ عنهم، وقد رأيته في كثير من تعليقاته على ديوانه يحتج بما سمع عنهم، وأكتفي هنا بمثال واحد، قال في قصيدته يعزي بها عضد الدولة:

مثلك يَثني الحُزن عن صوبه — ويسترد الدمع من غربه
إيما لإبقاءٍ على فضله — إيما لتسليم إلى ربِّه

ثم أتى بشواهد على وضع العرب إيما مكان إما، إلى أن قال: وقد ظلع فرس لي فقال بعض أهل البادية من خفاجة، وهو من أفصح الناس: إيما نسره مفلوق، وإيما موهوص.

٧

ذلكم إجمال الكلام في بداوة أبي الطيب، ولست أقول: إن البداوة أنتجت هذه النتائج كلَّها في أخلاقه وشعره، ولكني أقول: إن بين طباعه وشعره وبين البداوة صلة قويَّة: غرائز في الشاعر حبَّبت إليه البداوة وما يتصل بها، وبداوة وكَّدت هذه الغرائز في نفسه، وبهذه الأخلاق الحرة والطِّباع القوية والشجاعة والإقدام كان أبو الطيب أقرب إلى الطبع العربي من غيره. ولو أن عمرو بن كلثوم وعنترة العبسي والحارث بن حِلِّزة عاشوا في القرن الرابع الهجري حيث عاش أبو الطيب المتنبي لأشبهوه في كثير من قوله وفعله.

الباب الثالث

علمه باللغة والأدب وغيرهما

الفصل الأول

علمه باللغة والأدب

يعرف جمهور المتأدبين أبا الطيب شاعرًا واسع المعرفة باللغة، ولكنهم لا يعرفونه إمامًا من أئمة اللغة في القرن الرابع، كما يتبين فيما يلي:

قدمت في الكلام على نشأة أبي الطيب أنه درس اللغة والأدب، وأثبتُّ رواية تتضمن أنه لقي جماعة من كبار الأدباء في عصره، ولكن هذه الرواية على ما أظهرتُه من الوهن في بعض أخبارها لم تبين كم طلب اللغة والأدب على هؤلاء الشيوخ ولا كيف طلب، وقد بينت آنفًا أن رحيل الشاعر إلى الشام كان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وهو في سن الثامنة عشرة.

وما رَوَى لنا أنه طلب الأدب على أحد في الشام إلا قولُ الثعالبي: إن أباه رحل به إلى الشام، فلم يزل يردده في مكاتبها إلخ؛[1] وجائز أن يكون الشاب المتوقد ذكاء قد درس الأدب واللغة على بعض أدباء الشام أيضًا.

وقدَّمت كذلك قول الخطيب في تاريخ بغداد: «وطلب الأدب وعلم العربية ونظر في أيام الناس (أي: التاريخ).»

والذي لا ريب فيه أن أبا الطيب بلغ من العلم باللغة وغريبها وشواهدها، ولقن عن أهل البادية منها، ما لا نعلمه لشاعر آخر من شعرائنا، وقد بلغ في هذا أن عُدَّ في عصره من علماء اللغة وإن غلب الشعر عليه.

[1] انظر [الفصل الثاني من الباب الأول].

وبرهان هذه الدعوى على هذا النسق:

(١) رويت لنا حوادث وأقوال متفرقة تبين عن اشتهاره بمعرفة اللغة، وتعرب عن رأي معاصريه فيه:

قال ابن الأنباري: «ويحكى أن أبا الطيب اجتمع هو وأبو علي الفارسي، فقال له أبو علي: كم جاء من الجمع على وزن فِعلى، فقال: حِجْلَى وظِرْبَى جمع حَجَل وظَرِبان، قال أبو علي: فسهرت تلك الليلة ألتمس لهما ثالثًا، فلم أجد، وقال في حقه: ما رأيت رجلًا في معناه مثله.»

وهذه الجملة الأخيرة ذكرها ابن جني في مقدمة شرحه الديوان، وقال: «ولو لم يكن له من الفضيلة إلا قول أبي علي هذا فيه لكفاه؛ لأن أبا علي، على جلالة قدره في العلم ونباهة محله واقتدائه بسنة ذوي الفضل من قبله، لم يكن ليطلق عليه هذا القول إلا وهو مستحق له عنده.»

فسؤال أبي علي أبا الطيب هذا السؤال دليل على أنه عُرف بسعة علمه باللغة، ثم شهادته له دليل آخر.

ولما وقع الجدال بين أبي الطيب اللغوي وابن خَالويه في اللغة بحضرة سيف الدولة قال الأمير: ألا تتكلم يا أبا الطيب؟ فتكلم ونصر أبا الطيب اللغوي على ابن خالويه،[٢] فسؤال سيف الدولة أبا الطيب أن يتكلم في أمر يتجادل فيه اثنان من اللغويين دليل على الاعتداد بعلمه ورأيه في اللغة.

ولما دخل على الوزير المهلبي في بغداد أنشد بعض الحاضرين وفيهم أبو الفرج الأصفهاني هذا البيت:

سقى الله أمواها عرفت مكانها   جُرامًا ومَلكومًا وبذَّر فالغَمرا

فقال أبو الطيب: هو جُرابًا، وهذه أمكنة قتلتها علمًا وإنما الخطأ وقع من النَّقلة.[٣]

وقد ادَّعى الحاتمي أنه ناظر أبا الطيب ببغداد، فلم يقتصر على مناظرته في الشعر، بل ناظره في اللغة أيضًا، وادَّعى أن أبا الطيب قال له: اللغة مسلمة لك؛ فقال: وكيف

[٢] انظر [الفصل التاسع من الباب الثاني].

[٣] انظر [الفصل الخامس عشر من الباب الثاني].

تسلمها وأنت أبو عُذْرتها وأولى الناس بها وأعرفهم باشتقاقها والكلام على أفانينها، وما أحد أولى بأن يسأل عن غريبها منك.[٤]

وفي هذا برهان على اشتهار أبي الطيب بمعرفة اللغة ولو كان كلام الحاتمي تهكمًا وسخرية أو كانت قصته كذبًا.

ولما نزل عند ابن العميد في أرجان قرأ عليه كتابًا جمعه في اللغة، قال في الإيضاح: «وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه، ويتعجب من حفظه وغزارة علمه.»[٥]

وقال الخالديان: «كان أبو الطيب المتنبي كثير الرواية، جيد النقد ... وكان من المكثرين في نقل اللغة والمطلعين على غريبها ولا يُسأل عن شيء إلا استشهد بكلام العرب من النظم والنثر.» وقال صاحب الإيضاح: «وجملة القول فيه أنه من حفاظ اللغة ورواة الشعر.»[٦]

وقال ابن جني: «ولقد كان من الجد فيما يعانيه، ولزوم أهل العلم فيما يقوله ويحكيه على أَسَدِّ وتيرة وأحسن سيرة.»

وقد أُثِر لنا بعض كلامه في اللغة، وذلك قسمان:

مجادلته ابن جني في مسائل عرضت أثناء قراءة الديوان عليه، وحسبك بمن يناظر في اللغة والصرف ابن جني إمام أهل العربية في التصريف، ثم يشهد له ابن جني الشهادة السالفة، وعندنا من هذه المجادلات أمثلة.

والثاني ما أملاه أبو الطيب نفسُه شرحًا لبعض شعره، وقد عثرت على نسختين من الديوان فيهما كثير من هذا الشرح، وفيه من التبيين وإيراد الشواهد ونسبة الأقوال إلى أصحابها ما يُشعر القارئ أنه يقرأ لأحد أئمة اللغة.

[٤] معجم الأدباء لياقوت: الحاتمي، والصبح ص٢٩.

[٥] الخزانة ج١ ص٣٨٦.

[٦] الصبح ص٨٠ والخزانة ص٣٨٩.

وأنقل هنا مثالين من إملائه على بعض أبيات ديوانه تبيانًا للقارئ:
جاء في شرح البيت:

أحاد أم سُداس في أُحاد ليـيلتنا المنوطة بالتناد

«قال أبو الطيب: يقال: أحاد وثناء وثلاث ورباع إلى عشار في المؤنث والمذكر غير مصروف، والفرَّاء يصرفها إذا جعلها نكرات، وكل ما لا يَنصرف من الأسماء يُصرف في الشعر؛ لأن الصرف الأصل، وهذا الذي يُنسَب إليه في العدد، فيقال: ثُنائي وثلاثي ورباعي وخماسي إلى عشاري، قال أبو النجم:

فوق الخماسي قليلا يفضُله أدرك عقلًا والرهانُ عمله

وأنشد:

ضربت خُماسَ ضربة عبشمي أدار سداسَ ألَّا يستقيما

وللكميت:

فلم يستريثوك حتى رميت فوق الرجال خِصالا عُشارا

وللهذلي:

يصيَّد أُحدان الرجال وإن يجد ثُناءهم يفرج بهم ثم يزدر

وأنشدني:

أحمَّ الله ذلك من لقاء أحاد أحاد في شهر حلال

وحكى ابن السكيت عن أبي عمرو: ادخلوا مَوحد مَوحد ومَثنى مثنى، ومثلث مثلث، ومربع مربع، وكذلك إلى العشرة، وكذلك ادخلوا أحاد أحاد، وثُناء ثناء وثُلاث ثلاث ورباع رباع إلى العشرة، قال علي (يعني ابن حمزة راوية أبي الطيب): وقال

أبو الطيب: وكان أبو حاتم تبع أبا عبيدة في قوله في كتاب المذكر والمؤنث: «ورباع رباع، ولا نعلمهم قالوا فوق ذلك»، ثم رجع عنه فقال في كتاب الإبل: «ورباع إلى العشرة.»

قال أبو الطيب: وأما لييلتنا فتصغير تعظيم كقول لبيد:

وكل أناس سوف تدخل بينهم　　　دُويهية تصفرُّ منها الأنامل

الرواية التي أعرفها خويخية، وكذا أنشده المبرد واليزيدي وثعلب، وأنشدنيه المتنبي دويهية (هذا من قول علي بن حمزة) وقال الأنصاري: أنا جُذَيلها المحكَّك، وعُذَيقها المرجَّب. قال: وتصغير الأسماء على هذا المعنى كقولهم: كليب وعمير.

قال: وما يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه: أنا هُوَيٌّ ومعي سلاحي فصغَّره.

والتنادي أراد التنادي بالرحيل.» ا.هـ.

وفي شرح البيت:

إذا عرضت حاجٌ إليه فنفسُه　　　إلى نفسه فيها شفيع مشفَّع

قال أبو الطيب: يقال: حاجة وحاج وحاجات وحِوَج، وعلى غير القياس حوائج، وتقول العرب في نفسي منه حوجاء أي حاجة، وأنشد:

ألا ليت سُوقًا بالكُناسة لم يكن　　　إليها لحاج المسلمين طريق

وقال آخر:

لعمري لقد لبَّثتني عن صحابتي　　　وعن حِوَج قِضَّاؤها من شفائيا

وأنشد لامرئ القيس:

لنقضي حاجات الفؤاد المعذب

وأنشد الفراء:

نهار المرء أمثلُ حين يَقضي حوائـجَه من الليل الطويل

وزعم الأصمعي أن حوائج مولَّدة، قال أبو الطيب: وهي كثيرة على ألسن العرب خرجَتْ عن القياس، قال البصري (علي بن حمزة) وأنشدني أبو الطيب للشماخ:

تَقطَّع بيننا الحاجات إلا حوائجَ يعتسفن مع الجريِّ

قال حوائج جمع حائجة على القياس وهو صحيح، وقد ذكر ذلك ابن دريد، فقال: حاجة وحائجة وحوجاء. ا.هـ.

ذلكم مثال مما أملاه الشاعر على رواة ديوانه، وإني لراج أن ييسر الله لي عما قليل طبع الديوان مجردًا من كل شرح إلا أمالي الشاعر والمقدمات التاريخية التي تُصدَّر بها بعض القصائد، وأحسبها من إملاء الشاعر كذلك.[٧]

وقد قرئ على أبي الطيب في مصر كتاب المقصور والممدود لأبي العباس بن ولَّاد فصححه وأخذ على مؤلفه غلطات، وقد عثرت على رسالة اسمها «التنبيهات على مقصور ابن ولاد النحوي» وأحسبها لعلي بن حمزة البصري جاء في مقدمتها:

> قال أبو القاسم: وكان هذا الكتاب أعني المقصور والممدود، قرئ على أبي الطيب بمصر سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، فردَّ فيه على ابن ولاد أغلاطًا وبيَّنها واستشهد عند بعضها، فجمع ردَّ أبي الطيب وشواهدَه بعضُ المصريين وادَّعاه لنفسه بعد خروج أبي الطيب من مصر، وأضاف إليها أشياء من عنده غلِط فيها هو، وأشياء أصاب فيها، وكان هذا المدعي سمع هذا الكتاب وغيرَه من ابن ولاد، وعنه سمعته، وهذا المدعي يعرف بأبي الحسين المهلبي، فإذا مرَّ من تلك الأغلاط والشواهد شيء في كتابنا عزوناه إلى مستحقه، وبيناه إن شاء الله.

[٧] قد يسر له هذا من بعد فأخرجت الديوان مصححًا على أقدم النسخ وأصحها وعليه ما أثر من شرح عن أبي الطيب، ونشرته لجنة التأليف في العيد الألفي للشاعر.

فأما المهلبي هذا فهو أبو الحسن علي بن أحمد المهلبي اللغوي المتوفى بمصر سنة ٣٨٥. وفي أثناء ترجمته يقول ياقوت: «وذكر علي بن حمزة البصري النحوي في كتاب الرد على ابن ولاد في المقصور والممدود، أن أبا (أبي)[٨] الحسن المهلبي كان لقيطًا، وكان له اختصاص بالمتلقب بالمعز والعزيز المستولين على الديار المصرية ومن جلسائهما الخواص، وأدرك دولة كافور الإخشيدي، وله مع أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي قصة.»

وعلي بن حمزة هذا راوية أبي الطيب، وكتابه في الردِّ على ابن ولَّاد قد تضمن ردُّ أبي الطيب، والذي رواه ياقوت عن علي بن حمزة في الطعن على المهلبي يوافق مطاعن هذه الرسالة التي نقلت منها النبذ الآتية، فهذه الرسالة تشبه أن تكون لعلي بن حمزة نفسه، ولعلي بن حمزة سبعة كتب أخرى في الرد على اللغويين؛ يقول ياقوت: رأيتها كلها في مصر.[٩]

والقصة التي وقعت بين المهلبي هذا وأبي الطيب في مصر هي كما رويت عن المهلبي نفسه:

وقع بيني وبين المتنبي في قول العَدواني:

يا عمرو إلا تدَعْ شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وذلك أن المتنبي قال: إن الناس يغلطون في هذا البيت، والصواب اشقوني من شقات رأسه بالمشقاة، وهو المُشط.

قال المهلبي: فقلت له: أخطأت في وجوه: أحدها أنه لم يُرو كذلك والآخر أنه يقال: شقأت بالهمزة، وأيضًا فإني أظنك لا تعرف الخبر فيه، وما كانت العرب تقول في الهامة: إنها إذا لم يُثأر بصاحبها لا تزال تقول: اسقوني. فإذا ثأروا به سكن.[١٠]

[٨] يؤخذ من الكلام الآتي عن المهلبي أن الذي نبز بأنه لقيط أبوه؛ لهذا زدت كلمة أبي في رواية ياقوت.

[٩] معجم الأدباء ج٥، ص٢٠٣. ط بيروت.

[١٠] معجم الأدباء: علي بن أحمد المهلبي.

هذه رواية المهلبي، وليس يعنينا أن نناقشها هنا.

وقد قرأتُ كتاب التنبيهات على مقصور ابن ولاد الذي ذكرته آنفًا، وهو كتاب صغير، فجمعت ما رواه المؤلف عن أبي الطيب في الرد على ابن ولاد وأثبتُّه هنا:

وقال ابن ولاد في باب الشين: وذكر عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر أنهما قالا: الشَذو لون المسك، قال الشاعر:

إن لك الفضلَ على صُحبتي والمسكُ قد يستصحب الرامكا
حتى يعود الشذو من لونه أسودَ مضنونًا به حالكا

وهذا ما أخذه عليه المتنبي قبلنا فقال: هو الشِّذو. وقد أصاب المتنبي وغلط ابن ولاد في فتحه.

وقال ابن ولاد في هذا الباب (باب الطاء): والطُّرقي في النسب من قولهم الطُّرقي والقُعدي فالطُّرقي أبعدهما والقُعدي أدناهما نسبًا.

وهذا ما أخذه عليه المتنبي قبلنا فقال: الصواب الطرفي بالفاء. وقال ابن الأعرابي يقال فلان أقعد من فلان؛ أي: أقل آباء، وأطرف من فلان؛ أي: أكثر آباء. وهو مأخوذ من الطرف وهو البعد. وقال الأصمعي: يقال فلان بيِّن الطرافة إذا كان كثير الآباء إلى الجدِّ الأكبر. وهو عندهم مدح كما قال الشاعر:

طرِفون لا يرثون سهم القُعدُد[11]

وهذا الذي حكاه المتنبي مشهور معروف من قول ابن الأعرابي والأصمعي (وهو) الصحيح، وقد ادعى هذا الرد ابن الملتقط (يريد أبا الحسن المهلبي) وكذب في ادعائه، وهو من رد المتنبي.

وقال ابن ولاد في هذا الباب (باب الغين) غضبى مائة من الإبل معروفة كقولك هُنيدة، وأنشد:

[11] هو لأبي وجزة. وصدره: أمرون (بكسر الميم) ولَّادون كل سميدع.

ومستخلف من بعد غضبَى صَريمة   فـأحـرِ بـه لـطـول فـقـر وأحـرِيـا

وهذا ما رواه المتنبي، فادعاه ابن المنبوز (يريد المهلبي أيضًا) فقال: الذي رواه أبو العباس (ابن ولاد) غضنى بالنون، وهو خطأ إنما هو غضبَى بالباء، وهذا صحيح. ا.هـ.

ذلكم أبو الطيب في علمه باللغة وشواهدها ونحوها وصرفها، ومن أجل هذا ترجم له ابن الأنباري في كتابه «نزهة الألباء في طبقات الأدباء» الذي ترجم فيه لرجال الأدب واللغة والنحو، ولم يذكر غيره من الشعراء إلا أبا نواس وأبا تمام وابن المعتز وابن الجهم والمعري وأبا إسحاق الغزي.

الفصل الثاني

علمه بغير اللغة والأدب

وأما معرفته بما عدا اللغة والأدب، فظننا بأمثاله من رجال عصره ونظرُنا في شعره، يدلَّان على أنه قد سمع وقرأ فحصَّل كثيرًا من المعارف الشائعة في القرن الرابع.

نجده يمدح محمد بن زريق الطرسوسي، فيذكر أمثلة متتالية من القصص الدينية:

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه　　لما أتى الظلماتِ صِرْن شموسا
أو كان صادفَ رأسَ عازَر سيفُه　　في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لُجُّ البحر مثل يمينه　　ما انشق حتى خاض فيه موسى
أو كان للنيران ضوءُ جبينه　　عُبِدت فكان العالَمون مجوسا

ويقول:

وكم لظلام الليل عندك من يد　　تخبِّر أن المانوية تكذب

ويقول في هجاء كافور:

ألا فتى يورد الهنديَّ هامتَه　　كيما تزولُ شكوك الناس والتُّهَم
فإنه حجة يُؤذي القلوبَ بها　　مَن دينه الدهر والتعطيل والقِدم

يشير إلى آراء الدهريين، والمعطلة، والقائلين بقدم العالم.

ويقول في مدح دلير:

فتمليك دلير وتعظيمُ قدره   شهيدٌ بوحدانية الله والعدل

يشير إلى قول المعتزلة في التوحيد والعدل وفعل الصالح والأصلح.

فهذا كله دليل على اطلاع الرجل على المذاهب الدينية والقصص، وقد نظم قصيدة في مصر حينما اصطلح كافور وأنوجور بن الأخشيد، فلما أراد أن يُبيِّن عواقب الشقاق ساق أمثلة من تاريخ الجاهلية والإسلام:

وإذا كان في الأنابيب خُلفٌ   وقع الطيش في صدور الصِّعاد
أشمتَ الخُلفُ بالشُّراة عِداها   وشفَى ربَّ فارس من إياد
وتولَّى بني اليزيديُّ بالبصرة   حتى تمزَّقوا في البلاد
وملوكا كأمس في القرب منا   وكطَسْم وأختها في العباد

فقد ذكر انقسام الخوارج، ووقعة ملك الفرس وقبيلة إياد، وما أصاب بني اليزيدي وطسما وجديسا.

وقال في مدح ابن العميد:

مَن مُبلغ الأعراب أني بعدهم   لاقيت رِسطاليس والإسكندرا
ولقيتَ بطلَيموس دارس كُتْبه   متملكًا متبديًا متحضرا

والشاعر لا تنجده ذاكرته بهذه الأمثلة وِلاءً إلا بعد اطلاع واسع على التاريخ.

ولا ريب أنه أكمل درسه في اللغة، واستفاد فنونًا أخرى، من مطالعة الكتب، وقد روي أنه كان يطالع الكتب كل ليلة قبل أن يهجع.[١]

وقد مرَّ في الكلام على نشأته أنه كان مولعًا بملازمة الوراقين يستفيد من دفاترهم.

وفي رواية أبي نصر الجَبلي عن مقتل أبي الطيب أنه كان يحمل كتبه معه في أسفاره ويحرص عليها، وكان قد أحكمها قراءة وتصحيحًا.[٢]

---

١ (الصبح ص٥٠).

٢ (الصبح ص٩٨).

وقد أعرب هو عن شغفه بالقراءة، وأُنسه بالكتب في قوله:

أعزُّ مكان في الدُّنى سَرجُ سابح   وخير جليس في الزمان كتاب

الباب الرابع

مذاهبه وآراؤه

الفصل الأول

آراؤه

لو تجوزتُ في تفسير الفلسفة كما يتجوز الكتاب في وقتنا لجعلت عنوان هذا الباب «فلسفة أبي الطيب» ولكن الفلسفة في حقيقتها نظرات شاملة نافذة تنتج آراء في العالم أو الحياة أو الأخلاق يقوم عليها نظام من الفكر متصل متماسك.

فالآراء المنثورة التي تلقى القارئ في ثنايا شعر شاعر أو نثر كاتب، ليست حقيقةً أن تسمَّى فلسفة.

ولأبي الطيب آراء منها ما يُذكر في شعره مرة أو مرتين كما يقع في شعر غيره، ومنها ما يتكرر في صور شتى تنبه القارئ إلى أن وراء هذه الصور المكررة فكرة غالبة ورأيًا متمكنًا في نفس الشاعر. وهذا هو الذي يعدُّ رأيًا للشاعر، وصورة من صور عقله أو قلبه، وبه يمتاز شاعر عن شاعر، ويقال: مذهب فلان ومذهب فلان.

وسأعرض على القارئ في هذا الفصل جملة من آراء أبي الطيب ومذاهبه التقطتها من شعره ورتبتها:

(١) آراء أبي الطيب إنسانية ترجع إلى حياة الإنسان، وأخلاقه وعواطفه، وعلاقته بالجماعة التي يعيش فيها، قلما يتعرض شاعرنا لفلسفة العالم مبدئه ومنتهاه كأبي العلاء المعري؛ ولكن فكره يجد مضطربًا واسعًا في الناس بين الحياة والموت، والقوة والضعف، واللذة والألم، والنيل والحرمان ... وهلمَّ جرًّا.

(٢) يكثر كلام الشاعر عن فناء الحياة وتقلبها وزوال نعيمها، وقد يغلبه الفكر في هذا فينطق به في أثناء المدح أو الغزل كما رأيتَ في الكلام على أخلاقه، يقول:

نصيبُك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

* * *

هَوِّن على بصر ما شقَّ منظرهُ   فإنما يقظات العين كالحلُم

* * *

لو فكَّر الإنسان في منتهى   حسن الذي يسبيه لم يسبِه

* * *

لم يُرَ قرن الشمس في شرقه   فشكَّت الأنفس في غربه

* * *

وما الدهر أهل أن يؤمَّل عنده   حياةٌ وأن يُشتاق فيه إلى النسل

* * *

مُشِبُّ الذي يبكي الشبابَ مُشيبُه   فكيف توقِّيه وبانيه هادمه

* * *

نحن بنو الموتى فما بالنا   نعاف ما لا بدَّ من شربه

(٣) والناس يسيرون في الحياة أفواجًا إثر أفواج بين الميلاد والموت:

على ذا مضى الناسُ، اجتماع وفرقة   ومَيت ومولود، وقالٍ ووامق

سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها   مُنعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتي تملكَ سالب   وفارقها الماضي فراق سليب

* * *

يدفن بعضنا بعضًا ويمشي   أواخرنا على هام الأوالي

(٤) وهذه الحياة، على قصرها واضطرابها وأوصابها وآلامها، محبوبة يكلَف كل إنسان بها ويتقاتل الناس عليها:

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه حريصًا عليها مستهامًا بها صَبًّا
فحبُّ الجبان النفس أورده التقى وحبُّ الشجاع النفس أورده الحربا
ولذيذ الحياة أنفَسُ في النفس وأشهى من أن يملَّ وأحلى
وإذا الشيخ قال أفٍّ فما ملَّ حياةً وإنما الضعفَ مَلَّا

(٥) وينبغي للإنسان ألا يجزع من الموت فهو حادث طبيعي:

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بدَّ من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هنَّ من كسبه
فهذه الأرواح من جوِّه وهذه الأجسام من تربه

* * *

إلفُ هذا الهواء أوقع في الأنفُـ ـس أن الحِمام مُرُّ المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق

* * *

وغاية المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه
فلا قضى حاجتَه طالب فؤاده يخفق من رعبه

(٦) والعيش جهاد مستمر، وغِلاب بين الناس لا هوادة فيه ولا رحمة:

دون الحلاوة في الزمان مرارة لا تُختَطَى إلا على أهواله

* * *

إنما أنفس الأنيس سِباع يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شيء غلابًا واغتصابًا لم يلتمسه سؤالا

كلٌّ غاد لحاجة يتمنى　　أن الغضنفر الرئبالا

والناس لا تكفيهم مصائب الزمان الطبيعية بل يزيدون عليها مصائب بأيديهم. لا يألون في التنازع والاحتراب، وليس على الأرض ما يستحق هذا التعادي والتقاتل؛ ولكن الرجل الأبيَّ لا بدَّ له أن يدفع عن نفسه العدوان والهوان:

صحبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا　　وَعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه　　وإن سرَّ بعضَهم أحيانا
ربما تُحسن الصنيعَ لياليه　　ولكن تُكدِّر الإحسانا
وكأنا لم يرضَ فينا بريب الدهر　　حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمانُ قناة　　ركَّب المرءُ في القناة سنانا
ومرادُ النفوس أصغر من أن　　نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يُلاقي المنايا　　كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحي　　لعددنا أضلَّنا الشُّجعانا
وإذا لم يكن من الموت بدٌّ　　فمن العجز أن تكون جبانا
كل ما لم يكن، من الصعب في الأنـ　　ـفس، سهل فيها إذا هو كانا

(٧) والناس ظالمون بطبعهم مخادعون، لا عهد لهم ولا خير فيهم فليسوا أهلًا للرحمة:

إذا ما الناس جَرَّبهم لبيب　　فإني قد أكلتهم وذاقا
فلم أر ودَّهم إلَّا خداعًا　　ولم أرَ دينهم إلا نفاقا

* * *

ومن عَرف الأيام معرفتي بها　　وبالناس روَّى رمحَه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به　　ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

* * *

ولما صار وُدُّ الناس خَبًّا　　جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشكُّ فيمن أصطفيه　　لعلمي أنه بعض الأنام

* * *

ولا تَشَكَّ إلى خلق فتُشمتَه   شكوى الجريح إلى العِقبان والرخَم
وكن على حذَرٍ للناس تستره   ولا يغرك منهم ثغر مبتسم

وأما ذمة أهل زمانه خاصة فملء شعره في عهده الأول، قبل مصاحبة سيف الدولة، وقد تقدم منه أمثلة.[1]

(٨) والإنسان كريم ولئيم بخلقته، لا يستطيع عنها حِوَلا:

وإذا الحلم لم يكن في طِباع   لم يُحلِّم تقدُّم الميلاد

* * *

وأسرع مفعول فعلتَ تغيرًا   تكلُّف شيء في طباعك ضدُّه

* * *

فقلَّما يلؤم في ثوبه   إلا الذي يلؤم في غِرْسه
من وَجد المذهب عن قدره   لم يجد المذهب عن قَنْسِه

* * *

يراد من القلب نسيانكم   وتأبى الطباع على الناقل

(٩) الحياة والعيش والناس في نظره كما وَصف، فماذا يفعل الرجل اللبيب؟

أيفرُّ إلى الزهد، ويخلص من مصائب الحياة، وآلام العيش، ومكائد الناس بأن يتجنب الزحام، ويفرَّ من المعتَرك؟ أيتأسَّى بأبي العلاء المعري؟ أم يتناسى الهموم والآلام باللهو والمرح وتسليط الخمر على العقل، ويتخذ لنفسه قدوة في أبي نواس، ويجعل هجيراه رباعيات الخيام؟

[1] انظر [الفصل الخامس من الباب الثاني] وما بعدها.

هنا تظهر نفس أبي الطيب قوية: يجب أن تُلبَس الحياة على عِلَّاتها، ويجب أن يأخذ كل حيٍّ نصيبه من العراك، وحظَّه من الجهاد، فمن نكص فهو جبان ليس له إلا الذلة والاستكانة والحرمان:

عجبت لمن له قدٌّ وحدٌّ   وينبو نَبوة القَضِم الكَهام
ومن يَجدُ السبيل إلى المعالي   فلا يَذر المطيَّ بلا سَنام
ولم أر في عيوب الناس شيئًا   كنقص القادرين على التمام

وهذه الأبيات مَثَل لكل نفس عظيمة، وكل أمة إلى المعالي طامحة، وفيها حكمة يزيدها النظر وضوحًا، وتملأ الناظر إعجابًا بهذا الشاعر الطموح، الداعي إلى الكمال الذي يرى أعظم العيوب أن يرضى الإنسان بالنقص، ويقعد دون الغاية، وانظر النفس العظيمة في هذه الأبيات:

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه   ومركوبُه رجلاه والثوبُ جلده
ولكنَّ قلبًا بين جنبيَّ ما له   مَدًى ينتهي بي في مُراد أحدُّه
يرى جسمه يُكسَى شُفوفًا تَرُبُّه   فيختار أن يُكسَى دروعًا تَهدُّه

* * *

تهوِي بمنجرد ليست مذاهبه   للبس ثوب ومأكول ومشروب
يرى النجوم بعينيْ من يحاولها   كأنها سلَب في عين مسلوب

ثم تأمل في قوله:

لا يدرك المجدَ إلا سيِّد بطل
لما يشقُّ على السادات فَعَّال
لا وارثٌ جهلت يمناه ما كسَبت
ولا كَسوب بغير السيف سآل

* * *

ومــن يــك قــلــبٌ كــقــلــبــي لــه
يــشــق إلــى الــعــز قــلــبَ الــتــوى
ولا بـــدَّ لـــلـــقـــلـــب مـــن آلـــة
ورأي يـــصـــدِّع صُـــم الـــصـــفـــا

* * *

ذريـنـي أنـلْ مـا لا يُـنـال مـن الـعُـلـى
فصعب العلى في الصعب، والسهل في السهل
تـريـدين لُـقـيـانـا الـمـعـالـي رخـيـصـةً
ولا بـدَّ دون الـشـهـد مـن إبـر الـنـحـل

وهذه الأبيات من شعره في الكهولة. وأما شعر الشباب فقد بلغ فيه حد التهور والطيش والثورة يريد الدنيا ثورة وطعانًا وضرابًا. وحسب القارئ أن يرجع إلى القصيدة:

فؤاد ما تسليه المدام   وعُمر مثل ما يهب اللئام

والقصيدة:

لا افتخار إلا لمن لا يضام   مدركٍ أو محارب لا ينام

ليرى كيف تكون الدعوة إلى عزَّة النفس وعلوِّ الهمة، والإقدام والمخاطرة.

الفصل الثاني

تدينه

ذكر ابنُ القارح في رسالته إلى المعري أبا الطيب وتحقيره أهل زمانه، ونقل خُرافة حبسِه في بغداد بدعواه النبوة، وذكر قوله لسيف الدولة:

وتغضبون على من نال رِفدكم حتى ينغِّصه التكديرُ والمِنن

ثم قال:

«وهذا غير قادح في طلاوة شعره، ورونق ديباجته؛ ولكني أغتاظ على الزنادقة والملحدين الذين يتلاعبون بالدين، ويرومون إدخال الشبه والشكوك على المسلمين ويستعذبون القدح في نبوة النبيين ... إلخ.»

فأجابه أبو العلاء في رسالة الغفران إلى أن قال: «وقد دلت أشياء في ديوانه (أبي الطيب) أنه كان متألهًا فمن ذلك قوله:

ولا قابلًا إلَّا لخالقه حكما

* * *

ما أقدر الله أن يُخزي بريَّته ولا يصدق قومًا في الذي زعموا

وإذا رُجع إلى الحقائق فنُطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان؛ لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يُظهر الرجل بالقول تدينًا. وإنما يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض، ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون وفي الباطن ملحدون إلخ.»

ليت شعري أكان قول ابن القارح عن أبي الطيب حديثًا شائعًا في زمانه، أم هي دعوى النبوة صدَّق بها الرجل فأدخل الشاعر في زمرة الزنادقة؟

إن ما حكاه ابن القارح عن حبس أبي الطيب ببغداد، وأنه كشف عن سَلعة في بطنه، وقال: هذا طابع نبوتي وعلامة رسالتي إلخ يدل على أنه كان عاميًّا في تصديق ما يُروى دون تثبت ولا نقد، وقد ظن كما ظن غيره أن أبا الطيب تنبأ.

وحسْب الرجل زندقة أن يتنبأ، وليتهم حين صدقوا قصة النبوة قالوا: إنها كانت دعوى حدَث في سن العشرين لا تقاس بها عقيدته طول عمره.

والخلاصة أن أبا الطيب لم يتهم بإلحاد ولا زندقة إذا استثنيا ما يُحكى عن تنبئه، وقد علم القارئ رأيي فيه. وكان ابن القارح مولعًا بذكر الزندقة، والإكثار من تهمتها في رسالته ليتبين عقيدة المعري.

وبعدُ، فهل النظر في ديوان الشاعر يدل على زندقة أو تدين؟ في الديوان عبارات تنم عن الاستخفاف وقلة المبالاة بالدين وقد أدرك الثعالبي بعضها من قَبل؛ فقال في تعديد عيوبه:

ومنها الإيضاح عن ضعف العقيدة ورقة الدين.

ثم نقل أبياتًا، منها قوله:

يترشَّفن من فمي قُبلات هنَّ فيه أحلى من التوحيد

وقوله في مدح طاهر العلوي:

وأبهرُ آيات التهامي أنه أبوكم وإحدى ما لكم من مناقب

وقوله في مدح بدر بن عمار:

لو كان علمُك بالإله مقسَّمًا في الناس ما بعث الإله رسولا
أو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ ـقرآن والتوراة والإنجيلا

هذا بعض ما أخذه الثعالبي عليه، ورواية البيت الأول:

هنَّ فيه حلاوة التوحيد

والبيت الثاني:

وأجدى ما لكم من مناقب

لا تدفع كلام الثعالبي، وأنا أزيد على ما ذكره الثعالبي قوله في مدح بدر أيضًا:

أمسَى الذي أمسى بربك كافرًا   من غيرنا، معنا بفضلك مؤمنا

وقوله لسيف الدولة حينما أسقطت الريح خيمته:

فما اعتمد الله تقويضَها   ولكن أشار بما تفعل
وعرف أنك من همه   وأنك في نصره ترفل

وتفسر أبي الطيب الهم بالإرادة لا يقوم بعذره.

مثل هذه الأبيات تدل على الغلو في المدح، وقلة المبالاة، وتفسيرها بالغلظة والجرأة، كالعبارات التي خاطب بها الممدوحين وآخذه عليها النقاد، أولى من تفسيرها بالزندقة، فاستيعاب الديوان قراءةً يبين أن الرجل كان شاعرًا من شعراء المسلمين ينم كلامه عن المشاركة في العقائد الإسلامية في غير عناية بالنظر في الدين نظر أبي العلاء وأشباهه.

وانظر هذه الأبيات التي أثبتها هنا على ترتيب التاريخ، يقول وهو يصف مهرًا له:

أيْ كَبت كلَّ حاسد منافق   أنت لنا وكلُّنا للخالق

وقال لسيف الدولة:

ولولا قدرة الخلاق قلنا   أعمدًا كان خلقك أم وفاقا

* * *

فمن كان يُرضِي اللؤمَ والكفر ملكهُ　　　فهذا الذي يُرضِي المكارم والربا

ويقول في مدح سيف الدولة وحربه الروم:

خضعتْ لمنصلك المناصلُ عنوة　　　وأذل دينُك سائر الأديان
وعلى الدروب وفي الرجوع غضاضة　　　والسير ممتنع من الإمكان
والطرق ضيقة المسالك بالقنا　　　والكفر مجتمع على الإيمان ... إلخ

* * *

ومهذبٌ أمر المنايا فيهم　　　فأطعنه في طاعة الرحمن

* * *

فهنأك النصَر معطيكه　　　وأرضاهُ سعيُك في الآجل

* * *

ألهى الممالكَ عن فخر قفلتَ به　　　شربُ المدامة والأوتار والنغم
مقلدًا فوق شكر الله ذا شُطَب　　　لا تُستدام بأمضى منهما النعم

* * *

فأنت حسام الملك والله ضاربٌ　　　وأنت لواءُ الدين والله عاقد

* * *

يُذمُّ لمهجتي ربِّي وسيفي　　　إذا احتاج الوحيد إلى الذمام

* * *

سبقتَ إليهم مناياهمُ　　　ومنفعةُ الغوث قبل العطب
فخرُّوا لخالقهم سجَّدا　　　ولو لم تُغِث سجدوا للصُّلُب
أرى المسلمين مع المشركين　　　إما لعجز وإما رهَب
وأنت مع الله في جانب　　　قليلُ الرقاد كثيرُ التعب
كأنك وحدك وحَّدته　　　ودان البرية بابن وأب

* * *

تدينه

مثلما أحدث النبوةَ في العا   لم والبعثَ حين شاع فساده

فهذه الأبيات وأمثالها تحدِّث عن رجل مسلم إذا حدثت الأبيات الأولى عن رجل مغال جريء على الدين.

الفصل الثالث

هل كان أبو الطيب قرمطيًّا؟

يقول بلاشير في دائرة المعارف الإسلامية: «لم يكن المتنبي قرمطيًّا، ولكنه لقِّن آراء القرامطة التي لقيت بين الأعراب آذانا صاغية، وقد أشار في شعره إلى قتل أبي طاهر القَرمطي الحجاجَ في الحرم.»

وقد سمعت أن المستشرق مسنيون ألقى في مؤتمر المستشرقين الأخير في رومية بحثًا ادعى فيه أن أبا الطيب كان قرمطيًّا، ورأيت بعض أدبائنا يميل إلى هذا الرأي.

والأبيات التي أشار إليها بلاشير والتي يحتج بها غيره هي قول الشاعر:

لأتركنَّ وجوهَ الخيل ساهمة والحرب أقوم من ساق على قدم
بكلِّ منصلتٍ ما زال منتظري حتى أدلتُ له من دولة الخدَم
شيخٍ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم

وقد قدَّمت الكلام على هذه الأبيات في [الفصل الثاني من الباب الثاني].

وأنا أبين فيما يلي ما يدل عليه ديوان الشاعر من نظره إلى القرامطة، ثم إلى الشيعة العلويين.

فأما القرامطة فقد لقيتْ منهم الكوفة وأهلُها مصائب وأخذ الشاعر نصيبه منها، فما أحسَبه مال إليهم ولا سلك طريقتهم، وأقلُّ ما في الأمر أنه دعوى يُعوزها الدليل. ثم مَدْحُه سيف الدولة بقتل أبيه القرامطة لا يدل على أن في نفسه ميلًا إليهم، قال:

القائم الملك الهادي الذي شهدت قيامَه وهداه العرب والعجم
ابن المعفر في نجد فوارسها بسيفه وله كوفانُ والحرَم

قال الواحدي: يعني حرب أبي الهيجاء القرامطة وولايته طريق مكة.

وتأمل في قوله: القائم الملك الهادي إلخ فلا يبعد أن يكون تعريضًا بمن يصدقون بالمهدي.

وأما التشيع فربما يفهم من قصيدته التي مدح بها أبا الطاهر العلويَّ في الرملة، قال فيها:

وأبـهـر آيـات الـتـهـامـيِّ أنـه أبوكم وأجدى ما لكم من مناقب
هو ابن رسول الله وابن وصيه وشبههما، شبَّهتُ بعد التجارب

فتسمية عليٍّ وصيًّا اتباع لآراء الشيعة.

وأشار إليه طاهر العلوي بمسك في حضرة ابن طُغُج فقال:

الطيب مما غنيتُ عنه كفى بقرب الأمير طيبا
يبني به ربُّنا المعالي كما بكم يغفر الذنوبا

ولكن إن لم يكن بد من الاحتجاج بما يجري على لسان الشاعر أثناء المدح فقد خالف الشيعة إذ قال بعد البيت الأول:

إذا لم تكن نفسُ النسيب كأصله فماذا الذي تغني كرامُ المناسب
ومـا قـرُبت أشـبـاه قـوم أبـاعـد ولا بَـعُـدت أشـبـاه قـوم أقـارب

فهو يقول: إن النسب وحده لا يرفع إنسانًا إذا لم يرفعه فعله وهذا لا يساير عقائد الشيعة في ذلك العصر.

وأبين من هذا قوله في مدح ابن العميد وهو وزير دولة شيعية:

فإن يكن المهديُّ من بان هديه فهذا، وإلا فالهدى ذا فما المهدي؟
يـعـلـلـنـا هـذا الـزمـان بـذا الـوعـد ويـخـدع عـمـا فـي يـديـه مـن الـنـقـد
هل الخير شيء ليس بالخير غائب أم الرشد شيء غائب ليس بالرشد

هل هذا قول يجيزه لنفسه رجل يرى رأي القرامطة في الإمامة أو هو استخفاف بالمهدي ومن ينتظرونه؟

ثم مدح ابن حمدان بأنه سيف الدولة العباسية وتكرار هذا وتسميتها الدولة الهاشمية ودولة الخلافة وخيرة الدول، وتسمية الخلفاء العباسيين أئمة قريش، كل هؤلاء برهان على أنه ما كان ينتحل إلا نحلة جمهور المسلمين في عصره.

يقول في مدح ابن عمار:

حسام لابن رائق المفدى   حسام المتقي أيامَ صالا

ويقول في سيف الدولة:

لقد سلَّ سيف الدولة المجدُ مُعلِما   فلا المجدُ مخفيه ولا الضرب ثالمه
على عاتق الملْك الأغرِّ نجاده   وفي يد جبار السموات قائمه

* * *

وشركتُ دولةَ هاشم في سيفها   وشققتُ خِيس الملك عن رئباله

* * *

لقد رأت كل عين منك مالئها   وجرَّدت خَير سيف خَيرة الدول

* * *

إن الخليفة لم يسمِّك سيفه   حتى بلاك فكنت عينَ الصارم

* * *

إمامٌ للأئمة من قريش   إلى من يتَّقون له شقاقا

* * *

لقد رفع الله من دولة   لها منك يا سيفها منصُل

* * *

لأمر أعدَّته الخلافة للعِدى   وسمته دون العالم الصارم العضبا

الفصل الرابع

العصبية العربية

أبو الطيب شاعر عربيٌّ النسب، عربي النشأة، عربي الطباع، فهو يمثل العربية تمثيلًا صادقًا في خشونته، ونفوره من الترف، وترفعه عن الدنايا، وإبائه وطموحه وبعد همته وشجاعته وإقدامه وصبره ودربته على السفر، وبصره بالسبل والبلاد، وهلم جرًّا، ولو أن عنترة بن شداد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلِّزة عاشوا في القرن الرابع الهجري حيث عاش أبو الطيب لأشبهوه في كثير من قوله وفعله.

ذلك تمثيله العربية في أخلاقه ونزعاته وسيرته، وأما تحدثه بالعصبية العربية وإشادته بالعرب وفخره بهم فسأجمل القول فيها بعد هذه المقدمة:

بعض الكتاب يحاولون أن يفسروا تاريخنا بنزعات العصر الحاضر وبما يحسون من عصبية، ولا بدَّ لهم أن يتذكروا أن الأمم الإسلامية في القرن الرابع، كانت تعيش في أخوة الإسلام والتاريخ والأدب، وكانت عصبياتها لا تَطغَى على هذه الأخوة، وكانت الفوارق الوطنية والقومية والسياسية تخالف ما نراه في عصرنا هذا.

فأبو الطيب حينما رحل من العراق إلى الشام فمصر فالعراق ففارس فالعراق لم يُسأل في طريقه عن موطنه، ولم يكلَّف حَمل جواز السفر، ولا تسجيل اسمه في سجلات الشُّرطة كلما فارق مملكة إلى أخرى، وقد أقام في الشام سنين يمدح أناسًا جلهم عرب، وغير العربي منهم كالعربي في ثقافته ولغته ومعيشته.

ورحل إلى مصر فمدح رجلًا أسود ولكنه مسلم يتكلم العربية، ويعرف آدابها ولا يعرف لنفسه لغة أخرى ولا أمة غير الأمة العربية.

ولما رحل إلى فارس لقي ابنَ العميد، وهو علَم من أعلام الأدب العربي، ثم سار إلى عضد الدولة فإذا ملكٌ عربي اللسان، ينظم الشعر العربي ويحب الأدب العربي ويصل شعراء العربية ولا يبالي باللغة الفارسية وآدابها وشعرائها.

فإن انتظرنا أن يكون أبو الطيب في هذه الجماعات مَثَلًا لعصبياتنا ونزعاتنا في العصر الحاضر فقد أردنا مخالفة السنن وتحريف التاريخ. قال أحد الكتاب: إن أبا الطيب كان قد وافق سيف الدولة على خطة يمحوان بها سلطان العجم من البلاد العربية، وذهب في هذا مذهبًا مغرقًا في الوهم.[1] وقال كاتب آخر: إن أبا الطيب كان في شعره داعية للأعاجم مشيدًا بمجدهم وحضارتهم، معظمًا رجالهم بمدائحه إلخ.[2] وإذ كان مرجع الرأي الخيال لا الحقيقة، ودليله الوهم لا كلام الشاعر وتاريخه، اختلف القائلان هذا الاختلاف في أمر واحد بين.

ثم ننظر فيما يوحيه كلام الشاعر وسيرته.

فأما مدحه الروزباري وابن طغج وكافور ودلير بن لشكروز وعضد الدولة فلا عار فيه، ولا إخلال بعزة الشاعر العربية إذا تذكرنا المقدمة التي أسلفتها، فلم يبق إلا النظر في كلام الشاعر لنتبين ما فيه من عصبية أو غيرها. فأما أدلة العربية فثلاثة أضرب:

الأول: ذكر فيه العرب والعجم وأعرب عن عصبيته لقومه.

والثاني: لم يقس فيه العرب بغيرهم، ولكنه دل فيه على اعتزاز بالعربية وافتخار بها.

والثالث: عطفه على القبائل العربية وحضه سيف الدولة على برهم ورعاية الأخوة العربية فيما يشجر بينه وبينهم من خلاف.

فأما الأول فقوله:

أحق عاف بدمعك الهمم　　أحدثُ شيء عهدًا بها القِدم
وإنما الناس بالملوك وما　　تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب　　ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم　　ترعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه　　وكان يُبرَى بظفره القلم

[1] مجلة المقتطف: عدد المتنبي.

[2] مجلة المغرب الجديد: عدد المتنبي.

وقوله في ذم ابن كيغلغ موازنًا بينه وبين أبي العشائر الحمداني:

أفعال من تلد الكرام كريمة　　وفعال من تلد الأعاجم أعجم

وقوله في رثاء يماك التركي أحد جند سيف الدولة:

وإن الذي أمست نزارٌ عبيده　　غني عن استعباده لغريب

ومن ذلك استيحاشه في فارس من فقد اللغة العربية، والوجه العربي واليد العربية وحنينه إلى دمشق وضيافتها وحمص وخناصرة كما تقدم.[٣]

وأما الضرب الثاني، وهو اعتزازه بالعروبة وافتخاره، فيتجلى في مدائح سيف الدولة حيث يشيد بعربيته، ويعدها من مفاخره كقوله:

تهاب سيوف الهند وهي حدائد　　فكيف إذا كانت نزاريةً عربا

* * *

تحير في سيف ربيعة أصله　　وطابعه الرحمن، والمجد صاقل
إذا العرب العرباء رازت نفوسها　　فأنت فتاها والمليك الحلاحل
أطاعتك في أرواحها وتصرفت　　بأمرك والتفت عليك القبائل

* * *

رفعت بك العرب العماد وصيرت　　قمم الملوك مواقد النيران

* * *

تشرف عدنان به لا ربيعة　　وتفتخر الدنيا به لا العواصم

والثالث: وهو عطفه على القبائل العربية، يتبين في قصيدتيه اللتين ذكر فيهما حرب سيف الدولة وقبائل العرب فاجتهد في عطف الأمير عليهم وذكَّره بعربيتهم وقرابتهم، وقد قدمت أدلة هذا في [الفصل الثامن من الباب الثاني] وما بعدها.

[٣] انظر [الفصل السابع عشر من الباب الثاني].

وأما ما يخالف هذه العصبية أو يتوهم أنه يخالفها فبيانه فيما يلي:

(أ) مدحه علي بن صالح الروزباري الكاتب بقوله:

فارسي له من المجد تاج　　كان من جوهر على أبرواز
نفسه فوق كل أصل شريف　　ولو انِّي له إلى الشمس عاز
وبآبائك الكرام التأسي　　والتسلي عما مضى والتعازي
تركوا الأرض بعدما ذللوها　　ومشت تحتهم بلا مهماز
وأطاعتهم الجيوش وهيبوا　　فكلام الورى لهم كالنحاز

ولست أرى في هذا المدح إخلالًا بالعصبية العربية فمدح جماعة ليس تحقيرًا لأخرى؛ لا سيما من شاعر له من وراء المدح مأرب. وكأن الشاعر ضاق عليه مجال القول في هذا الممدوح فحلاه بشيء من مجد الفرس القديم، ولو أنه أراد تعظيم الفرس لاتسع له المجال في قصائد عضد الدولة وهو لم يذكر فيها كلمة عن الفرس وملوكهم، وقد مدح أبو تمام والبحتري غير العرب وقال البحتري في القصيدة السينية التي وصف فيها إيوان كسرى:

ومساع لولا المحاباة مني　　لم تُطقها مسعاة عنس وعبس

ثم ذكر فضل الفرس على اليمن إذ أعانوا على إخراج الحبش. ولم تعد مدائح أبي تمام والبحتري مزرية بالعصبية فيهما.

(ب) وقال أبو الطيب في كافور:

ويغنيك عما ينسب الناس أنه　　إليك تناهَى المكرمات وتُنسب
وأي قبيل يستحقك قدره　　معد بن عدنان فداك ويعرب

* * *

أبلى الأجلة مهري عند غيركم　　وبدل العُذر بالفسطاط والرسَن

عند الهمام أبي المسك الذي غرِقت   في بحره مضرُ الحمراء واليمن

وفي البيتين الأولين موضع للمؤاخذة لا يشفع فيه مقام المدح، واقتضاء الصنعة إذا شفعا في مثل قوله:

ومن قول سام لو رآك لنسله: فدَى ابن أخي نسلي ونفسي وماليا

(جـ) وقال في مدح ابن العميد:

أرأيت همة ناقتي في ناقةٍ   نقلت يدًا سُرُحًا وخفًّا مجمرا

* * *

تركت دخان الرمث في أوطانها   طلبًا لقوم يُوقدون العنبرا

* * *

من مبلغ الأعراب أنِّي بعدهم   لاقيت رسطاليس والإسكندرا
ولقيت بطليموس دارس كتبه   متملكًا متبديًا متحضرا

والظاهر أن الشاعر يصف انتقاله من البداوة إلى الحضارة فقد ذكر دخان الرِّمث، وهو من شجر البادية، وذكر الأعراب، ثم قابل هذا بالعنبر وأرسطاليس والإسكندر، فكلام الشاعر عن الأعراب لا العرب، فليس فيه قياس أمة بأمة بل قياس حال بحال: بداوة وجهالة بحضارة وعلم، ولكني مع هذا لا أبرئ الشاعر من أنه وقف نفسه موقف التهمة، وكان خيرًا له ألا يقول هذا.

هذا ما يمر به القارئ أثناء قراءة الديوان من العصبية والخروج على العصبية.

والحق أن أبا الطيب لم يمثل العرب بأقواله كما مثلهم بأفعاله، إنما كان أبو الطيب شاعر العرب بما مثلهم في عيشه وخلقه وفعله وقوله كما قدمت في أول الفصل.

ولا يقاس أبو الطيب في الإشادة بالعرب والفخر بهم والدفع عنهم، ودعوتهم إلى استعادة مجدهم، بشاعر العرب الحق الذي فاض شعره في القرن الخامس الهجري بالعزة العربية، والعصبية للعرب والإشادة بمجدهم، وذلكم الشاعر الأموي النابغ الأبيوردي.

الحق أن أبا الطيب لا يُقاس بالأبيوردي في هذا الشأن، بل لا يستحق أن يذكر معه في هذا الصدد، ولا يتسع المجال للتمثيل بروائع الأبيوردي، ولكن ينبغي أن نذكر أن أبا الطيب عاش في بلاد العرب، والأبيوردي عاش في ديار العجم؛ فكان كل ما حوله يثير عصبيته، كما فعل المتنبي حين ذهب إلى بلاد العجم.[٤]

هذا؛ ولأبي الطيب، غير ما بينت، آراء منثورة ترجع إلى أمور شتى لا تبين عن مذهب مكين في النفس، ويستطاع تعدادها هنا.

[٤] [الفصل السابع عشر من الباب الثاني] وما بعده.

الباب الخامس

أدب أبي الطيب

الفصل الأول

مكانته في الأدب

١

كان شعر أبي الطيب، في بعض معانيه ولغته وأسلوبه، يمتاز من شعر معاصريه، وكان أبو الطيب في أنفته وكبريائه وثورته وتحدثه بالسؤدد والمجد فذًّا في الشعراء.

فهذا وذاك نبها الناس إليه منذ حداثته، فما زال ذكره ينبه حتى فاق شعراء الشام، ثم اتصل بسيف الدولة فاتسع المجال لبيانه، وواتت الحال كبرياءه، فعلا قدره وسار شعره حتى كسف شعراء عصره جميعًا القريبين من سيف الدولة والبعيدين.

وكان الشاعر معجبًا بنفسه مفتونًا بشعره منذ نشأ، يقول في قصيدة الحسين بن علي الهمذاني:

يرومون شأوي في الكلام وإنما   يحاكي الفتى، فيما خلا المنطق، القرد
فهم في جموع لا يراها ابن دأية   وهم في ضجيج لا يحس به الخُلد
ومني استفاد الناس كل عجيبة   فجازوا بترك الذم إن لم يكن حمد

وفي قصيدة ابن طغج:

إذا صُلت لم أترك مقالًا لصائل   وإن قلتُ لم أترك مقالًا لعالم

وفي قصيدة طاهر العلوي:

حملت إليه من لساني حديقة سقاها الحجى سقي الرياض السحائب

ولما نبه ذكره عند بني حمدان اغتبط بإدراك بعض آماله، وتحدث عن بعد صيته، وسير شعره فقال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر القوم جراها ويختصم

* * *

وعندي لك الشرد السائرات لا يختصِصْن من الأرض دارًا
قواف إذا سرن عن مقولي وثبن الجبال وخضن البحارا
ولي فيك ما لم يقل قائل وما لم يسر قمر حيث سارا

* * *

وما أنا إلا سمهري حملته فزين معروضًا وراع مسددًا
وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعرًا أصبح الدهر منشدًا
وسار به من لا يسير مشمرًا وغنى به من لا يغني مغردًا

٢

وكان من نباهته أن تطلع الشعراء إلى شعره منذ صباه، وقد ادعى بعضهم إحدى قصائده:

في النسخة (٥٣٠): «حدثني أبو الحسن بن سعيد راوية المتنبي بحلب سنة أربع وخمسين، وقد تناشدنا قصيدته الحائية التي أولها:

جللًا كما بي فلْيكُ التبريح أَغِذاءُ ذا الرشأ الأغن الشيحُ؟

أن أبا الطيب حدثه أنه في بعض زوراته لآل الفصيص كان عند رئيسهم فأنشده شاعر قدم عليه قصيدته الحائية التي قدمنا ذكرها إلى أن أتى على آخرها، فأخذ أبو الطيب الدواة وكتب لوقته قطعة لم يُجز أن تروى عنه وقد كتبناها في ديوانه هذا.» وقد ألحقت القطعة بآخر النسخة، وأولها:

لمَ لا يغاث الشعر وهو يصيح ويُرى منار الحق وهو يلوح
يا عصبة مخلوقة من ظلمة ضموا جوانبكم فإني يوح[1]

وهذه من قصائد الصبا.

وقد حكى أبو الحسين محمد بن أحمد المغربي راوية أبي الطيب في كتاب الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي أن شاعرًا عارض إحدى قصائد أبي الطيب واستشهد بأبي سعيد السيرافي على أن قصيدته أبلغ، وأخذ خطه بذلك، فانظر كيف كبرت على الشاعر معارضة أبي الطيب حتى استشهد بالسيرافي، وأنقل هنا للتفكه قول المغربي في هذا: «وأما إعطاء أبي سعيد خطه فيوشك أن يكون من جنب ما حدثني به المعروف بابن الخزاز الوراق ببغداد، وأبو بكر القنطري، وأبو الحسين بن الخراساني، وهما وراقان أيضًا من جلة أهل هذه الصنعة، أن أبا سعيد إذا أراد بيع كتاب استكتبه بعض تلامذته، حرصًا على النفع منه، ونظرًا في دق المعيشة، كتب في آخره وإن لم ينظر في حرف منه: قال الحسن بن عبد الله: «قد قرئ هذا الكتاب عليَّ وصح» ليُشترى بأكثر من ثمن مثله.»[2]

ولست أصدق هذه الرواية عن أبي سعيد ولكن ساق إليها الحديث.

وحسبنا دليلًا على منزلة شاعرنا أن شاعرًا أديبًا كابن دينار الذي رويت عنه كتب الزجاج وثعلب وابن الأعرابي وغيرهم يمدحه بقصيدة أولها:

رب القريض إليك الحَل والرحَل ضاقت إلى العلم إلا نحوك السبل

[1] يوح: الشمس.

[2] ياقوت: السيرافي.

تضاءل الشعراء اليوم عند فتى صِعاب كل قريض عنده ذُلُل[٣]

وقد تخلل شعره الجماهير فحفظوه وتمثلوا به. أسلفت قصة الهاشمي الذي كتب وهو بمصر إلى امرأته بحران متمثلًا بمطلع القصيدة:

بم التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

فأجابته امرأته بل أنت كما قال في هذه القصيدة:

سهرت بعد رحيلي وحشةً لكم ثم استمر مريري وارعوى الوسن

وقد حدث هذا الهاشمي أبا الطيب بالقصة وهو في مصر، فالقصيدة التي قالها أبو الطيب في مصر سنة ٣٤٨ روتها نساء حران قبل خروجه من مصر.[٤]

٣

وكان من إحسانه وتحليقه فوق شعراء زمانه أن أعجب به جماعة، وحسدته أخرى. وكان من شذوذه وابتداعه في بعض المعاني والألفاظ أن كرهه قوم، ووجد فيه آخرون مجالًا للشرح والجدل.

فالشعراء واللغويون عند سيف الدولة أخذوا عليه مآخذ، والوزير المهلبي أغرى به شعراء بغداد، وحرض عليه الحاتمي فناظره أو ادعى مناظرته ثم كتب كتابه «المُوضِّحة في مساوئ المتنبي». وابن العميد انتقد بعض شعره وكأنه أراد أن يعلمه أنه على سمو قدره، لا يكبر على نقد ابن العميد. وسخط عليه الصاحب إذ دعاه إليه فاستكبر كما يقول الثعالبي، فكتب رسالته «الكشف عن مساوئ المتنبي».

وكان الصاحب عارفًا بإحسان أبي الطيب على طعنه فيه، وقد رأيت رسالة اختار فيها الصاحب أبياتًا كثيرة من شعر الشاعر وقدمها لفخر الدولة بن بويه.

---

[٣] ياقوت ج٥، ص٣٧٨.

[٤] انظر [الفصل الثاني عشر من الباب الثاني].

وكذلك ناقض شاعرنا أبو إسحاق الفارسي.[٥]
فقد صار الشاعر مدار نقد وموضوع تأليف وهو حي.

٤

وشرح ابن جني ديوانه وكتب كتابًا آخر في تفسير معاني الديوان فتصدى للرد عليه عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني وابن فُورَّجة وأبو حيان التوحيدي. ألف الأول «إيضاح المشكل من شعر المتنبي»، وألف ابن فُورَّجة كتابين: «الفتح على أبي الفتح»، و«التجني على ابن جني»،[٦] وألف أبو حيان «الرد على ابن جني في شعر المتنبي».[٧]

وألف الشريف المرتضى من بعدُ كتابًا سماه تتبع أبيات المعاني للمتنبي التي تكلم عليها ابن جني.

وكتب بعض الأدباء يزعم أن شعر أبي الطيب مسروق من أبي تمام والبحتري، فكتب أبو الحسين محمد بن أحمد المغربي راوية أبي الطيب كتاب «الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي»، وجاء القاضي المنصف علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة هجرية يتوسط فكتب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، فذاع الكتاب أو كما قال ياقوت سار مسير الرياح، وطار في البلاد بغير جناح، وأقبل عليه المتأدبون حتى قال بعض أهل نيسابور:

أبا قاضيًا قد دنت كتبه وإن أصبحت داره شاحطه
كتاب الوساطة في حسنه لعقد معاليك كالواسطه

وكان مع هذا الجدل ذيوع شعره، وإكباب الناس على قراءته ودرسه.

ومن أمثلة هذا أنه في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وقعت في نيسابور مناظرة بين بديع الزمان والخوارزمي فاقترح عليهما رئيس المجلس أن ينسجا على منوال المتنبي في قوله: أرق على أرق ومثلي يأرق. ثم قال لهما: قولا على منوال المتنبي في قوله: أهلا

[٥] ياقوت: إبراهيم بن علي الفارسي.
[٦] ياقوت: ابن فُورَّجة (بتشديد الراء)، وأبو حيان.
[٧] ياقوت: ابن فُورَّجة (بتشديد الراء)، وأبو حيان.

بدار سباك أغيدها، وهاتان القصيدتان من قول الشاعر في صباه، فكيف بقصائد سيف الدولة وما بعدها.

٥

وازداد ذكر الشاعر نباهة على مر الزمان، يقول الثعالبي (المتوفى سنة تسع وعشرين وأربعمائة هجرية) في كتاب اليتيمة:

> فليس اليوم مجالس الدرس أعمر بشعر أبي الطيب من مجالس الأنس، ولا أقلام كتاب الرسائل أجرى به من ألسن الخطباء في المحافل، ولا لحون المغنين والقوالين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين، وقد ألفت الكتب في تفسيره وحل مشكله وعويصه، وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه، وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه، والإفصاح عن أبكار كلامه وعونه، وتفرقوا فرقًا في مدحه والقدح فيه، والنضح عنه والتعصب له وعليه.

وكتب الثعالبي بابًا مطولًا جدًّا قال فيه: «ويتميز هذا الباب به عن سائر أبواب الكتاب كتميزه عن أصحابها بعلو الشأن في شعر الزمان، والقبول التام بين الخاص والعام.»

وفي القرن الخامس شرح أبو العلاء المعري المتوفى سنة تسع وأربعين وأربعمائة الديوان، وسمى شرحه معجز أحمد.

وفي سنة اثنتين وستين وأربعمائة أتم علي بن أحمد الواحدي (المتوفى سنة سبع وستين وأربعمائة) شرح الديوان، وقال في خاتمة الشرح: «وإنما دعاني إلى تصنيف هذا الكتاب، مع خمول الأدب وانقراض زمانه، اجتماع أهل العصر قاطبة على هذا الديوان وشغفهم بحفظه وروايته والوقوف على معانيه، وانقطاعهم عن جميع أشعار العرب جاهليها وإسلاميها إلى هذا الشعر، واقتصارهم عليه في تمثلهم ومحاضراتهم وخطبهم ومخاطباتهم حتى كأن الأشعار كلها فقدت ... إلخ.»

ثم توالى الشراح: التبريزي والعكبري وغيرهما إلى يومنا هذا وليس هذا مقام تعداد شروح الديوان وقد تجاوزت الأربعين.

وأختم الكلام بإثبات قصة تمثل الحقيقة وإن لم تكن حقًّا. روى صاحب الصبح: «أن رجلًا من مدينة السلام كان يكره أبا الطيب المتنبي فآلى على نفسه ألا يسكن بمدينة يُذكر بها أبا الطيب وينشد كلامه، فهاجر من مدينة السلام وكان كلما وصل بلدًا سمع بها ذكره يرحل عنها حتى وصل إلى أقصى بلاد الترك فسأل أهلها عن أبي الطيب فلم يعرفوه فتوطنها، فلما كان يوم الجمعة ذهب إلى صلاتها بالجامع فسمع الخطيب ينشد بعد ذكر أسماء الله الحسنى:

أساميًا لم تزده معرفة وإنما لذةً ذكرناها[٨]

فعاد إلى دار السلام.»[٩]

٦

وقد سار ذكر أبي الطيب في المغرب كما سار في المشرق، فأبو جعفر القزاز (المتوفى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة وقد قارب التسعين) كتب عن الشاعر كتابين:

الأول: «أبيات معان في شعر المتنبي».

والثاني: «ما أخذ عن المتنبي من اللحن والغلط».[١٠]

وابن رشيق (المتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة) ذكره في كتاب العمدة مرات، وسماه خاتم الشعراء وقال: «ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس.»

وقد عرف ديوان الشاعر في الأندلس في حياته، نقله ابن الأشح (المتوفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة) وابن العريف (ف سنة ٣٩٠).[١١] وشرح الأفليلي (ف ٤٤١) الديوان، ومن كتابه نسخة في دار الكتب المصرية، وكتب ابن سِيده (ف ٤٥٨) «المشكل من شعر المتنبي» وهو في دار الكتب أيضًا.

---

[٨] البيت لأبي الطيب في مدح عضد الدولة.

[٩] الصبح ص٩٠.

[١٠] ياقوت: القزاز.

[١١] مقال بلاشير في مجلة المغرب الجديد.

وأما شيوع شعره في أندية الأندلس منذ القرن الرابع فهنا قصتان: روى ابن خلكان أن المعتمد بن عباد أنشد يومًا في مجلسه بيت المتنبي:

إذا ظفرت منك العيون بنظرة أثاب بها مُعيي المطي ورازمه

وجعل يردده استحسانًا له، وفي مجلسه أبو محمد عبد الجليل بن وهبون الأندلسي فأنشد ارتجالًا:

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما تجيد العطايا، واللُّهى تفتح اللَّهى
تنبأ عجبًا بالقريض ولو درى بأنك تروي شعره لتألها[١٢]

وفي الصبح المنبي[١٣] عن ذخيرة ابن بسام: «أن أبا عبد الله بن شرف قال يومًا للمأمون بن ذي النون أيام خدمته إياه، واستشفافه صبابة عمره في ذراه، وقد أجروا ذكر أبي الطيب، فذهبوا في وصفه كل مذهب: إن رأى المأمون — لا فارق العزة والعلاء — أن يشير إلى أي قصيدة شاء من شعر أبي الطيب حتى أعارضه بقصيدة تُنسي اسمه وتعفي رسمه، فتثاقل ابن ذي النون عن جوابه، علمًا بضيق جنابه، وإشفاقًا من فضيحته وانتشابه، وألح أبو عبد الله حتى أحرج ابن ذي النون وأغراه، فقال له: دونك قوله:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي

فخلا بها ابن شرف أيامًا فوجد مركبها وعرًا، ومريرتها شذرًا، ولكنه أبلى عذرًا، وأرهق نفسه من أمرها عسرًا، فما قام ولا قعد. وسأل ابنَ ذي النون بعدُ أي شيء أقصدَه إلى تلك القصيدة؟ فقال: لأن أبا الطيب يقول فيها:

بلغت بسيف الدولة النور رتبة أنرت بها ما بين غرب ومشرق

[١٢] ابن خلكان: المتنبي.

[١٣] ص١٩٠.

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق   أراه غباري ثم قال له الحق.»

وروي في الصبح عن ابن بسام أن أبا علي بن رشيق حدث نفسه بمعارضة أبي الطيب في قصيدته:

أمن ازديارك في الدجى الرقباء   إذ حيث كنت من الظلام ضياء

فلم يستطع.

٧

وفي المغرب الأقصى شاع ذكر أبي الطيب كذلك، وأعجب الناس بشعره حتى كبار رجال الدين كالمهدي محمد بن تومرت.

واختصر شرح ابن جني في القرن السادس عيسى بن عبد العزيز الجزولي (المتوفى سنة ٦٠١) وألف عبد العزيز القشتالي (المتوفى سنة ١٠٣١) كتابًا سماه: مقدمة لترتيب ديوان المتنبي، ويقال: إن الشيخ عبد القادر الفاسي (المتوفى سنة ١٠٩٠) كان يحفظ ديوان أبي الطيب كله، وكذلك يقال عن أبي علي اليوسي (المتوفى سنة ١١٠٢).[١٤]

٨

ولا تنس كلف النحاة وعلماء البلاغة بشعر أبي الطيب، يجد الأولون في مشكله وعويصه مثارًا للجدل كما فعل ابن هشام في كتاب المغني، ويجد الآخرون في محاسنه ومساوئه أمثلتهم في البلاغة والتعقيد كما فعل عبد القاهر الجرجاني وأبو يعقوب السكاكي ومن أخذ عنهما من مؤلفي البلاغة.

[١٤] مقال بلاشير عن مجلة المغرب الجديد.

٩

ذلكم أبو الطيب، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس كما قال ابن رشيق، قد أورث الأدب العربي ثروة بشعره ولا سيما حماسته وأمثاله وحكمه، وأورثه ثروة بما ثار حوله من نقد الأدباء وجدالهم وبما كُتب على ديوانه من شروح تجاوزت الأربعين.

لقد أدرك الشاعر الكبير، في الأدب، المجد الذي فاته في السياسة، فإن يكن المجد كما قال:

وتركك في الدنيا دويًّا كأنما   تداول سمع المرء أنمله العشر

فما زالت الدنيا مدوية باسمه، والآفاق مرددة ذكره، وما زال حتى اليوم مدار قيل وقال، ومثار مراء وجدال، ولم يزده مر الزمان إلا نباهة، ولا قدم العهد إلا حداثة، وها هي ذي البلاد العربية قد احتفلت أخيرًا بذكره بعد ألف عام، من فاس إلى مدينة السلام.

الفصل الثاني

آراء النقاد فيه

أعرض في هذا الفصل طائفة من آراء الأدباء القدماء في أبي الطيب منذ تكلم فيه النقاد إلى القرن السابع.

وإنما عنيت بآراء النقاد القدماء؛ لأنهم أقدر على نقد الشاعر، وأبصر بمواقع شعره في النفوس، ومكانته من أدب عصره.

ذلكم بأن ألفاظ اللغة، على اطراد استعمالها، ووضوح مدلولاتها، تتضمن إلى معانيها البينة، دقائق لا تستطيع تفسيرها معاجم اللغة، ومرامي تختلف باختلاف الزمان والمكان، فقد يدرك معاصر أبي الطيب متانة في عبارة أو ركاكة لا تظهر لنا، ويرى في جملة سوء أدب لا نراه.

ومن أجل هذا كانت اللطائف لا تقع عند الناس مواقع واحدة، فرب كلمة تذهب بجماعة مذاهب في الضحك والعجب، ويمر بها آخرون لا يرون فيها ما يضحك؛ لأن في اللطائف، إلى المعنى المشترك بين الجماعات، دقائق تختلف في إدراكها البيئات.

ثم معرفة الناس الوقائع التي قيل فيها الشعر تجعل للعارف ميزة على غيره في تقدير المعاني ووزن الكلام، والحكم على القائل، فالقصيدة التي تنظم اليوم في واقعة تقع في مصر تتضمن من الدقائق ما لا يقدره غير المصريين وإن اشترك العرب والمتأدبون بالأدب العربي جميعًا في فهم معانيها.

وكذلك القصيدة التي أنشئت في القرن الرابع هي أقرب إلى أهل القرن الرابع، وهلم جرًّا.

وهكذا تختلف البيئة والعرف والأدب باختلاف الزمان والمكان.

ثم في عرض آراء النقاد من السلف فائدتان أخريان: الاستعانة بنظرهم وكانوا أكثر منا فراغًا للأدب، واختصاصًا به، والثانية أن معرفة آراء النقاد في شاعر ما تدخل

في تاريخ أدب هذا الشاعر، فلا يسع كاتب أن يتركها دون إخلال بتاريخ من يكتب عنه قليل أو كثير.

وترتيب الآراء هنا على ترتيب التاريخ:

١

قال أبو الفتح بن جني: وهو ممن صحب المتنبي، وقد قرأ عليه ديوانه ثم كتب عليه شرحًا:

> وإن كان في بعض ألفاظه تعسف عن القصد في صناعة الإعراب، من التمسك بأهداب شاذ أو حمل على نادر، فعن غير جهل كان منه، ولا قصور عن اختيار الوجه الأعرف له، ومن هنا تشبث قوم لا دربة لهم بعلم العربية بأشياء من ظاهر لفظه، إذ لم يكن لهم خبرة بدخلة أمره، وحقًّا أقول لقد شاهدته على خلق قلما تكامل إلا لعالم موفق.
>
> وأما اختراعه للمعاني وتغلغله فيها، واستيفاؤه إياها، فما لا يدفعه إلا ضد، ولا يستحسن معاندته إلا ند، وما أحسبني رأيت أحدًا (غض من) هذا الرجل وقتًا من الزمان إلا وشاهدته بعد ذلك قد رجع عنه وعاد إلى تفضيله … وما لهذا الرجل الفاضل عيب عند هؤلاء السقطة الجهال وذوي النذالة والسفال، إلا أنه متأخر محدث، وهل هذا لو عقلوا إلا فضيلة له ومنبهة عليه؛ لأنه جاء في زمان يُعقم الخواطر، ويُصدئ الأذهان، فلم يزل فيه وحده بلا مضاه يساميه، ولا نظير يعاليه، فكان كالقارح الجواد يتمطر في المهامه الشداد، لا يواضح إلا نفسه، ولا يتوجس فيها إلا جرسه.

٢

وقال الصاحب بن عباد (المتوفى سنة ٣٨٥) في مقدمة رسالته: الكشف عن مساوئ شعر المتنبي:

> وكنت ذاكرت بعض من يتوسم بالأدب، الأشعار وقائليها والمجودين فيها، فسألني عن المتنبي فقلت: إنه بعيد المرمى في شعره كثير الإصابة في نظمه،

> إلا أنه ربما يأتي بالِفقرة الغراء، مشفوعة بالكلمة العوراء، فرأيته قد هاج وانزعج، وحَمِي وتأجج، وادعى أن شعره مستمر النظام متناسب الأقسام، ولم يرض حتى تحداني فقال: إن كان الأمر كما زعمت فأثبت في ورقة ما تنكره، وقيد بالخط ما تذكره، لتتصفحه العيون وتسبكه العقول. ففعلت وإن لم يكن تطلب العثرات من شيمتي، ولا تتبع الزلات من طريقتي، وقد قيل: أي عالم لا يهفو، وأي صارم لا ينبو، وأي جواد لا يكبو؟

ثم عد الصاحب عيوبًا أخذها على الشاعر واستشهد بأبيات. وترى أن الصاحب في المقدمة لم يطعن في مقدرة الشاعر، ولا حط من قدره، ولا أخره عن مكانه، بل أراد أن يثبت أن للرجل هفوات، وليس يعنينا أن يكون حقًّا أو باطلًا ما رواه الثعالبي من أن الصاحب دعا أبا الطيب إلى مدحه فاستكبر فانتقم منه بالطعن فيه، فقد حاول الصاحب أن يأتي بالبينة على دعواه فنصرته حينًا وخذلته حينًا، وعمدتنا هذه البينة لا نية الناقد.

وهذا الصاحب نفسه جمع لأحد الأمراء من بني بويه أبياتًا من عيون شعر أبي الطيب وتداولها الناس في رسالة باسم الصاحب، كما تقدم.

٣

وقال أبو القاسم الأصفهاني في كتابه إيضاح المشكل من شعر المتنبي:[١]

> وأما الحكم عليه وعلى شعره فهو سريع الهجوم على المعاني، ونعت الخيل والحرب من خصائصه، وما كان يراد طبعه في شيء مما يسمح به، يقبل الساقط الرديء كما يقبل النادر البدع، وفي متن شعره وهْي، وفي ألفاظه تعقيد وتعويص.

وخلاصة هذا الرأي أنه كان قليل التثبت فأحسن وأساء ولم يسلم من الضعف والتعقيد، وذلك قريب من رأي الصاحب.

[١] الخزانة ج١ ص٣٨٩.

٤

وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (المتوفى سنة ٣٩٢) في كتاب الوساطة:

> وما زلت أرى أهل الأدب منذ ألحقتني الرغبة بجملتهم، ووصلت العناية بيني وبينهم، في أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي فئتين: من مطنب في تقريظه، منقطع إليه بجملته، منحط في هواه بلسانه وقلمه، يتلقى مناقبه إذا ذُكرت بالتعظيم، ويشيع محاسنه إذا حُكيت بالتفخيم، ويعجب ويعيد ويكرر، ويميل على ما عابه بالزراية والتقصير، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجهيل، فإن عثر على بيت مختل النظام أو نُبه على لفظ ناقص عن التمام التزم من نصرة خطئه، وتحسين زلـلـه، ما يزيله عن موقف المعتذر، ويتجاوز به مقام المنتصر، وعائب يروم إزالته عن رتبته فلا يسلم له فضيلة، ويحاول حطه عن منزلة بوَّأه إياها أدبه، فهو يجتهد في إخفاء فضائله، وإظهار معايبه، وتتبع سقطاته وإذاعة غفلاته، وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه.

إلى أن يقول القاضي العادل صاحب الوساطة:

> وللفضل آثار ظاهرة، وللتقدم شواهد صادقة، فمتى وجدت تلك الآثار وشوهدت هذه الشواهد، فصاحبها فاضل متقدم، فإن عثر له بعد ذلك على زلة ووجدت له بعقب الإحسان هفوة، انتُحل له عذر صادق، أو رخصة سائغة، فإن أعوز قيل: زلة عالم، وقل من خلا منها، وأي الرجال المهذب؟

ثم قال عمن لا يرون للمحدثين من الشعراء فضلًا:

> فإذا نزلت به إلى أبي تمام وأضرابه، نفض يده وأقسم واجتهد أن القوم لم يقرضوا بيتًا قط ولم يقعوا من الشعر إلا بالبعد. ومن هذا رأيه ومذهبه، وهذه دعواه ونحلته، فقد أعطاك ما أردت من وجه وإن مانعك سواه، وسمح لك بما التمست وإن التوى عليك في غيره؛ لأن الذي انتصبت له، وشغلت عنايتك به إلحاق أبي الطيب بهذه الطبقة وإضافته إلى هذه الجملة، وقد بذل ذلك وقرب مطلبه عليك، فإن تكن الجماعة منسلخة من الشعر مرسومة

> بالنقص مستحقة للنفي، فصاحبك أولهم، وإن تكن قد علقت منه بسبب، وحظيت منه بطائل، وكان لها فيه قدم ومنه حظ وموقع فهو كأحدهم.

إلى أن قال:

> فإنك لا تدعي لأبي الطيب طريقة بشار وأبي نواس، ولا منهاج أشجع والخزيمي، ولو ادعيته إنما كنت تخادع نفسك أو تباهت عقلك، وإنما أنت أحد رجلين: إما أن تدعي له الصنعة المحضة فتلحقه بأبي تمام وتجعله من حزبه، أو تدعي له فيها شِركًا وفي الطبع حظًّا، فإن ملت به نحو الصنعة فضل ميل صيرته في جنبة مسلم، وإن وفرت قسطه من الطبع عدلت به قليلًا نحو البحتري.
>
> وأنا أرى لك، إذا كنت متوخيًا للعدل مؤثرًا للإنصاف، أن تقسم شعره فتجعله في الصدر الأول تابعًا لأبي تمام، وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم.

ثم تكلم القاضي المتوسط على ما في شعر أبي نواس وأبي تمام والبحتري من التفاوت، وانتقل إلى بيان السخيف والجيد من شعر أبي الطيب، ثم تكلم على ما ادُّعي فيه على الشاعر السرقة، وما ادعي فيه الغلط في اللغة والنحو والوزن، منتصرًا للشاعر بالحق حينًا، معترفًا عليه بالزلل حينًا، وقد قال في مقدمة الكلام عما أخذ على الشاعر من الخطأ في اللغة واللحن:

> وقد قدمنا لك في صدر هذه الرسالة من شعر أبي نواس وأبي تمام وغيرهما ما مهدنا به الطريق إلى هذا القول، وأقمناه علمًا يرجع إليه في هذا الحكم، وأعلمناك أنه ليس بغيتنا الشهادة لأبي الطيب بالعصمة، ولا مرادنا أن نبرئه من مقارفة زلة، وأن غايتنا فيما قصدناه أن نلحقه بأهل طبقته، ولا نقصر به عن رتبته، وأن نجعله رجلًا من فحول الشعراء، ونمنعك من إحباط حسناته بسيئاته، ولا نسوغ لك التحامل على تقدمه في الأكثر، بتقصيره في الأقل، والغض من عام تبريزه بخاص تعذيره.

فقد تبين بما نقلت رأي القاضي وهو تشريف أبي الطيب بإلحاقه بمسلم وأبي تمام والبحتري في إحسانهم والاعتراف بأن له سيئات مثلهم، وأنه بين صنعة مسلم وأبي تمام وطبع البحتري.

٥

وقال أبو منصور الثعالبي في اليتيمة:

> وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه، والإفصاح عن أبكار كلامه وعونه، وتفرقوا فرقًا في مدحه والقدح فيه، والنضح عنه والتعصب له وعليه، وذلك أول دليل على وفور فضله، وتقدم قدمه، وتفرده عن أهل زمانه بملك رقاب القوافي، ورق المعاني، فالكامل من عدت سقطاته، والسعيد من أحصيت هفواته، وما زالت الأملاك تهجى وتمدح.
>
> وأنا مورد في هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه، وما يُرتضى وما يستهجن من مذاهبه في الشعر وطرائقه، وتفصيل نقد شعره، والتنبيه على عيونه وعيوبه، والإشارة إلى غُرَره وعُرَره، وترتيب المختار من قلائده وبدائعه.

رأي الثعالبي قريب من رأي الجرجاني، وقد نقل عنه كثيرًا من نقده، ولكن الثعالبي أطلق القول ولم يقف بأبي الطيب عند أبي تمام والبحتري، ولا قال: إن قصاراه أن يلحق بهما كما قال صاحب الوساطة، وسأبين من بعد ما حكاه الثعالبي مما أخذ على الشاعر في ألفاظه ومعانيه.

هؤلاء الخمسة: ابن جني والصاحب والأصفهاني والجرجاني والثعالبي من أدباء القرن الرابع المعاصرين للشاعر أو الملحقين بالمعاصرين.

ومن المعاصرين أبو هلال العسكري (المتوفى سنة ٣٩٥) لم يحفل بأبي الطيب ولم يسمه في كتاب الصناعتين، ولكن كنى عنه مرات عند التمثيل بالمستهجن من شعره، ثم صرح باسمه مرات في ديوان المعاني.

٦

وقال الشريف الرضي:

> أما أبو تمام فخطيب منبر، وأما البحتري فواصف جؤذر، وأما أبو الطيب المتنبي فقائد عسكر.[٢]

[٢] الصبح ص١٠٣ والمثل السائر.

٧

المعري والشريف المرتضى:

وكان أبو العلاء المعري معجبًا بأبي الطيب، شرح ديوانه شرحين أحدهما اللامع العزيزي، والثاني معجز أحمد، وقد روى ياقوت ما وقع بين المعري والشريف المرتضى ببغداد، من أجل أبي الطيب فقال:

> وكان أبو العلاء يتعصب للمتنبي ويزعم أنه أشعر المحدثين، ويفضله على بشار ومن بعده مثل أبي نواس وأبي تمام. وكان المرتضى يبغض المتنبي ويتعصب عليه ... إلخ.[٣]

وفي الشرح المنسوب إلى أبي العلاء المعري ما يبين عن شدة تعصب أبي العلاء للشاعر، فقد روى فيه أن ابن جني اعترض على قول أبي الطيب:

قد شرف الله أرضًا أنت ساكنها وشرف الناس إذ سواك إنسانا

وقال لو وضع كلمة مكان سواك لكان أحسن، فرد عليه العروضي قوله؛ إلى أن قال:

> وعند أبي الفتح أنه يقدر على تبديل ألفاظ هذا الشعر بما هو خير منه؟ وقرأت على أبي العلاء المعري، ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب، فقلت له يومًا في كلمة: ما ضر أبا الطيب لو قال مكان هذه الكلمة كلمةً أخرى أوردتها. فأبان لي عوار الكلمة التي ظننتها، ثم قال لي: لا تظن أنك تقدر على إبدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها، فجرب إن كنت مرتابًا. وها أنا أجرب ذلك منذ العهد فلم أعثر بكلمة لو أبدلتها بأخرى لكانت أليق بمكانها، وليجرب من لم يصدق يجد الأمر على ما أقول.

وهذا القول عجيب من مثل المعري، فإن كان الراوي قد وهم فنسب إلى المعري ما لم يقل فهذه النسبة تؤيد ما عُرف به المعري من التعصب لأبي الطيب.

[٣] معجم الأدباء ج١.

٨

وقال أبو سعيد محمد بن أحمد العميدي (المتوفى سنة ٤٤٣) في كتابه: الإبانة عن سرقات المتنبي لفظًا ومعنى:

> ولقد تأملت أشعاره كلها فوجدت الأبيات التي يفتخر بها أصحابه، وتُعتبر فيها آدابه، من أشعار المتقدمين منسوخة، ومعانيها من معانيهم مسلوخة … إلخ.

ويرى القارئ أنه رأى متعصب أخذ عليه البغض مسالك الصواب.

٩

وقال ابن شرف القيرواني (المتوفى سنة ٤٦٠) في مقامته عن الشعراء:

> وأما المتنبي فقد شغلت به الألسن، وسهرت في أشعاره الأعين، وكثر الناسخ لشعره، والآخذ لذكره، والغائص في بحره، والمفتش في قعره عن جمانه ودره، وقد طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف، وله شيعة تغلو في مدحه، وعليه خوارج تتعايى في جرحه، والذي أقول إن له حسنات وسيئات، وحسناته أكثر عددًا وأقوى مددًا، وغرائبه طائرة، وأمثاله سائرة، وعلمه فسيح، وميزه صحيح، يروم فيقدر، ويدري ما يورد ويصدر.

١٠

وقال ابن رشيق القيرواني (المتوفى سنة ٤٦٣) في كتاب العمدة:

> وليس في المولدين أشهر اسمًا من الحسن أبي نواس ثم حبيب والبحتري؛ ويقال: إنهما أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن في المولدين، وامرئ القيس في القدماء، فإن هؤلاء الثلاثة لا يكاد أن يجهلهم أحد من الناس.

ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس.

وقال: «وقد كان أبو الطيب كثير البديهة والارتجال إلا أن شعره فيهما نازل عن طبقته جدًّا، وهو لعمري في سعة من العذر.»

«فإذا صرت إلى أبي الطيب صرت إلى أكثر الناس غلوًّا وأبعدهم فيه همة حتى لو قدر ما أخلى منه بيتًا واحدًا.»

وفي موضع آخر سماه خاتم الشعراء.[٤]

١١

ونقل ابن رشيق رأيًا لأحد النقاد جديرًا بأن ينقل هنا:

وقال بعض من نظر بين أبي تمام وأبي الطيب: إنما حبيب كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها، ويعطي المعني حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة، أو كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج خوفًا على دينه، وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهرًا وعنوة، أو كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع.[٥]

١٢

وقال علي بن أحمد الواحدي شارح الديوان (المتوفى سنة ٤٦٨):

وإن الناس منذ عصر قديم قد ولوا جميع الأشعار صفحة الإعراض مقتصرين منها على شعر أبي الطيب المتنبي معرضين عما يروى لسواه، وإن فاقه وجاز في الإحسان مداه، وليس ذلك إلا لبخت اتفق له فعلا وبلغ المدى، قال:

هو الجد حتى تفضل العين أختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

[٤] العمدة ج١ ص٦٤، ١٢٨، ١٦٣ وج٢ ص٥١.

[٥] العمدة ج١ ص٨٧.

على أنه كان صاحب معان مخترعة بديعة، ولطائف أبكار لم يسبق إليها دقيقة، ولقد صدق من قال:

ما رأى الناس ثاني المتنبي　　أي ثان يُرى لبكر الزمان
هو في شعره تنبى ولكن　　ظهرت معجزاته في المعاني

ولهذا خفيت معانيه على أكثر من روى شعره من أكابر الفضلاء والأئمة؛ حتى الفحول منهم والنجباء، كالقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، صاحب كتاب الوساطة وأبي الفتح عثمان بن جني النحوي وأبي العلاء المعري وأبي علي بن فُورَّجة البروجردي ... إلخ.

وقال بعد شرح أبيات أبي الطيب التي وصف بها كتاب أبي الفتح بن العميد، وهي التي أولها:

بكتب الأنام كتاب ورد　　فدت يدَ كاتبه كلُّ يد

ولو خرس المتنبي ولم يصف كتاب ابن العميد بما وصف لكان خيرًا له فكأنه لم يسمع قط وصف كلام ... إلخ.

وقال بعد شرح الأبيات التي نظمها يوم نثر الورد عند عضد الدولة، والتي أولها:

قد صدق الورد في الذي زعما　　أنك صيرت نثره ديما

وهذه قطعة في وصف الورد غير مليحة، وليس المتنبي من أهل هذه الأوصاف، وهي كالقطعة التي وصف فيها كلام ابن العميد.

وقد روى العكبري كلمة الواحدي بهذه العبارة: «وليس المتنبي من أهل الأوصاف.» وننتقل إلى رأي أديب من أدباء القرن السادس والسابع.

١٣

قال أبو البقاء العكبري شارح الديوان (المتوفى سنة ٦١٦) بعد شرح البيت:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي ... وأنثني وبياض الصبح يُغري بي

> وقد أجمع الحذاق بمعرفة الشعر والنقاد، أن لأبي الطيب نوادر لم تأت في شعر غيره، وهي مما تخرق العقول، منها هذا البيت ومنها إلخ.

أورد الشارح أكثر من مائة بيت من مختار شعر أبي الطيب، ثم قال: فهذا الذي لم يأت شاعر بمثله، وإنما ذكرناه مجملًا ليسهل أخذه وحفظه، ولو تصفحت دواوين المجيدين المولدين والمحدثين، لم تجد لأحد منهم بعض هذا إلا نادرًا، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، يؤتي الحكمة من يشاء.

وقال، بعد أن نقل قول الواحدي أن المتنبي ليس من أهل الأوصاف:

> قلت إنما المتنبي ممن يحسن الأوصاف في كل فن، وإنما هذا الذي يأتي له في البديهة والارتجال أو في وقت يكون على شراب أو غيره فلا يعتد به، ولو كان أبو الفتح (يعني ابن جني) عمل صوابًا لكان أسقطه من شعره، ولولا أن من تقدمني شرح هذه المقطعات وأثبتها لما ذكرتها في كتابي هذا.

١٤

وأختم كلام النقاد بقول أبرعهم وأنقدهم ابن الأثير الجزري صاحب المثل السائر (المتوفى سنة ٦٣٧)، قال في المثل السائر:

> ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع، وأنفدت شطرًا من العمر في المحفوظ منه والمسموع، فألفيته بحرًا لا يوقف على ساحله، وكيف يُنتهَى إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله؟ فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده، وتتشعب مقاصده، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم، في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم، إذ المراد من الشعر إنما هو إبداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل واللطيف، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت

فهو بابل، وقد اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس، وأبي عبادة الوليد، وأبي الطيب المتنبي، وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعُزَّاه ومناته، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء، وجمعت بين الأمثال وحكمة الحكماء.

ووصف ابن الأثير أبا تمام والبحتري ثم قال في وصف أبي الطيب:

وأما أبو الطيب المتنبي فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خطاه، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه، لكنه حظي في شعره بالحكم والأمثال، واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال، وأنا أقول قولًا لست فيه متأثمًا، ولا منه متلثمًا، وذاك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها؛ حتى تظن الفريقين قد تقابلا، والسلاحين قد تواصلا، فطريقه في ذلك يضل بسالكه، ويقوم بعذر تاركه.

ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان فيصف لسانه ما أدى إليه عيانه.

ومع هذا فإني رأيت الناس عادلين فيه عن سنن الوسط فإما مفرِّط في وصفه، وإما مفرِط، وهو، وإن انفرد بطريق صار أبا عذره، فإن سعادة الرجل كانت أكبر من شعره، وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء، ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة:

لا تطلبن كريمًا بعد رؤيته ... إن الكرام بأسخاهم يدًا ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره ... قد أفسد القول حتى أُحمد الصمم

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى، وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى، وجدته أقسامًا خمسة: خمس في الغاية التي انفرد بها دون غيره، وخمس من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره، وخمس من متوسط الشعر، وخمس دون ذلك، وخمس في الغاية المتقهقرة التي لا يعبأ

بها، وعدمها خير من وجودها، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها، فإنها هي التي ألبسته لباس الملام، وجعلته عرضة لسهام الأقوام.

خلاصة هذه الآراء

إذا استثنينا العميدي، وينبغي أن يخرج من بين هؤلاء النقاد، فالإجماع على أن أبا الطيب من فحول الشعراء وفرسان البيان المتصرفين في فنون القول المخترعين دقائق المعاني.

وجل هؤلاء النقاد يرون له إلى حسناته سيئات، ثم يختلفون في النظر إلى سيئاته:

يحاول بعضهم تعظيمها والمبالغة فيها، وهم الصاحب بن عباد والشريف المرتضى، ويلحق بهم أبو القاسم الأصفهاني، على أن الصاحب قد اعترف بفضل الشاعر في رسالته التي جمع فيها أمثاله كما سيأتي.

ومنهم من يحاول الإغضاء عنها أو دفعها والاعتذار لها وهم ابن جني والمعري والعكبري.

ومنهم من يقدرها قدرها لا يبغي التسميع بها، ولا تهوينها وهم الأكثرون: الجرجاني والثعالبي وابن شرف وابن رشيق والواحدي.

وإذا قيس أبو الطيب إلى الشعراء فالمعري والعكبري يرفعانه فوقهم جميعًا، والجرجاني يلحقه بأبي تمام والبحتري، ويقف به دون أبي نواس وبشار. وابن الأثير يقول: إنه أراد أن يقفو أثر أبي تمام فقصرت به خطاه، ولكنه فاقه وغيره من كبار الشعراء في الأمثال والحكم ووصف القتال وبذ الشعراء جميعًا في قسم من شعره، وجارى كبارهم في قسم، وتوسط في آخر فسار مع أوساط الشعراء وتخلف في قسم آخر فلم يساير الأوساط ثم جاء سكيتًا بعد هذا.

الفصل الثالث

مساوئه ومحاسنه في رأي الثعالبي خاصة

عد الصاحب بن عباد في رسالته بعض مساوئ أبي الطيب، وجمع الثعالبي إلى مآخذ الصاحب عيوبًا أخرى، واقتفى المؤلفون من بعدُ آثارهما.

والفصل الطويل المستوعب الذي كتبه الثعالبي في اليتيمة عن الشاعر يشتمل على تسعة عشر عيبًا، وإحدى وعشرين مزية، وقد رأيت أن ألقي نظرة شاملة عاجلة على هذه المساوئ والمحاسن في هذا الفصل لأفرغ للإبانة عن خصائص الشاعر ومزاياه كما أراها.

(١) المساوئ التي عدها الثعالبي

بدأ الثعالبي بالكلام على سرقات الشاعر ثم قال:

والآن حين أذكر ما يُنعى على أبي الطيب من معايب شعره ومقابحه:

ومن ذا الذي تُرضَى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تُعد معايبه

ثم أقفى على آثارها بمحاسنه وسياق بدائعه:

فحسن دراري الكواكب أن تُرى طوالع في داج من الليل غيهب.

ثم شرع يعدد هذه المعايب. وأنا أسردها هنا موجزًا مخالفًا ترتيب الثعالبي لأجمع الأشباه معًا، وأردها إلى أصولها، وقد رددت المعايب كلها إلى أربعة أقسام:

ما يرجع إلى اللفظ، وما يرجع إلى المعنى، وما يرجع إلى آداب القصائد أو الخطاب المتواضع عليها في ذلك العصر، وغير هذا.

وأما ما عُد من سرقات الشاعر فلا أُعنَى به، فلست أرى اتفاق شاعرين أو أخذ واحد عن الآخر أمرًا ذا بال في تقديرهما وتقويم شعرهما، والذي أراه أن الشاعر إذا أمده طبعٌ شاعر، وعلم واسع فبلغ مكانة يخترع فيها المعاني أو يصور ما عُرف منها تصويرًا يُرى عليه طابعه، وكان لا يعجزه أن يخترع ويصور غير متطلع إلى ما سُبق إليه، فهو شاعر ينطق بما في نفسه غير مفرق بين ابتداع واتباع، ويصور ما يدرك تصويرًا يشبه الاختراع، ولا يعوزه النظر في كلام غيره قبل أن يقول، ويجتمع في نفسه ما يخترعه وما سُبق إليه معدنًا واحدًا، وكنزًا من النفائس مختلطًا.

إن كان الشاعر كذلك فعبث أن يُعد عليه ما وافق به فلانًا، أو يوصم بأنه سرق من فلان.

وآية بلوغ الشاعر هذه المكانة أن ترى ما يستبد به مساويًا أو أعلى مما يشارك فيه، ولا تجد ما أخذه من غيره لمعًا بيضاء في شعر أسود، وكلامًا محكمًا بين كلام مهلهل.

وكل ما سموه سرقات أبي الطيب ليس غُررًا في دُهمة، ولا نجومًا في ظلمة؛ ولكنه كلام يشاكل ما لم يُدَّع فيه السرقة ويلائمه حتى ليدرك الناظر فيهما أنهما نتاج طبع واحد، وإن يكن بعضه أعلى من بعض فالعلو في جانب ما اخترعه ولم يتهم فيه بأخذ. وحسبي هذه الجملة الدالة على ما وراءها.

ثم أجمل ما ذكره الثعالبي على التقسيم الذي أسلفته مؤثرًا ألفاظ الثعالبي مكتفيًا بمثال يبين ما عناه الناقد.

القسم الأول

(١) استعمال الغريب والوحشي كقوله:

ولا أرضى لمقلته بحلم إذا انتبهت توهمه ابتشاكا

والابتشاك الكذب، ولم أسمع فيه شعرًا قديمًا ولا حديثًا سوى هذا البيت.

(٢) وعسف اللغة والإعراب كقوله:

فِدى مَن على الغبراء أولهم أنا   لهذا الأبي الجائد الماجد القرم

ولم يحك عن العرب الجائد.

(٣) وتكرير اللفظ في البيت الواحد من غير تحسين كقوله:

ومن جاهل بي وهو يجهل جهله   ويجهل علمي أنه بي جاهل

(٤) والاستكثار من قول ذا كقوله:

أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقًا   إليه وذا اليوم الذي كنت راجيًا
أفي كل يوم ذا الدمستق مقدم   قفاه على الأقدام للوجه لائم

* * *

أريد من زمني ذا أن يبلغني   ما ليس يبلغه في نفسه الزمن

(٥) والركاكة والسفسفة بألفاظ العامة ومعانيهم كقوله:

لسريٍّ لباسه خشن القطن   ومرويٌّ مرو لبس القرود

(٦) وامتثال ألفاظ المتصوفة واستعمال كلماتهم المعقدة ومعانيهم المغلقة كقوله في وصف الفرس:

وتسعدني في غمرة بعد غمرة   سبوحٌ لها منها عليها شواهد

* * *

إذا ما الكأس أرعشت اليدين   صحوت فلم تحل بيني وبيني

(٧) واستكراه اللفظ وتعقيد المعنى كقوله:

إذا عذلوا فيها أجبت بأنة حُبيبتا! قلبي فؤادي هيا جُمل

* * *

لساني وعيني والفؤاد وهمتي أود اللواتي ذا اسمها منك والشطر

(٨) والخروج على الوزن:

تفكُّره علم ومنطقه حكم وباطنه دين وظاهره ظرف

وقد خرج فيه عن الوزن؛ لأنه لم يجئ عن العرب مفاعيلن في عروض الطويل غير مصرَّع وإنما جاء مفاعلن.

نظرة في هذه المآخذ

هذا ما جمعه الثعالبي من المآخذ اللفظية، وقد ساق لكل ما أخذ أمثلة عدة وفي الديوان أمثلة غير الذي ذكرها، والمقصد هنا التمثيل لا الحصر.

ولست أنكر أن قارئ الديوان يعثر بمثل هذه الأبيات ومرجعها إلى أمور:

قلة المبالاة باللفظ إذا لمح الشاعر وراءه المعنى الذي يريده فلا يعنيه أن يكون غريبًا أو عاميًّا أو مكررًا، وربما يحمد للشاعر أن يتحرر من رق الألفاظ، وربما يقتضي المقام الإسفاف إلى كلمة مبتذلة لا يسد غيرها مسدها، وفي قلة المبالاة شبه بأخلاق الشاعر الذي خرج عن المألوف في كثير من أموره.

ثم مع قلة المبالاة ميل إلى الإغراب يظهر في شعر الصبا والشباب؛ إذ كان الرجل معجبًا بنفسه يود أن يلفت الناس إليه فيتوعر أحيانًا ويتكلف، ويؤثر تفكير العقل، على وحي الطبع، ولا سيما في مطالع القصائد كأنه لا يرضى أن يبتدئ بكلام يسير مألوف.

وإلى قلة المبالاة والميل إلى الإغراب معرفة واسعة باللغة مستعملها وغريبها وشاذها، وصحبة للأعراب وإلف لكلامهم والأخذ عنهم، وهذا كله جعله يأنس بالنافر من اللغة أنسًا يقربه إليه، كما يُستأنس الوحش، ولعله أراد أحيانًا أن يدل على بصره باللغة وعلمه بغريبها.

ثم لا ننسى أن الشاعر كان كوفيًّا يميل إلى آراء الكوفيين، وكثير مما أنكر عليه له مساغ عندهم، ومن يقرأ إملاءه على الأبيات الشاذة من شعره، ويرى كيف يحتج لها ويسوق الشاهد بعد الشاهد، يعرف أن الرجل لم يؤت من جهل باللغة بل من سعة علم بها، وقد قدمت قول ابن جني في هذا، وقد قرأ عليه ديوانه وجادله في هذه الشواذ وعرف احتجاجه لها، وشواهده عليها.

أنا لا أدفع عن الرجل هذه المآخذ؛ ولكن أدعو إلى أن تعرف أسبابها، وتقدر قدرها فيبقى معها أبو الطيب شاعرًا مطبوعًا فحلًا مخترعًا في شعره هنات لفظية.

وبعد فهذه العيوب ليست أمرًا غالبًا أو شيئًا مطردًا في شعر الرجل؛ ولكن تقع نادرًا ولا سيما في شعره الأول، ولعلك تقرأ في الديوان عشر قصائد متتابعة لا تجد فيها مأخذًا مما ذُكر.

وأما الخروج على الوزن فأمر ذو بال، عجيب أن يؤخذ على مثل أبي الطيب، وقد قال صاحب الوساطة في هذا بعد ذكر البيت الذي أتى به الثعالبي:

> قالوا خرج عن الوزن؛ لأنه لم يجئ عن العرب مفاعيلن في عروض الطويل غير مصرع، قال المحتج إنما جاء البحر على مفاعيلن وليس يحظر على الشاعر إجراؤه على الأصل، وقد روى العروضيون فيه، وإن يكن مصنوعًا، بيتًا، وقد جاء عن العرب مفاعيلن في المصرع، وما خرج عن الوزن لم يحتمله المصرع ولا غيره.
>
> قال امرؤ القيس:
>
> ألا انعم صباحًا أيها الطلل البالي وهل ينعمن من كان في العصر الخالي
>
> فجاء بالعروض على مفاعيلن لما صرع، قالوا: وقد جاء في شعر المحدثين ما أجروا فيه غير المصرَّع مجرى المصرع؛ قال شاعرهم:
>
> فالوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود

وأبو الطيب أعذر من هذا؛ لأنه جرى على أصل البحر في الدائرة، وقد جرى أبو تمام إلى ما هو أقبح من الأمرين فصرع المصراع في قوله:

يقول فيُسمع ويمشي فيسرع ويضرب في ذات الإله فيوجع

وعلى مثل هذا الطريق يعاب أبو الطيب بقوله:

إنما بدر بن عمار سحاب هطل فيه ثواب وعقاب

لأنه أخرج الرمل على فاعلاتن في العروض، فأجرى على ذلك جميع القصيدة في الأبيات غير المصرعة، وإنما جاء الشعر فيه على فاعلن، لكن أصله في الدائرة فاعلاتن وإن كان غير محفوظ عن العرب.

انتهى كلام صاحب الوساطة.

والبيت الأول أخذه ابن جني على الشاعر من قبل، وقال فيه الواحدي: «أقرب ما يصرف إليه أنه رد مفاعلن إلى أصلها وهو مفاعيلن لضرورة الشعر.»

هذا مبلغ ما أخذ عليه في الوزن، وهو أمر تختلف فيه الأنظار، ولو غربلت دواوين الشعراء الآخرين على هذه الشاكلة ما سلموا من مثل هذا.

ثم هذه الأبيات من شعر الشباب، وأبيات بدر بن عمار التي من الرمل، قالها ارتجالًا في مجلس شراب، وهي تسعة أبيات.

القسم الثاني من مآخذ الثعالبي

عد الثعالبي؛ مما يرجع إلى المعنى، المساوئ الآتية:

(١) الإفراط في المبالغة، والخروج فيها إلى حد الإحالة.

كقوله:

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا
فبعدها وإلى ذا اليوم لو ركضت بالخيل في لهوات الطفل ما سعلا

* * *

ونالوا ما اشتهوا بالحزم هونًا   وصاد الوحش نملهم دبيبا

* * *

ولو قلمٌ ألقيتُ في شق رأسه   من السقم ما غيرتُ من خط كاتب

(٢) وإبعاد الاستعارة والخروج بها عن حدها، كقوله:

مسرة في قلوب الطيب مفرقها   وحسرة في قلوب البيض واليلب

* * *

إلا يشب فلقد شابت له كبد   شيبًا إذا خضبته سلوة نصلا

(٣) وتعقيد المعنى كقوله:

أنى يكون أبا البرايا آدم   وأبوك، والثقلان أنت، محمد

(٤) والغلط بوضع الكلام في غير موضعه كقوله:

وغر الدمُسْتُقَ قول الوشاة   إن عليًّا ثقيلٌ وصِب

جعل الأمراء يوشى بهم، وإنما الوشاية السعاية ونحوها.
وكقوله في وصف الفرس:

وزاد في الأذن على الخرانق

وأذن الفرس يستحب فيها الدقة والانتصاب، وأذن الأرنب على الضد من هذا الوصف.

(٥) الخروج عن طريق الشعراء إلى طريق الفلسفة، كقوله:

ولجدت حتى كدت تبخل حائلًا   للمنتهَى ومن السرور بكاء

* * *

إلف هذا الهواء أوقع في الأنفس   أن الحمام مر المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز   والأسى لا يكون بعد الفراق

فأما الثلاثة الأولى فلا تُنكر في شعره، وفي الديوان غير ما ذكر الثعالبي أمثلة أخرى كقوله في الغلو:

لنوره في سماء الفخر مخترق   لو صاعد الفكر فيها الدهر ما نزلا

* * *

متى ما يشر نحو السماء بوجهه   تخر له الشعرى وينخسف البدر

* * *

رجلٌ طينه من العنبر الورد   وطين العباد من صلصال
فبقيات طينه لاقت الماء   فصارت عذوبة في الزلال
وبقايا وقاره عافت الناس   فصارت ركانة في الجبال

ومنها قوله في شعر سيف الدولة:

وأشقى بلاد الله ما الروم أهلها   بهذا وما فيها لمجدك جاحد

وفي شعر عضد الدولة:

إذا اشتبهت دموع في خدود   تبين من بكى ممن تباكى
أذمت مكرمات أبي شجاع   لعيني من نواي، على أولاكا

وهذا يقع في شعره الأول، ويقل على مر الزمان حتى يندر جدًّا بعد اتصاله بسيف الدولة، ولا يستطيع ناقد أن يأتي بعشرة أمثلة منه في السيفيات وما بعدها.

وأما الغلط فأنكره، وهو دعوى بغير دليل، وما ذكره الثعالبي لا يقوم بدعواه، ففي البيت:

وغر الدمستُق قول الوشاة إلخ، رويت العداة مكان الوشاة فسقط الاحتجاج به، وقوله: «وزاد في الأذن على الخرانق» لا عيب فيه، فالخرانق صغار الأرانب وآذانها لطيفة صغيرة ولم يرد الشاعر غير هذا. وليس الثعالبي ممن يُعلِّم أبا الطيب وصف الخيل، وأبو الطيب صديقها المعجب بها القائل:

وما الخيل إلا كالصديق قليلة وإن كثرت في عين من لا يجرب
إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وألوانها فالحسن عنك مغيب

وأما الخروج إلى طريق الفلسفة فهو من حسنات الشاعر، وحسب الناقد سقوط حجة أن يعيب مثل قوله:

إلف هذا الهواء أوقع في الأنـ ـفس أن الحِمام مرٌّ المذاق ... إلخ

إن الشعر في حاجة إلى من يسمو به إلى مستوى الفلسفة، والنظر البعيد الشامل، ويصور به المسائل العويصة، وليست الفلسفة منافية للشعر. كل قضايا الفلسفة، وكل حقيقة في هذا العالم تدخل في الشعر إذا صبغها الإنسان بعاطفته فأبان بها عن حزن أو ألم أو تعجب أو حيرة، وانظر قول المعري:

فالهلال المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والماء
والثريا والنار والنثرة والأ رض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ما عابك في قول ذلك الحكماء

لم ينفر الشعر من هذه الحقائق حين أعرب بها الشاعر عن شعوره الديني. وأدخل من هذا في الطبيعة قوله:

وأرى الأربع الغرائز فينا وهي في جثة الفتى خُصَماء
إن توافقن صح أو لا فما ينفك فيه الإمراض والإغماء

وقوله:

الخلق من أربع مجمعة   ماء ونار وتربة وهوا

فقد صار هذا شعرًا حين عبر به الشاعر عن سخطه على الحياة أو جعله مقدمة لهذا التعبير، ومن الذي يُخرج من الشعر قول الشاعر:

أشاب الصغير وأفنى الكبير   كر الغداة ومر العشي
إذا ليلة هرمت يومها   أتى بعد ذلك يوم فتي
نروح ونغدو لحاجاتنا   وحاجة من عاش لا تنقضي

وقول زهير:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله   ولكنني عن علم ما في غد عمي

كل هذا من الشعر لأنه يترجم عن عاطفة من عواطف الإنسان يوقظها النظر في هذا العالم، وهذا بيان واسع لو اتسع المقام.

وخلاصة القول فيه أن حقائق العالم إذا ذكرها الإنسان لإثباتها كما هي فهي من العلم وليست من الشعر في شيء، وإذا ذكرها متصلة بعاطفته أو مصورة بخياله صلحت أن تكون شعرًا، اعتبر هذا في الشعر والنثر يتضح صدقه، وكم ربح الشعر مما يسمى فلسفة في شعر أبي تمام وأبي الطيب والمعري.

القسم الثالث من مآخذ الثعالبي

عد الثعالبي عيوبًا جمعتها في هذا القسم، وأدمجت بعضها في بعض فهي ضربان:

(١) قبح المطلع والمقطع واستكراه التخلص، كقوله في المطالع:

هذهْ برزتِ لنا فهجت رسيسا   ثم انثنيت وما شفيت نسيسا

* * *

أحــادٌ أم ســداس فــي أحــاد   لـيـيـلـتـنـا الـمـنـوطـة بـالـتـنـادي

* * *

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه   بأن تُسعدا، والدمع أشفاه ساجمه

وقوله في المقاطع:

لو لم تكن من ذا الورى اللذمنك هو   عـقـمـت بـمـولـد نـسـلـهـا حـواء

* * *

لـو الـفـلـك الـدوار أبـغـضـت سـعـيـه   لـعـوقـه شـيء عـن الـدوران

والمطالع والمقاطع كغيرها من الأبيات في تقدير الحسن والقبح، وميزها النقاد من غيرها؛ لأنها أول ما يسمع مستمع الشعر وآخر ما يسمع؛ فكان لها في النفس من الأثر أكثر من سائر الأبيات، ولأن القصائد يغلب فيها المدح، وآداب مخاطبة الممدوح في مطلع الكلام وفي مقطعه كان لها في عناية القدماء نصيب كبير.

والتعقيد في مطالع أبي الطيب ومقاطعه يرجع إلى ولوعه بأن يبتدئ بشيء عجيب، وإلى هذا الولوع بالإغراب يرجع كثير من العيوب التي تقدم الكلام فيها، وهذا أيضًا ضرب يندر فيما بعد شعر الشباب.

والضرب الثاني سماه الثعالبي، إساءة الأدب بالأدب كقوله:

فغدا أسيرًا قد بلت ثيابه   بدم وبل ببوله الأفخاذا

وقوله في رثاء أم سيف الدولة:

بعيشك هل سلوت فإن قلبي   وإن جاورت أرضك غير سال

وفي رثاء أخته:

وهل سمعتَ سلامًا لي ألم بها   فقد أطلتُ وما سلمتُ عن كثب

قال الثعالبي وما باله يسلم على حرم الملوك ويذكر منهن ما يذكره المتغزل في قوله:

يعلمن حين تحيا حسن مبسمها   وليس يعلم إلا الله بالشنب

وكان أبو بكر الخوارزمي يقول: لو عزاني إنسان عن حرمة لي بمثل هذا لألحقته بها وضربت عنقه على قبرها.

ويمكن أن يزاد على هذا أمثلة أخرى كقوله في مدح محمد بن سيار:

قسا فالأسد تفزع من يديه   ورق فنحن نفزع أن يذوبا

وقوله في مدح بدر بن عمار:

أُشفق عند اتقاد فكرته   عليه منها أخاف يشتعل

وقد جاء مثل هذا في قوله لسيف الدولة مشيرًا إلى تركه وقصد كافور:

ومن ركب الثور بعد الجواد   أنكر أظلافه والغبب

وهذا في رأيي يرجع إلى شيء من الخشونة في طبع الشاعر، وإلى جرأة وكبرياء يهونان عليه خطاب الناس دون احتراز، وتسوية نفسه بمن يمدحه، فهي ترجع إلى الأخلاق والآداب أكثر مما ترجع إلى الشعر، ولعل فيها خروجًا محمودًا على السنن الذليلة التي سار عليها الشعراء المتقدمون.

بقي من المساوئ التي عدها الثعالبي اثنتان:

(١) التفاوت في شعره أو كما قال الثعالبي تبعًا للصاحب: إتباع الفِقرة الغراء بالكلمة العوراء، والإفصاح بذلك في شعره عن كثرة التفاوت وقلة التناسب وتنافر الأطراف وتخالف الأبيات.

وليس هذا عيبًا منفردًا، فالمساوئ التي تقدم الكلام فيها إذا وقعت في شعر شاعر مجيد، فإنما تقع بعد الفقر الغراء فيكون التفاوت وقلة التناسب، وتأويل هذا أن شعر المتنبي يبلغ في جملته مكانة من الفصاحة والبلاغة لا ينتظر السامع أو القارئ فيها

هذه العيوب، فإذا وقعت كانت كعثار السائر، أو هوي الطائر أو كرقعة في ثوب قشيب، فيظهر التفاوت الذي راع النقاد.

(٢) والإيضاح عن ضعف العقيدة ورقة الدين: وهذا لا يتعلق بالشعر، وقد أدرك الثعالبي ذلك فقال:

> على أن الديانة ليست عيارًا على الشعراء، ولا سوء الاعتقاد سببًا لتأخر الشاعر.

وأنا أشفق هنا من التعرض لنظرية الفن للفن ونظرية الفن للمقاصد الإنسانية العالية، فليس هنا مجال القول فيها، وأبو الطيب لم يعن بالدين في شعره عناية تسوغ لنا التوسع هنا في الكلام في دينه وشعره، والاستطراد إلى نظريات النقاد.

وقد بينت رأيي آنفًا في دين أبي الطيب.

(٢) المحاسن التي ذكرها الثعالبي

وأما المحاسن التي عدها الثعالبي، وهي إحدى وعشرون، فليست عندي ذات بال، فكل شاعر عظيم ينبغي أن يكون شعره كله محاسن إلا ما يقع بين الحين والحين من هفوة أو تقصير، وإن كانت مساوئ الشاعر العظيم معدودة فمحاسنه ينبغي أن تأبى على العد، ولكني أعدد هنا ما ذكره الثعالبي من المحاسن لفائدتين: أن يقف القارئ على رأي الثعالبي وأمثاله في مناقب الشاعر بعد أن عرف رأيهم في مثالبه، وأن أنبه إلى ما هو جدير بالعناية منها، وهو ما يحسب من خصائص الشاعر وأسلوبه البدع تمهيدًا للكلام عن مزاياه وخصائصه في الفصل الآتي:

وأخالف ترتيب الثعالبي، وأجمع الأشباه معًا إيثارًا للإيجاز:

(١) حسن المطلع والتخلص والمقطع.

وهذا يقابل ما أخذ عليه من القبح في هذه الثلاثة، والإحسان فيها أصل والإساءة استثناء.

(٢) وحسن التقسيم وحسن سياقة الأعداد.

وقد مثل للأول بأمثلة منها:

ضاق الزمان ووجه الأرض عن ملك ملء الزمان وملء السهل والجبل
فنحن في جذل، والروم في وجل والبر في شغل، والبحر في خجل

ومن أمثلة الثاني:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

(٣) والإبداع في سائر مدائحه، وحسن التصرف في مدح سيف الدولة بجنس السيفية، والمدح الموجه، والإيجاع في الهجاء، وحسن التصرف في الغزل، وافتضاض أبكار المعاني في المراثي والتعازي.

(٤) وحسن التشبيه بغير أداة التشبيه، والإبداع في سائر التشبيهات والتمثيلات.

(٥) والتمثيل بما هو من جنس صناعته.

يريد الثعالبي بهذا ذكر الشاعر الحروف الهجائية واصطلاحات النحو ... إلخ، في مثل قوله:

نتاج رأيك في وقت على عجل كلفظ حرف وعاه سامعٌ فَهِم

وقوله:

حولي بكل مكان منهم خلقٌ تُخطِي إذا جئت في استفهامها بمَن

وقوله في مدح سيف الدولة:

أول حرف من اسمه كتبت سنابك الخيل في الجلاميد

وسيف الدولة اسمه علي، فسنابك الخيل لها في الصخر أثر كرأس العين.

(٦) والنسيب بالأعرابيات.

(٧) ومخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب والصديق مع الإحسان والإبداع.

(٨) واستعمال ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب.
(٩) وإرسال المثل في أنصاف الأبيات، وإرسال المثلين في مصراعي البيت الواحد.
(١٠) وإرسال المثل والموعظة وشكوى الدهر والدنيا والناس وما يجري مجراها.

هذا إجمال ما عده الثعالبي ويهمنا منها النوع الخامس فما بعده إلى العاشر وستأتي أثناء الفصل الآتي.

ويرى القارئ أن الثعالبي لمح دررًا منثورة لم ينظمها في سلك، وزهرات متفرقة لم يجمعها في باقة، بل رأى في العقد حبات متفرقة وفي الروضة زهرات متباعدة، ومع هذه المحاسن محاسن لم يذكرها النقاد، ووراء هذه وهذه مزايا أنتجتها، وخصائص في طبع الشاعر أدت إليها، وهذا موضوع الفصل الآتي.

الفصل الرابع

رأيي في شعر أبي الطيب وخصائصه

(١) مقدمة

البيان كله تصوير وتعبير عما يُدرك الإنسان في هذا العالم من أشياء حسية وأمور معنوية، فللبيان أركان ثلاثة: المعنى الذي يُدرك، والصورة التي يُصور فيها، واللفظ الذي ينقل هذا المعنى وصورته إلى السامع والقارئ.

(١-١) الركن الأول: المعاني المدركة

كل ما في هذا العالم سمائه وأرضه من حقائق آفاقية ونفسية، تصلح أن تكون موضوعات للبيان البليغ نظمه ونثره، إن وصلها الإنسان بنفسه فصبغها بعاطفته أو صورها بخياله، أو جلاها وفصلها بصنعته، والناس يختلفون فيما يدركون قلة وكثرة، وضيقًا وسعة، وإجمالًا وتفصيلًا، وكلما اتسع علم الإنسان بحقائق العالم وأحواله اتسع مجال البيان عنده، وكثرت موضوعات البيان ومعانيها لديه، فكان أشمل بيانًا وأقدر على أن يخاطب النفوس المختلفة من العلماء والجهال، والخاصة والدهماء، وكان بيانه أكثر اتصالًا بحقائق العالم، وأوفى نصيبًا من الخلود.

اختلاف الموضوعات في صلتها بالإنسان

ثم الموضوعات التي يعالجها البيان، هذه الحقائق النفسية والآفاقية التي هي مادة النظم والنثر، تختلف في اتصالها بالإنسان: منها ما هو محكم الاتصال بشعوره وعاطفته، ومنها ما هو أضعف صلة بالعاطفة والشعور.

وهي في هذا تتوالى من مركز الدائرة إلى محيطها، والشعر والنثر في هذا مختلفان، الشعر أقرب إلى المركز وأشد اتصالًا بالعاطفة، والنثر أقرب إلى المحيط وأبعد عن المركز، وكلاهما تحيط به هذه الدائرة التي تشمل حقائق العالم كلها موصولةً بعاطفة الإنسان وشعوره.

فقول أبي العلاء المعري:

الخلق من أربع مجمعة نار وماء وتربة وهوا

دخل في الشعر لأنه لم يُرد تبيين عناصر العالم والإنسان كما يبينها عالم طبيعي؛ بل وصلها برأيه في ضعف تركيب العالم، وتعرضه للانحلال والفناء، كما قال:

وأرى الأربع الطبائع فينا وهي في جثة الفتى خصماء
إن توافقن صح أو لا فما ينـ ـفك عنها الإمراض والإغماء

لم يبين هنا أمزجة الإنسان تبيين طبيب، ولكنه جعل هذا البيان وسيلة إلى قوله فيما يقاسيه الإنسان في الحياة من السقام والآلام.

وقول القائل:

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تُمسي
وطلوعها حمراء صافية وغروبها صفراء كالوَرْس

يدخل في الشعر بأن قائله لم يرد بيان المظاهر الطبيعية حين طلوع الشمس وغروبها، ولكن يريد بيان فناء الإنسان على مر الزمان. وإن تكلم جغرافي في طلوع الشمس وغروبها، وبين سبب احمرارها حين الطلوع واصفرارها حين الغروب، وفصل القول في هذا تفصيلًا لم يدخل كلامه في دائرة الشعر، لانفصاله عن الإنسان عاطفته وخياله.

ثم انظر هذه الأمثلة:

قول زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومه يُستغن عنه ويُذمم

وقول عنترة:

وإذا صحوت فما أقصر عن ندًى   وكما علمتِ شمائلي وتكرُّمي

وقول أبي الطيب:

وإذا كانت النفوس كبارًا   تعبت في مرادها الأجسام

تجد في هذه الأمثلة كلها بيان حقائق نفسية واجتماعية لم تخلقها العاطفة والخيال ولكنها متصلة بعاطفة الإنسان مؤثرة في نفسه وإن لم يبين هذا الاتصال وهذا التأثير في الكلام.

ثم انظر في قول بشار:

فراحوا فريقٌ في الأسار، ومثله   غريق، ومثلٌ لاذ بالبحر هاربُه

وقول ابن المقفع:

ابذل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامة بشرك وتحننك، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد.

وهذه القصة:

دخل أبو العيناء على أبي الصقر فقال له: ما أخرك عنا؟

قال: سُرق حماري، قال: وكيف سُرق؟ قال: لم أكن مع اللص فأخبرك.

قال: فلِمَ لَمْ تأتنا على غيره؟ قال: قعد بي عن الشراء قلة يساري، وكرهت ذلة المكاري، ومِنة العواري.

لا تجد في هذه الأمثلة إلا أمورًا كشف عنها القائل إخبارًا أو طلبًا وهي، على هذا، بيان جيد ذو أثر في النفس، دعوةً إلى الخير، أو روعة بالحجة القوية والتصوير المبين.

وهذه أمثلة أخرى:

قول عنترة في القصيدة التي فيها البيت الذي أثبتناه آنفًا:

ولقد ذكرتك والرماح كأنها — أشطان بئر في لبان الأدهم
ولقد ذكرتك والرماح نواهل — مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها — لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وقول بشار في القصيدة التي منها البيت الذي مثلنا به آنفًا:

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى — وبالشوك والخطي، حمرٌ ثعالبه
برزنا له والشمس في حجر أمها — تطالعنا والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه — وتدرك من نجى الفرار مثالبه

وقول أبي الطيب:

وقد تمنوا غداة الدرب في لجب — أن يُبصروك، فلما أبصروك عموا
صدمتهم بخميسٍ أنت غرته — وسمهريته في وجهه غمم
فكان أثبت ما فيهم جسومهم — يسقطن حولك، والأرواح تنهزم

فالتصوير في هذه الأمثلة أروع والعاطفة فيها أبين والخيال فيها عجيب، فهي أقرب إلى مركز الشعر من الأمثلة السابقة، وكلٌّ شعرٌ أو نثر بليغ.

ربما يكون التأثير بغير تخييل، ولا تبيين للعاطفة، ولكن بإثارة العاطفة أو التأثير في النفس بالصورة أو القصة.

انظر قول مجنون ليلى:

وأخرج من بين الجلوس لعلني — أحدث عنك النفس، يا ليل، خاليا

وإني لأستغفي وما بي غفوةٌ　　لعل خيالًا منك يلقى خياليا

فهو لم يقل أنا محب موله، ولا شكا تبريح العشق به، ولعله وصف حقيقة ليس للخيال فيها عمل، ولكنه دل بهذه الحركات على ما وراءها من حب وشغف ووله.

وكذلك قول ذي الرمة:

عشية ما لي حيلة غير أنني　　بلقط الحصى، والخط في الترب مولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيده　　بكفي والغربان في الدار وقع

فهو لم يزد على أن وصف حالًا تقع كثيرًا في البادية، وربما يعانيها كثير ممن لا يستطيعون الإبانة عنها بالشعر، ولكنه دل بهذا الوصف على ما في نفسه، كما يدل الوجه الواجم، والطرف الساجم، والثغر الباسم، وهكذا يطرد القول في هذا الشأن، وتكثر الأمثلة إلى غير نهاية.

ويؤثر عن أبي العلاء المعري أنه قال: أبو تمام والمتنبي حكيمان، وإنما الشاعر البحتري.

وتأويل هذا أن شعر البحتري أدخل في العاطفة وألصق بالوجدان من شعر أبي تمام والمتنبي، فجانب العقل في شعرهما أبين منه في شعر الوليد، والعاطفة في شعرهما لا تبلغ مبلغها في شعره، ويبقى للحكمة قدرها في شعرهما.

ولا ريب أن أبا تمام والمتنبي شاعران كبيران وأبو العلاء المعري أول من يعترف بشعر أبي الطيب، ولكن تأويل كلام المعري ما قلت.

ويمكن أن يقال على نسق ما قلت آنفًا: إن شعر أبي عبادة أقرب إلى مركز الدائرة الشعرية من شعر أبي تمام وأبي الطيب.

اختلاف التأثير باختلاف الموضوع

فموضوعات الأدب تختلف اتصالًا بالنفس الإنسانية فتختلف تأثيرًا فيها، يختلف تأثير الشاعر والكاتب باختلاف الموضوع، فالشاعر الذي يعالج موضوعًا شديد الاتصال بعواطف الإنسان كالرثاء، يؤثر في النفوس أكثر ممن يعالج موضوعًا آخر كالوصف، وإن كان بيان الواصف أقوى وأوضح من بيان الراثي.

فالشاعر الذي يعالج الموضوعات التي لا تثير حزن الإنسان ولا طربه ثم يجيد فيها ويروع بها، هو، في أكثر الأحيان، أشعر ممن يؤثر في الناس بمعالجة الموضوع الذي هو ألصق بالعاطفة، وأكثر إثارة للنفس، فينبغي أن يقدر هذا قدره حين النظر في الشعر، والموازنة بين الشعراء، والذين يعالجون الهزل والفكاهة في الشعر، أو يتناولون موضوع الشهوات فيلمسون مواضع الحساسية في نفس الإنسان، هؤلاء يؤثرون بالموضوع أكثر مما يؤثرون بصنعة البيان.

فأصحاب الأدب الذي يسمى «الأدب المكشوف» لا يثيرون الناس ببلاغتهم، ولكن بموضوعهم، وهذه طريقة يسيرة، ومتاع رخيص للتلبيس على الناس وتزيين الشعر بإحساسهم لا ببلاغة الشاعر.

إن أصحاب الأدب المكشوف يصفون أمورًا وأحوالًا إن وصفها متكلم عيي، في غير صناعة من النظم والنثر، وجد من يصغون إليه ويعجبون بقوله، ويطربون به، فكيف إذا مسها الشاعر بخياله وتصويره وحلاها بالوزن والقافية.

في الموضوعات جليل وحقير، وجميل وقبيح، وجد وهزل، ونافع وضار، ومصلح ومفسد، ولست أعرض هنا لنظريات النقاد في وصل الأدب بالأخلاق وفصله عنها، فليس هذا موضعه؛ ولكن أقول: إن الموضوعات التي يعالجها شاعر لها دخل في تأثيره في النفوس، مع اختلاف النفوس ونزعاتها، وتفاوت هممها ومطالبها.

وفي موضوعات الشعر مألوف مطروق ذلله الشعراء، وألف الناس معانيه وصوره وعباراته، وفيها الغُفْل الذي لم يصقله الشعر، والأنف الذي لم يسبق إليه شاعر، وفيها ما قل السابقون إليه.

والموضوع الأنف لا يذلله إلا شاعر مبتكر مخترع متصرف في التصوير والتعبير، هو يدرك المعاني، وهو يصورها، وهو يتحيل للإبانة عنها ويتلطف، ولعل الناس يتلقونه بالاستغراب، أو يعدونه غامضًا بعيد المعنى، فإن كثيرًا من معاني الشعر في الموضوع المطروق المعتاد، يعين على فهمها الإلف والتعود وإن قصر اللفظ عنها؛ فالسامع والقارئ يعرفان أن الشعراء في مثل هذا الموضع يقصدون إلى هذا المعنى، وكثيرًا ما يفهم المعنى قبل تمام عبارته، وكثيرًا ما اعترض النقاد على شاعر بأنه لم يجر على ما تعود الشعراء في هذا المقام، ولم يسلك مسلكهم.

وليس الأمر كذلك في شاعر معتد بنفسه يهجم على الموضوع الغريب والمعنى البعيد، ويطوع له الألفاظ، ويبين عنه بحسن تعبيره ولطف تصرفه.

فليقدَّر هذا في الموازنة بين الشعراء كذلك.

اختلاف الإدراك في الشيء الواحد

ثم إدراك الناس مختلف فيما يعرض لهم من المرائي والأفكار، وفيما يفكرون فيه من الحسيات والمعنويات، وفي هذا يمتاز الشاعر والكاتب من غيرهما، فنظرة الشاعر إلى شيء تنفذ إلى معان خفية، وتصل إلى معان أخرى متصلة به، لا يدركها من لم يؤت موهبة الشعر، والشعراء فيما بينهم في هذا مختلفون؛ يختلفون في النفاذ من الظواهر إلى البواطن، وفي سلسلة المعاني بعضها من بعض.

يرى إنسان غرابًا يزق فرخيه في عشه فلا يرى غير الغراب والفرخين والعش، وينظر آخر فيرى ما في فعل الغراب من العناء والكد والإيثار، ويفكر كيف بنى الغراب عشه محكمًا في مهب الرياح، وكيف طلب الرزق بين الآفات والمهالك فرجع به إلى فرخيه، ولعل فكره يمتد إلى قياس هذا الطائر بالإنسان، وإلى ما سلط على الطير من الناس وهلم جرًّا.[1]

وأضرب مثلًا آخر: حمالًا شيخًا ضريرًا يقوده صبي، وقد انحنى ظهره تحت حمله، رأيته في مدينة بغداد. من الناس من يرى الحمال الضرير فيشفق عليه فحسب، ومنهم من يثير فيه هذا المرأى معاني شتى وينفذ فكره إلى ما وراء هذا المنظر من ضرورات اضطرت هذا الشيخ الضرير إلى الحمل، ويتصور ما يعتلج في نفسه من آلام وهو يفكر في عيشه بين ضرورات قاهرة وشيخوخة وضرارة جديرتين بالراحة، ويتصل فكره بنظام الجماعة التي وكلت هذا الرجل إلى نفسه، وقسوة الناس، وذهاب الرحمة والمروءة من نفوسهم وهلم جرًّا.

ومثل آخر: زهرة ناضرة مشرفة على جدول لا يرى فيها البستاني إلا زهرة قريبة من الماء، ويرى فيها راءٍ آخر نضرة الحياة والشباب ويمتد فكره إلى ما وراء هذه النضرة فيتخيل ذبولها وسقوطها ويرى في صورتها التي تبدو في الماء وتخفى صور الآمال الكاذبة، والخيالات الذاهبة، ويستطيع أن يكتب مقالًا عنوانه «زهرة على جدول» أو ينظم أبياتًا كهذه:

[1] انظر ديوان المثاني للمؤلف.

يا زهرة في ضفاف الماء ناضرة يهتز فيها شباب جد مفتون
وللنسيم على أوراقها عبث يبين الحسن فيه كل مكنون
تطالع الماء تبغي فيه صورتها تردها الريح عنه رد مغبون
ويُنفذ الدهر فيها حكمه فإذا شتى الوريقات بين الماء والطين
أين الشباب الذي راقت نضارته ورفرفت فوقه أحلام مجنون؟
أنضرة الزهر لم تثبت لناظرها أم صورة الماء بين الحين والحين

وهكذا يستطيع كاتب أن يوالي الأمثلة في هذا العدد ليبين كيف يتفاوت إدراك الناس، وكيف ينفذ البيان البليغ إلى بواطن الأشياء، وكيف يفسر المرأى المحدود أو الفكرة الصغيرة تفسيرًا يبين عما لا يخطر على بال من لم يؤت النظر الثاقب والطبع الشاعر.

وفي هذا، في الحق، يمتاز الشعراء والكتاب من غيرهم، ويمتازون فيما بينهم، ويرقى بعضهم فوق بعض درجات.

(١-٢) الركن الثاني: التصوير

الشاعر يدرك حقائق كثيرة في هذا العالم، حقائق نفسية أو آفاقية ويعبر عنها كما هي، أو يصورها بخياله صورًا شتى، وهذه الصور معان يقصد إليها الشاعر، وهي مادة شعره وموضع ابتكاره وتصرفه، فلا تحسبن أنها ليست إلا وسائل لبيان معنى أصيل عناه الشاعر، فهي حينًا تشارك المعنى الأصيل في عناية الشاعر واحتفاله، وحينًا تنال من قصد الشاعر واهتمامه النصيب الأوفر، وحينًا تستأثر بقصد الشاعر كله فلا يُعنَى إلا بهذه الصورة المتخيلة.

وأضرب مثلًا قول بشار:

برزنا له والشمس في حجر أمها تطالعنا والطل لم يجر ذائبه

أراد الشاعر أن يقول: برزنا للقاء عدونا حين شروق الشمس فقال: والشمس في حجر أمها تطالعنا، فهذه الصورة التي تخيلها للشمس وهي في الأفق كالوليد في حجر أمه، وهي تطالعهم كما يطالع الطفل شيئًا كبيرًا رائعًا يستبد بنظره، هذه الصورة أبلغ أثرًا في نفس الشاعر والقارئ.

ومثل آخر قول مسلم بن الوليد:

وطار في إثر من طار الفرار به ... خوفٌ يعارضه في كل أخدود

المعنى الأصيل هنا أن جند العدو فروا خائفين، فكلما رأى أحدهم أخدودًا أشفق أن يكون فيه كمين.

فانظر كيف صور هذا في طراد كما يطرد الصقر الحمامة، فهذا طائرٌ خوفًا، والخوف طائر وراءه، وكلما رأى أخدودًا اعترض الخوف طريقه فخيل إليه أن به كمينًا.

فالمعنى الأصيل أفاده الكلام، وكأنه أفاده عرضًا، وشغل السامع والقارئ بهذه الصورة العجيبة المخيفة.

وتأمل في قول مسلم أيضًا:

ومجهل كاطراد السيف محتجز ... عن الأدلاء مسجور الصياخيد
تمشي الرياح به حسرَى مولهة ... حيرَى تلوذ بأكناف الجلاميد

فإن يكن قبل الصورة التي في البيت الثاني معنى أصيل فهو اضطراب الرياح في هذا المجهل وحيرتها فيه، وجائز أن يكون الشاعر قصد معنى غير هذه الصورة التي تخيلها، تخيل الرياح في هذا المجهل المشتعل المتشابه ضالة طريقها حائرة، جازعة من حره تلوذ بجوانب الصخور تتقي بظلالها مس الشمس أو تستريح من الكلال والضلال.

وقول أبي الطيب الذي مر آنفًا:

صدمتهم بخميس أنت غرته ... وسمهريته في وجهه غمم

إن يكن الشاعر قصد إلى الدلالة على تقدم سيف الدولة الجيش، وعلى كثرة الرماح — ولعله لم يبال بهذين — فلا ريب أن همه الأول كان إظهار هذه الصورة الرائعة التي تمثل الجيش وجهًا غرته سيف الدولة، ورماحه غمم في هذا الوجه، كالوجه الأغم يكثر الشعر على جبهته.

وهكذا تجد هذه الصورة الشعرية لها مكانة في نفس الشاعر والسامع والقارئ مع المعنى الأصيل، أو لها المكانة الأولى، أو قصد إليها وحدها الشاعر، ولم يبال بمعنى غيرها.

ولست في حاجة إلى موالاة الأمثال، وتكثير الشواهد في هذا الشأن.

البلاغة في المعاني أو الألفاظ

ولا أعرض هنا للموضوع الذي طال فيه الجدال بين بعض الأدباء في القديم والحديث، وهو أن بلاغة الكلام في لفظه أو معناه، لا أجد هذه المقدمة القصيرة التي أقدمها قبل الكلام في شعر أبي الطيب، تقتضي الكلام في هذا الموضوع، ولا أراها تتسع له.

وحسبي أن أقول: إن أكبر ظني أن الذين قالوا: إن البلاغة في الألفاظ عدوا من الألفاظ هذه الصور الشعرية التي ذكرت، حسبوا ما عدا المعنى الأصلي الغُفْل، من قبيل الألفاظ فقالوا: إن بلاغة الكلام في اللفظ، وإلا فكيف تسنى لهم أن يدعوا هذه الدعوى فيقطعوا الكلام عن معانيه، ويقوموه بألفاظه.

يقول ابن خلدون في المقدمة:

> فالمعاني موجودة عند كل واحد، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى، فلا تحتاج إلى صناعة. وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه، وهو بمثابة القوالب للمعاني، فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف، والماء واحدٌ في نفسه، وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء؛ كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال، تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد، والمعاني واحدةٌ في نفسها.

لا نقبل قول ابن خلدون: إن المعاني موجودة عند كل واحد … فالناس متفاوتون في إدراك المعاني تفاوتًا لا يُحد، ثم لا نقبل أن جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال والمعاني واحدة في نفسها إلا أن يكون ابن خلدون قد جعل الصور الشعرية التي يفتن فيها الشاعر من قسم الألفاظ، وقصر المعاني على المعاني الأصيلة الغفل، فإذا استوى اثنان في إدراك معنى امتاز أحدهما عن الآخر بالتصوير الذي يعده ابن خلدون ومن ذهب مذهبه، من تأليف الكلام لا من المعاني.

لا يستقيم هذا الكلام إلا على هذا التأويل.

(١-٣) الركن الثالث: العبارة

يبقى من أركان البيان اللفظ بمعناه الحق، أي الأصوات التي يستعين بها الإنسان على الإعراب عما في نفسه، العبارة التي يعبر بها عن المعنى الأصيل الساذج أو المعاني الشعرية التي سميتها الصور آنفًا، يبقى من أركان البيان بعد ما قدمت الركن الذي يتغير بنقل الكلام من لغة إلى أخرى لا المعاني والصور التي يمكن المحافظة عليها في اللغات المختلفة.

لكل لغة ألفاظها، ولكل لغة تركيباتها وأساليبها، ولا يستقيم البيان إلا بأن تسير الألفاظ مفردة ومركبة على سنن لغتها، وبأن تسلم من الحوشية ومن التعقيد ويتوافر حظ الكلام من الدقائق التي يدل عليها نظم الكلام في اللغة التي ينشأ فيها، ولا ريب أن لمفردات الكلام ومركباته وتأليفه نصيبًا من بلاغته كبيرًا.

وقد تبين لي هذا، وانجلى دون حجاب حين قست شعر شاعر واحد في لغتين هو في إحداهما أمكن منه في الأخرى، فعند الشاعر العلم بالحقائق، والقدرة على البيان، والمهارة في التصوير، لا تختلف فيما ينظم بهذه اللغة أو تلك؛ ولكن خبرته باللغة وبصره بدقائقها ودربته عليها، تختلف باختلاف اللغتين، فهذا ثبت أن للألفاظ والنظم مكانتهما في البلاغة.

قرأت شعر الشيخ سعدي الشيرازي بالفارسية، وقرأت قصائد له باللغة العربية فرأيت اختلاف الشعر رصانة وانسجامًا وجمالًا وروعة، وكذلك كل من ينظم في لغتين هو أقدر في إحداهما، تجد في شعره دليل هذه الدعوى، وفي هذا الموضوع دقائق خفية، ومعان بعيدة لا يدركها إلا النظر الثاقب والذوق الدرَّاك.

وبعدُ فالكلام كله ألفاظه ومعانيه الأصيلة، وصوره الشعرية، وحقائقه ومجازاته وألفاظه وأساليبه؛ كل أولئك نغمات في لحن واحد، إن اختلت إحداها وقع الخلل في اللحن كله.

فالمعنى القيم، إن لم يحسن تبيينه، ولم يجوَّد تصويره، أو أحسن تبيينه وأجيد تصويره ولم يُحسَن التعبير عنه بخلل في اللفظ أو التركيب أو التأليف، لم يقع في البلاغة موقع القبول؛ بل البيت القيم الذي استوفى كل الأوصاف المعنوية أو اللفظية إن أنشده منشد فلحن فيه أو أخل بوزنه نفر السامع من الخلل الطارئ على لسان المنشد، وإن كان السامع عرف البيت من قبل وحفظه.

الكلام موسيقى مؤتلفة، وأنغام مجتمعة، يذهب الخلل في جانب منها بجمالها، ويشيع الشذوذ من أحد أجزائها في سائر الأجزاء.

والشاعر المفلق هو الذي تلتئم معانيه ومجازاته وألفاظه وأسلوبه وأوزانه وقوافيه التئام الموسيقى المحكمة، تحس جمالها، وتعترف بروعتها، ولا تقول إن نبرة بعينها أو جرسًا واحدًا أو نغمة مفردة، مصدر هذا الجمال، وتلك الروعة.

(٢) نظرات في شعر أبي الطيب

ننظر، بعد هذه المقدمة، في شعر هذا الشاعر لنرى الموضوعات التي آثرها واحتفل بها وافتن فيها أكثر من غيرها، وهي الموضوعات التي وافقت نفسه، ولاءمت همته وطموحه … ثم نرى كيف عالج هذه الموضوعات إيضاحًا وتصويرًا وتعبيرًا.

(٢-١) موضوعاته

عالج أبو الطيب موضوعات الشعر التي عالجها شعراء العرب، ولكنه آثر من بينها موضوعات برز فيها، وعُرف بها وعُرفت به، وقد ألم بها الشعراء ولم يستوعبوها استيعابه ولم يكلفوا بها كلفه، ولا أجادوا إجادته.

وهي موضوعات ترجع في جملتها إلى القوة والإباء والطموح إلى المعالي، والإقدام والترفع عن الدنايا، كما ترجع إلى الحكمة الأخلاقية والاجتماعية.

الأمثال في شعره

وهذا الشاعر لاعتداده بنفسه، وتعويله على رأيه، واقتداره على البيان والإيجاز، صاغ كثيرًا من أقواله كلمات جامعة وأجراها مجرى الأمثال في الحكم والأخلاق، كقوله:

مصائب قوم عند قوم فوائد   وربما صحت الأجسام بالعلل

* * *

وخير جليس في الزمان كتاب   وتأبى الطباع على الناقل

* * *

ولكن طبع النفس للنفس قائد   إذا عظم المطلوب قل المساعد

* * *

أنا الغريق فما خوفي من البلل   ليس التكحل في العينين كالكحل

وقوله:

وكل امرئ يُولي الجميل محبب   وكل مكان ينبت العز طيب

* * *

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

وقوله:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعُلى   مضر كوضع السيف في موضع الندى
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم   ومَن لك بالحر الذي يحفظ اليدا

وقد ألف الصاحب بن عباد، على أنه لم يكن من محبي أبي الطيب، رسالة لفخر الدولة بن بويه جمع فيها من شعر الشاعر زهاء سبعين وثلاثمائة بيت تجري مجرى الأمثال، وقال في مقدمتها:

> وهذا الشاعر على تميزه وبراعته وتبريزه في صنعته، له في الأمثال خصوصًا مذهب يسبق به أمثاله.

أدرك أبو الطيب الحكمة بفكره، وصاغها أمثالًا ببيانه فسارت في الأدب ثروة للمتأدبين ومددًا للمتمثلين.

أولع أبو الطيب بهذه الموضوعات وهي في جملتها ترجع إلى الحكمة والحماسة فخص بها قصائد وكررها في قصائد المدح:

فالقصائد التي اختصها بهذه الموضوعات، اثنتا عشرة قصيدة هي أحسن شعره بما كانت أدل على ما في نفسه إذ نظمها للإعراب عما يكنه لا مادحًا ولا هاجيًا وهي:

من قصائد الصبا:

كم قتيل كما قتلت شهيد   لبياض الطُّلَى وورد الخدود

* * *

قفا تريا وَدْقِي فهاتا المخايلُ   ولا تخشيا خُلْفًا لما أنا قائل

* * *

ضيف ألم برأسي غير محتشم   السيف أحسن فعلًا منه باللمم

* * *

عذيري من عذارَى من أمور   سكنَّ جوانحي بدل الخدور

* * *

ألا لا أُرى الأحداث مدحًا ولا ذمًّا   فما بطشها جهلًا ولا كفها حلما

* * *

إذا غامرت في شرفٍ مروم   فلا تقنع بما دون النجوم

ومن القصائد السيفية:

وا حرَّ قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمي وحالي عنده سقم

ومن القصائد المصرية:

بم التعلل؟ لا أهل ولا وطن   ولا نديم ولا كأس ولا سكن

* * *

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا   وعناهم من أمره ما عنانا

* * *

ملومكما يجل عن الملام   ووقع فعاله فوق الكلام

* * *

ألا كل ماشية الخَيْزَلَى فدا كل ماشية الهَيْدَبَى

ومن القصائد العراقية:

حتام نحن نُساري النجم في الظُّلَم؟ وما سُراه على خُف ولا قدَم

هذه قصائد نظمها الشاعر للإبانة عما في فؤاده لم يقصد فيها إلى مدح أو هجاء أو رثاء.

وقد ضمنت قصائد أخرى نظمت في موضوع من موضوعات الشعر المعتادة كثيرًا من الحكم والعبر والحماسة والفخر.

فمن قصائد الشباب:

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما يهب اللئام

والقصيدة:

لا افتخارٌ إلا لمن لا يُضام مدرك أو محارب لا ينام

التي يقول فيها:

واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تَضْوَى به الأجسام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام
ذل من يغبط الذليل بعيشٍ رب عيش أخف منه الحِمام

والقصيدة:

أطاعن خيلًا من فوارسها الدهر وحيدًا، وما قولي كذا ومعي الصبر؟

والقصيدة:

أقل فعالي بله أكثره مجد[٢]   وذا الجِد منه نلت أم لم أنلْ جَد

بهذه القصيدة وأمثالها يسمو أبو الطيب في موضوعه، وفي اعتزازه بالنفس، وإشادته بالكرامة، ودعوته إلى الحرية والعزة.

وإذا أردنا أن ننشئ شباب العرب على الأخلاق العالية، والشيم العزيزة التي تسمو بهم عن الدنايا، وتثبتهم على زلازل هذا العصر فبمثل هذا الشعر، تستحكم أخلاقهم، وتستحصد عزائمهم، ومثل أبي الطيب فليكن القدوة.

في هذه الموضوعات وهذه المعاني وما يتصل بها، ويمت إليها يسمو هذا الشاعر.

فهو يجيد الكلام في الفخر والحماسة وفي وصف الحرب وعددها من السلاح والخيل ووصف البيداء ومشقاتها وأهوالها ووصف الصيد، وهو ضرب من الحرب، ويعجب بالفتوة والقوة، وبالإقدام والغلب، وبالخشونة واقتحام المكاره، ومعاناة الشدائد.

(٢-٢) معانيه وصوره

أعرض هنا لبراعة أبي الطيب في إدراك المعاني وتصويرها، صلة بما قدمت في هذا الفصل.

ولا أستوعب الموضوعات التي شعر فيها أبو الطيب، بل أكتفي بموضوعين: موضوع يلائم طبعه وخلقه، وقد برز فيه وشهر به، وموضوع لا يجانس ما أثر من سيرته وطبعه. الأول الوصف عامة وفيه وصف الحرب، والثاني الغزل.

الوصف

الوصف، ولا سيما وصف الحسيات، من أصعب موضوعات البيان، الموصوف معروف بهيئته وأشكاله وألوانه، وعلى الواصف أن يبين عنه إبانة تمثله لمن لم يره، فهو ليس

[٢] كسر الراء في أكثره هو اختيار أبي الطيب. انظر طبعتي من الديوان.

طليقًا يسير مع خياله، ويتجنب وعر الكلام إلى سهله، ويفزع من ضيقه إلى سعته، بل خياله وصنعته في حدود من هذه الصورة الماثلة.

في الوصف يتفاوت الشعراء؛ يتفاوتون في إدراك دقائق الموصوف الحسية، ثم إدراك ما تبعثه في النفس من خيال وعاطفة سرور وحزن وعبرة، كما أبدع البحتري في وصف إيوان كسرى في القصيدة السينية النابهة، فأجال طرفه وقلبه في صور الإيوان، وغِيَر الزمان.

لا بد للواصف من حس مرهف، وخيال واسع، وفكر منظم، وبيان قوي.

وأبو الطيب يساير كبار الشعراء في الوصف حينًا، ويتخلف عنهم حينًا، حاشا وصف الحرب وما يتصل بها، وقد أخذ عليه الواحدي تخلفه في قطع عدها عليه مثل أبياته في وصف مجلس الورد عند ابن العميد، وأبياته في وصف رسالة جاءت من ابن العميد إلى أبي الطيب.

واعتذر العكبري عن أبي الطيب فيما آخذه به الواحدي بأن هذه المآخذ كلها في أبيات أنشئت ارتجالًا ولو لم تثبت في الديوان لكان خيرًا للشاعر.

وقد عُرف الأعراب بإجادة الوصف، وقوة الإبانة عما يرون، لحدة إحساسهم وسلامة فطرتهم ولحاجتهم إلى معرفة ما يحيط بهم، معرفة تمكنهم من سلوك السبل، وتخلل الشعاب والاهتداء إلى المواطن، وتتبع المياه والمراعي، وتجنب المخاطر.

وفي كتب الأدب من أوصافهم العجيب البليغ، وأكتفي بهذه القصة: روى أبو هلال العسكري في ديوان المعاني أن هشام بن عبد الملك قال لأعرابي لا يقرأ: انظر الميل، يعني كم على الحجر من عدد الأميال؟ فنظر ثم عاد فقال: «رأيت شيئًا كرأس المِحجَن، متصلًا بحلقة صغيرة، تتبعها ثلاث كأطْباء الكلبة تُفضي إلى هَنة كأنها قَطاة بلا منقار.»

ففهم هشام أنها خمسة.

وأبو الطيب، وهو يكاد يكون أعرابيًّا، من أدق الشعراء إدراكًا للموصوف وأقدرهم إبانة عنه، وثبت هذا في أوصافه الكثيرة، وصف بحيرة طبرية في القصيدة:

أحق عافٍ بدمعك الهمم أحدثُ شيءٍ عهدًا بها القدم

ووصف الأسد في قصيدة بدر بن عمار:

في الخد أن عزم الخليط رحيلًا مطر تزيد به الخدود محولا

ووصف السيف في قصيدة الروزباري:

كفرندي فرند سيف الجُراز لذةُ العين عُدة للبراز

وفي قصيدة ابن العميد الدالية، ووصف الصيد في طرديات أبي علي الأوراجي وابن طغج وعضد الدولة، ووصف خيمة سيف الدولة في القصيدة:

وفاؤكما كالربع، أشجاه طاسمه بأن تسعدا، والدمع أشفاه ساجمه

ولا أتعرض لوصف الجيش والحرب فأمره فيهما بيِّن.
قال يصف السيف:

كفرندي فرند سيف الجُراز لذة العين عدة للبراز
تحسب الماء خط في لهب النار أدق الخطوط في الأحراز
كلما رمت لونه منع الناظر موج كأنه منك هازي
ودقيق قذى الهباء أنيق متوالٍ في مستو هزهاز
ورد الماء فالجوانب قدرًا شربت، والتي تليها جوازي
حملته حمائل الدهر حتى هي محتاجة إلى خراز

فاقرن هذه القطعة بقطعة البحتري:

قد جدت بالطرف الجواد فثنه لأخيك من أدد أبيك بمنصل
يتناول الروح البعيد مناله عفوًا ويفتح في الفضاء المقفل ... إلخ

أو بقطعة ابن الرومي:

خير ما استعصمت به الكف عضب   ذكر حده، أنيث المهز
ما تأملته بعينيك إلا   أرعشت صفحتاه من غير هز ... إلخ

نجد لأبيات أبي الطيب فضلًا عليهما.
وقال في وصف: كلب صيد:

فحل كلابي وثاق الأحبل
عن أشدق مُسَوجر مسلسل   أقب ساط شرس شمردل
منها إذا يُثغ له لا يغزل   مؤجد الفقرة رخو المفصل
له، إذا أدبر، لحظ المقبل   كأنه ينظر من سجنجل
يعدو إذا أحزن عدو المسهل   إذا تلا جاء المدى وقد تُلي
يُقعي جلوس البدوي المصطلي   بأربع مجدولة لم تجدل
فتل الأيادي ربذات الأرجل   آثارها أمثالها في الجندل
يكاد في الوثب من التفتل   يجمع بين متنه والكلكل
وبين أعلاه وبين الأسفل   شبيه وسمي الحضار بالوَلي
كأنه مضبر من جرول   موثَّق على رماح ذُبَّل
ذي ذنب أجرد غير أعزل   يخط في الأرض حساب الجمل
كأنه من جسمه بمعزل   لو كان يُبلي السوطَ تحريكٌ بَلي
نيل المنى وحكم نفس المرسل   وعُقلة الظبي وحتف التتفل

وكذلك طردية عضد الدولة التي أولها:

ما أجدر الأيام والليالي   بأن تقول ما له وما لي؟

من أبلغ ما قيل في وصف الصيد، فليرجع إليها القارئ في الديوان.

ومن دقته في الإدراك وتلطفه في الوصف ميله إلى التشبيهات اللطيفة المأخوذة من حروف الهجاء وأشباهها كقوله:

وانثنى عني الرديني حتى   دار دورَ الحروف في هَوَّاز

أي كما تدور الحروف في «هوز» من الحلق إلى الشفة إلى الأسنان.

أول حرف من اسمه كتبت   سنابك الخيل في الجلاميد

يعني أول حرف من اسم سيف الدولة وهو «علي» كتبته سنابك الخيل في الصخر، والسنابك تؤثر في الأرض كرأس الحرف ع.

ورب جواب عن كتاب بعثته   وعنوانه للناظرين قتام
حروف هجاء الناس فيه ثلاثة   جواد ورمح ذابل وحسام

* * *

نتاج رأيك في وقت على عجل   كلفظ حرف وعاه سامع فهم

* * *

قُشَير وبلعجلان فيها خفية   كراءين في ألفاظ ألثغ ناطق

* * *

وكل فتى للحرب فوق جبينه   من الضرب سطرٌ بالأسنة معجم

* * *

دون التعانق ناحلين كشكلتي   نصب أدقهما وضم الشاكل

وأما وصف الحرب فقد أسلفت كلام ابن الأثير في هذا في فصل آراء النقاد.

وقلت في فصل سيف الدولة إن هذا المقدار من الشعر الحماسي في هذه البلاغة لا يعرف لشاعر آخر.

وأبو الطيب في طبعه الحماسة، وفي سجيته الطرب للحرب والضرب والغلب، والإعجاب بالقوة والعزة والمنعة وما إليها.

فكان، لا جرم، مبرزًا في كل ما هو من هذه الأمور، وكل ما يمت إليها.

وحسبي أن أثبت أمثلة من حماسياته، وهي كثيرة، ولا أطيل الكلام بالوقوف عند كل مثال، والإنابة عما فيه من قوة وروعة، والإشادة بما فيه من حسن تصوير، وجودة تعبير، بل أدع هذا كله لتأمل القارئ وتقديره.

شهد أبو الطيب بعض الوقعات فصور ما رآه وما شعر به، ووُصِف له بعضها فوصف عن سماع، وصاغها بما في طبعه من حماسة وما في خياله وبيانه من سعة وقوة. وأمثل بثلاث قصائد:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم

* * *

طوال قنا تُطاعنها، قِصار   وقطرك في ندى ووغى بحار

* * *

عُقبى اليمين على عُقبى الوغى ندم   ماذا يزيدك في إقدامك القسم؟

تأمل في هذه الأبيات من القصيدة الأولى وهي تصف حرب سيف الدولة والروم:

أتوك يجرون الحديد كأنهم   سروا بجياد ما لهن قوائم
إذا برقوا لم تُعرف البيض منهم   ثيابهم من مثلها والعمائم
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه   وفي أذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسنٍ وأمَّة   فما تُفهم الحُدَّاث إلا التراجم
فلله وقت ذوب الغش ناره   فلم يبق إلا صارم أو ضُبارم
تقطع ما لا يُقطع، البيض والقنا   وفر من الأبطال من لا يصادم
وقفتَ وما في الموت شك لواقف   كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كَلمَى هزيمة   ووجهك وضاح وثغرك باسم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة   تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضربٍ أتَى الهامات والنصر غائب   وصار إلى اللبات والنصر قادم

وهذه الأبيات ليست أجود من غيرها في القصيدة.

ويقول في القصيدة الثانية وهي تصف حرب بني كعب وغيرهم من الثائرين على سيف الدولة:

فأقبلها المروج مسومات ضوامر لا هزال ولا شيار
تثير على سلمية مسبطرًّا تناكر تحته، لولا الشعار
عجاجًا تعثر العقبان فيه كأن الجو وعث أو خبار
وظل الطعن في الخيلين خلسًا كأن الموت بينهم اختصار
فلزهم الطراد إلى قتال أحدُّ سلاحهم فيه الفرار
مضوا متسابقي الأعضاء فيه لأرؤسهم بأرجلهم عثار
يشلهم بكل أقب نهدٍ لفارسه على الخيل الخيار
وكل أصم يعسل جانباه على الكعبين منه دم ممار
يُغادر كل ملتفت إليه ولبته لثعلبه وجار
إذا صرف النهار الضوء عنهم دجا ليلان: ليل والغبار
وإن جنح الظلام انجاب عنهم أضاء المشرفية والنهار

ومن القصيدة الثالثة وهي تصف حرب الروم:

فلم تُتِمَّ سروجٌ فتحَ ناظرها إلا وجيشك في جفنيه مزدحم
والنقع يأخذ حرانا وبقعتها والشمس تُسفر أحيانًا وتلتثم
سحب تمر بحصن الران ممسكة وما بها البخل لولا أنها نِقم
جيش كأنك في أرض تطاوله فالأرض لا أمم والجيش لا أمم
إذا مضى علم منها بدا علم وإن مضى علم منه بدا علم
وشُزَّبٌ أحمت الشعرى شكائمها ووسَّمتها على آنافها الحكم
حتى وردن بسمنين بحيرتها تنش بالماء في أشداقها اللجم
وأصبحت بقُرَى هنريط جائلة ترعى الظُّبَى في خصيبٍ نبته القِمم
فما تركن بها خلدًا له بصر تحت التراب ولا بازًا له قدم
ولا هزبرًا له من درعه لبد ولا مهاة لها من شبهها حشم
ترمي على شفرات الباترات بهم مكامن الأرض والغيطانُ والأكم

وجاوزوا أرسناسًا معصمين به　　وكيف يعصمهم ما ليس ينعصم
وما يصدك عن بحر لهم سعة　　وما يردك عن طود لهم شمم
ضربته بصدور الخيل حاملةً　　قومًا إذا تلفوا قُدْمًا فقد سلموا
تجفل الموج عن لبات خيلهم　　كما تجفل تحت الغارة النعم
عبرت تقدمهم فيه وفي بلد　　سكانها رِمم، مسكونها حمم
وفي أكفهم النار التي عُبدت　　قبل المجوس إلى ذا اليوم تضطرم
هنديةٌ إن تُصغِّر معشرًا صغروا　　بحدها، أو تعظم معشرًا عظموا

* * *

وقد تمنوا غداة الدرب في لجب　　أن يبصروك فلما أبصروك عموا
صدمتهم بخميس أنت غرته　　وسمهريته في وجهه غمم
فكان أثبت ما فيهم جسومهم　　يسقطن حولك والأرواح تنهزم
والأعوجية ملء الطرق خلفهم　　والمشرفية ملء اليوم فوقهم
إذا توافقت الضربات صاعدة　　توافقت قُلل في الجود تصطدم

الغزل

أبادر فأعترف بأن أبا الطيب لم يكن غزلًا، لم يكن رقيقًا يأسره الهوى، يخفق له قلبه، ويسيل دمعه، ويغني لسانه.

وقد تجنب الشاعر الغزل في مطلع كثير من القصائد حيدًا عن سنة الشعراء، وصرح بلومهم على هذا إذا قال في مطلع قصيدة سيفية:

إذا كان مدح فالنسيب المقدم　　أكل فصيح قال شعرًا، مُتيم؟

وفي القصيدة التي مطلعها:

مُنًى كُنَّ لي أن البياض خضاب　　فيَخفَى بتبيض القرون شباب

قال:

وما العشق إلا غرة وطماعة　　يعرض قلب نفسه فيُصاب
وغيرُ فؤادي للغواني رمية　　وغيرُ بناني للزجاج ركاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة　　فليس لنا إلا بهن لِعاب

وفي القصيدة التي مطلعها:

بم التعلل لا أهل ولا وطن　　ولا نديم ولا كأس ولا سكن

يقول:

مما أضر بأهل العشق أنهم　　هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تفنى عيونهم دمعًا وأنفسهم　　في إثر كل قبيح وجهه حسن
تحملوا حملتكم كل ناجية　　فكل بين علي اليوم مؤتمن
ما في هوادجكم من مقلتي عوض　　إن مِت شوقًا ولا فيها لها ثمن

وقال في القصيدة التي مطلعها:

كدعواك كلٌّ يدعي صحة العقل　　ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل
محب كنى بالبيض عن مرهفاته　　وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير أنني　　جناها أحبائي وأطرافها رسلي
عدمت فؤادًا لم تبت فيه فضلةٌ　　لغير الثنايا الغر والحدق النجل
فما حرمت حسناء بالهجر غبطة　　ولا بلغتها من شكا الهجر، بالوصل

ليس الشاعر في طبعه ونزوعه من أهل الغزل، ولكنه حينما أراد أن يتغزل تأسيًا بالشعراء، استطاع أن يجيد، وهذه أمثلة من غزله في شبابه تشهد بما أدَّعِي:

لعبت بمشيته الشَّمول وغادرت　　صنمًا من الأصنام، لولا الروح
ما باله لاحظته فتضرجت　　وجناته، وفؤادي المجروح

ورمى، وما رمتا يداه، فصابني ... سهم يعذب والسهام تريح
قرب المزار، ولا مزار وإنما ... يغدو الفؤاد فنلتقي ويروح
وفشت سرائرنا إليك وشفنا ... تعريضنا فبدا لك التصريح
لما تقطعت الحمول تقطعت ... نفسي أسى، وكأنهن طلوح
وجلا الوداع من الحبيب محاسنًا ... حسن العزاء، وقد جُلين، قبيح
فيدٌ مسلمة، وطرف شاخص ... وحشا يذوب، ومدمع مسفوح
يجد الحمام ولو كوجدي لانبرى ... شجر الأراك مع الحمام ينوح

ومن قصيدة في مدح الحسين الهمذاني:

أسر بتجديد الهوى ذكر ما مضى ... وإن كان لا يبقَى له الحجر الصلد
سهاد أتانا منك في العين عندنا ... رقاد، وقُلَّام رعى سربكم، ورد
ممثلة حتى كأن لم تفارقي ... وحتى كان اليأس من وصلك الوعد
وحتى تكادي تمسحين مدامعي ... ويعبق في ثوبي من ريحك الند

ومن غزله في السيفيات:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي ... وللحب ما لم يبق مني وما بقي
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ... ولكن من يبصر جفونك يعشق
وبين الرضى والسخط والقرب والنوى ... مجال لدمع المقلة المترقرق
وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه ... وفي الهجر فهو الدهرَ يرجو ويتقي

وقوله:

لا تعذل المشتاق في أشواقه ... حتى يكون حشاك في أحشائه
إن القتيل مضرجًا بدموعه ... مثل القتيل مضرجًا بدمائه
والعشق كالمعشوق يعذب قربه ... للمبتلى، وينال من حَوبائه
لو قلت للدنف الحزين، فديته ... مما به، لأغرته بفدائه

وقوله:

أيـدري الـربـع أيَّ دم أراقـا ... وأي قلوب هذا الركب شاقا
لـنـا ولأهـلـه أبـدًا قـلـوب ... تلاقى في جسوم ما تلاقى
وما عفت الرياح له محلا ... عفاه من حدا بهم وساقا
فليت هوى الأحبة كان عدلا ... فحمَّل كل قلب ما أطاقا
نظرت إليهم والعين شكرى ... فصارت كلها للدمع ماقا
وقد أخذ التمام البدر فيهم ... وأعطاني من السقم المحاقا
وبين الفرع والقدمين نور ... يقود بلا أزمتها النياقا
وطرف إن سَقَى العشاق كأسًا ... بها نقص، سقانيها دهاقا
وخصرٌ تثبت الأبصار فيه ... كأن عليه من حدق نطاقا

وانظر الغزل في هذه الأبيات:

أما في النجوم الساريات وغيرها ... لعيني على ضوء الصباح دليل؟
ألم ير هذا الليل عينيك رؤيتي ... فتظهر فيه رقة ونحول؟
لقيت بدرب القلة الفجر لقية ... شفت كبدي، والليل فيه قتيل
ويومًا كأن الحسن فيه علامة ... بعثتِ بها، والشمس منك رسول

يتبين بهذا أن الرجل مجيد في الغزل، متصرف فيه، ولولا طبعٌ شاعر، وبيانٌ قادر ما أحسن هذا الإحسان في موضوع لا يميل طبعه إليه، ولا تخضع كبرياؤه له.

وفي غزل أبي الطيب أمور جديرة بالإثبات هنا:

الأول: أن الغزل لا ينسيه الكلف بذكر الحرب فهو يصف منعة الحبيب وما يحيط به من شدائد وأهوال، يقول في قصيدة ابن طغج:

ديار اللواتي دارهن عزيزة ... بطولَى القنا يُحفظن لا بالتمائم

وفي بعض القصائد السيفية:

حبيب كأن الحسن كان يحبه   فآثره أو جار في الحسن قاسمه
تحول رماح الخط دون سِبائه   وتُسبَى له من كل حي كرائمه
ويُضحِي غبار الخيل أدنى ستوره   وآخرها نشر الكباء الملازمه

* * *

وما شرقي بالماء إلا تذكرًا   لماء به أهل الحبيب نزول
يحرمه لمع الأسنة فوقه   فليس لظمآن إليه وصول

* * *

متى تزر قوم من تهوى مودتها   لا يُتحفوك بغير البيض والأسل

وفي قصيدة كافورية:

سوائر ربما سارت هوادجها   منيعةً بين مطعون ومضروب
وربما وخدت أيدي المطي بها   على نجيع من الفرسان مصبوب

والثاني: أن الشاعر الهمام كلف بالحرب حتى تغزل بها، وقد تقدم قوله:

محب كنى بالبيض عن مرهفاته   وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير أنها   جناها أحبائي وأطرافها رسلي

ويقول:

أعلى الممالك ما يُبنى على الأسل   والطعن عند محبيهن كالقبل
والطعن شزر والأرض واجفة   كأنما في فؤادها وهَل
قد صبغت خدها الدماء كما   يصبغ خد الخريدة الخجل

والثالث: تغزله بالأعرابيات، وتفضيلهن على الحضريات، والإعراب بهذا عما في طبعه من إيثار الطبيعة على الصنعة، والبداوة على الحضارة.

وقد بينت هذا في فصل «البداوة في طبعه وشعره» من قبل.

والرابع: مزج الغزل بالحزن والنظر في الدنيا والاعتبار بتغيرها.

قال في القصيدة التي بعث بها إلى سيف الدولة من العراق والتي مطلعها:

ما لنا كلنا جَوٍ يا رسول؟ أنا أهوى وقلبك المتبول
زودينا من حسن وجهك ما دام فحسن الوجوه حال تحول
وصلينا نصلك هذه الد نيا فإن المقام فيها قليل
من رآها بعينها شاقه القُطَّا نُ فيها كما تشوق الحمول

وقال في القصيدة السيفية التي أولها:

لعينيك ما يلقى الفؤاد ما لقي وللحب ما لم يَبق مني وما بقي
سقى الله أيام الصبا ما يسرها ويفعل فعل البابلي المعتق

وهذا بيت في أبيات من الغزل كثيرة لا ينظر القارئ أن يعقبه هذا البيت:

إذا ما لبستَ الدهر مستمتعًا به تخرقتَ والملبوسُ لم يتخرق

ولكنها خطرة حزن، ولمحة عبرة أثناء الغزل. وفي القصيدة:

ليالي بعد الظاعنين شكول

يقول أثناء الغزل:

وما عشتُ من بعد الأحبة سلوةً ولكنني للنائبات حمول
وإن رحيلًا واحدًا حال بيننا وفي الموت من بعد الرحيل رحيل

بل نجد خطرات الحزن هذه في غزل الشباب، ففي القصيدة التي أولها:

أرَقٌ على أرَقٍ ومثلي يأرق وحشًا يذوب وعبرةٌ تترقرق

يقول:

وعذلت أهل العشق حتى ذقتُه فعجبت كيف يموت من لا يعشق
وعذرتُهم وعرفت ذنبي أنني عيرتهم فلقيت منه ما لقوا

ثم يتبع الغزل هذه الأبيات:

أبني أبينا نحن أهل منازل أبدًا غراب البين فيها ينعق
نبكي على الدنيا وما من معشر جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الأُلَى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا

إلى أن يقول:

ولقد بكيت على الشباب ولمتي مسودة ولماء وجهي رونق
حذرًا عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفني أشرق

ثم ينتقل من هذا البيت إلى المدح، فما الذي دس هذه الأبيات التي فيها التفرق والفناء بين الغزل والمدح؟ حزنٌ خفي واكتئاب في نفس الشاعر يظهر بين الحين والحين، ويذكر به كل شيء حتى الغزل.

(٢-٣) التعبير

بقي أن ننظر في تعبير الشاعر، ونعرف كيف يبين عن معانيه بألفاظه.

وكيف تقع مفرداته ومركباته من مفردات الشعر البليغ ومركباته، ثم كيف يستقيم الأسلوب، وتيسر له طرائق البيان.

هذا موضوع واسع بعيد الجوانب، خفي الأعلام، وله في البلاغة مكانته، ولكني لا أحسب الذي يكتب عن شاعر كبير بسبيل من الإفاضة في هذا الموضوع واستقصاء نواحيه، فإن شاعرًا لا يبلغ منزلة عالية بين شعراء أمته حتى يستوفي عدته للبيان، ويبلغ في اللغة — ألفاظها وأساليبها — المنزلة التي تعلو على الجدل في علمه باللغة، ومسايرة قواعدها، والتزام الأساليب المتينة البليغة فيها.

وأبو الطيب شاعر كبير، لا يختلف في هذا اثنان، وإن اختلف الناس في درجات هذا الكبر، فليس لزامًا على من يكتب عنه أن يخوض في بحث الألفاظ؛ ولكن عليه أن يعالج ما عرف به وذاع عنه من عيب أو مزية، غير المزايا التي يشترك فيها الشعراء العظام جميعًا.

لا أنكر أن لأبي الطيب عيوبًا جزئية في أبيات له، لم يؤد إليها جهله باللغة ولا عجزه عن الارتقاء إلى الدرجات العليا فيها، ولا حطه إليها ضعف في الطبع، أو خور في البيان.

وقد أفاض فيها النقاد، وألمت بها آنفًا، أخذوا عليه كلمة حوشية أو تكرارًا ثقيلًا في الكلمات، وحفلت كتب البلاغة والنقد بأمثلة من مثل قوله في سيف الدولة:

كريم الجرشي شريف النسب

وقوله في وصف فرس:

سبوح لها منها عليها شواهد

وقوله:

أحاد أم سداس في أحاد ... لييلتنا المنوطة بالتنادي

وقوله:

لو لم تكن من ذا الورى اللذ منك هو ... عقمت بمولد نسلها حواء

وهي جزئيات أدى إليها الإدلال بعلمه بغرائب اللغة، أو ميله إلى الإغراب ليوجه الناس إليه ونحو هذين مما يعرض للإنسان في عنفوان شبابه.

وقد قدمت أن الرجل كان من أعلم أهل عصره باللغة، وأنه كان كوفيًّا يؤثر أحيانًا طريقة الكوفيين في النحو على طريقة البصريين التي ألفها المتأدبون. وتبقى بعد هذه المآخذ الجزئية، جمهرة شعر يتصرف قائله في اللغة؛ مفردها ومركبها وأسلوبها، تصرف الخبير القدير، والناقد البصير، والفصيح الذي ملك الزمام، وانقاد له صعب الكلام.

ولأبي الطيب مزية أطلت النظر فيها وأنا أقرأ شعره، هي قدرته على الإبانة عن المعنى الواسع البعيد بألفاظ قليلة قريبة، ولقد مررت في شعره بأمثلة روائع، وكلمات بدائع يطيل القارئ عندها الإعجاب والتعجب ... وهذا نصها:

أراد أن يقول: إن الليالي تكلفني سفرًا متصلًا أقطع به مهامه واسعة صابرًا على السير ومصاعبه مستأنفًا رحلة بعد رحلة! حتى تتعجب ناقتي وتحار أهذه سعة البيداء أم سعة عزمي وانفساح همي؟ فانظر كيف وضع هذا المعنى الطويل في عشر كلمات:

شيم الليالي أن تُشكك ناقتي　　　صدري بها أفضَى أم البيداء

وأراد أن يقول في مدح أبي علي الأوراجي: إن أبا علي كالجبال عظمًا ووقارًا، وإن لي فيه رجاء عظيمًا كالجبال، وإن بيني وبينه جبالًا شامخة لا بد لي من قطعها، فانظر كيف أدى هذا في ثماني كلمات:

بيني وبين أبي علي مثله　　　شمٌّ الجبال، ومثلهن رجاء

وأراد أن يقول إن ممدوحه حسن، ولكنه في عيون أعدائه قبيح، وكذلك ضيفه قبيح في عيون إبله؛ لأنها تعرف في قدوم الضيف نحرها، وهو في عيون أعدائه أقبح من ضيفة في عيون إبله، فأتى بهذه العبارة:

حسنٌ، في عيون أعدائه　　　أقبح من ضيفه رأته السوام

وإن يكن في هذا البيت شيء من الغموض فبما حُمِّل من معنى كثير في لفظ قليل.

وأراد أن يبين أنه يطرد عن عينه النوم في مسيره إلى رجل جواد يسري معروفه إلى الناس في ديارهم وهم نائمون غير متجشمين نصبًا ولا ملحفين طلبًا لهذا المعروف فقال:

سرَى النوم عني في سراي إلى الذي　　　صنائعه تسري إلى كل نائم

وأراد أن يصف نساء بالجمال وسعة الأعين وحسنها ويخبر بأنهن يبكين بكاء شديدًا يذهب بجمال أعينهن فأدى هذا المعنى في الشطر الثاني من هذا البيت:

تركت خدود الغانيات وفوقها　　دموع تذيب الحسن في الأعين النُّجل

وأراد أن يبين أن سيف الدولة هزم الروم وقتلهم فمنهم من اختفى في المطامير والسراديب وتحت الأطلال كالخُلد الذي يختفي في الأرض، ومنهم من فر مسرعًا كالبازي، فما سلم هؤلاء ولا هؤلاء من القتل، فقال:

فما تركن بها خلدًا له بصر　　تحت التراب ولا بازًا له قدم

وأراد أن يقول إنه لا مفر للإنسان من الشيب، فإن سبب الشيب الذي يكرهه الإنسان هو سبب الشباب الذي يبكي عليه، وهو مرور الزمان واستمرار الحياة، فقال:

مُشِب الذي يبكي الشباب مُشِيبه　　فكيف توقيه وبانيه هادمه

وأراد أن يمدح سيف الدولة بأنه قتل في الحرب نفوسًا كثيرة لو حواها لخلد، وأن حياته سرور لهذه الدنيا فهي تهنأ بخلده، فقال:

نهبت من الأعمار ما لو حويته　　لهُنئتِ الدنيا بأنك خالد

وهذا الذي يسمى المدح الموجه أي ذا الوجهين كالثوب الذي له وجهان كلاهما حسن، كما قال الثعالبي في اليتيمة، وهو في شعره كثير كقوله:

عمر العدو إذا لاقاه في رهج　　أقل من عمر ما يحوي إذا وهبا

* * *

تُشرق أعراضهم وأوجههم　　كأنها في نفوسهم شيم

* * *

إلى كم ترد الرسل عما أتوا له　　كأنهم فيما وهبت ملام

* * *

كأن ألسنهم في النطق قد جُعلت   على رماحهم في الطعن خرصان

فهذا فن يشهد بالقدرة على الإبانة، والبصر بإبراز المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، وكم قائل يمد للمعنى أشطانًا من الألفاظ ثم يكون كما قيل: تجئك بحمأة وقليل ماء.

خاتمة

١

صحبنا أبا الطيب أحمد بن الحسين من نشأته إلى وفاته، على قدر ما عرفنا من أخباره، وأثرنا من سيرته.

وذكرنا طرفًا من أخلاقه ومذاهبه في الحياة وآرائه في الناس، وتكلمنا في علمه باللغة والأدب وغيرهما فعرفناه إمامًا من أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري، وراوية من رواتها يأخذ عن العرب في حضره وسفره.

ثم أبنا مكانته في الأدب، وما أحدثه في تاريخه، وذكرنا محاسنه في رأي القدماء ومساوئه.

وانتهى الكلام إلى بيان رأيي في شعره وخصائصه.

٢

ومن يقرأ هذه الفصول متأملًا، ويقرأ شعر أبي الطيب متمعنًا، يعرف رجلًا أبيًّا وشاعرًا فحلًا، ويجد ثروة في الأدب ورثناها عن هذا الشاعر العبقري، ثروة من الشعر العزيز، والأدب المتعالي والحكمة القوية والخلق المنيع.

والشاعر الكبير بل الإنسان العظيم أيًّا كان، يُقدر بجملته لا بتفصيله، ويُعرف بهيئته لا بتفصيل حليته، كالوجه الجميل يروعك بطلعته قبل أن يفصل نظرك محاسنه، وإذا راعت الناظر صورة جميلة لم يخل بروعتها أن يجد في تقاسيمها أو ألوانها وخطوطها مآخذ، أو يدرك في جزء منها موضعًا للتمني، وإن لقيت الناظر صورة فاترة لا روعة فيها ولا جمال، لم ينفعها بعدُ أن يتأمل فيرى إحكامًا في جزء منها، وإتقانًا في

قسمة فيها، وكذلكم كبار الشعراء، فالشاعر الذي يكون أبا الطيب، هو شاعر عظيم لا محالة؛ ودع لفظًا معيبًا، وشطرًا مردودًا، وبيتًا مرذولًا، فما تزال الصورة رائعة جليلة، ولا يزال الشاعر هو أبا الطيب الذي جاء فملأ الدنيا وشغل الناس.

٣

وكذلك يُقدر الشاعر بما أحدث في أدب أمته، وما أمدها من عقله وقلبه وبيانه وإحسانه، فإن رأيت الشاعر جاء فأثار الأفكار، وهاج النفوس، وترك شعره على الألسنة والأقلام، وفي بطون الكتب، يتمثل به الناس في الحين بعد الحين، وينشدونه طربين، ويحفظونه محتفلين، ويتناشدونه متنافسين فهذا شاعر مطبوع مبتكر، صنع للناس شيئًا، ومهد لهم طريقًا، وصاغ لهم حلية، وأورثهم شعرًا خالدًا؛ ودع بعدُ محك الماحكين وتكلف المتكلفين، وتحامل الجاهلين، وبغي المتعصبين، ودع عيوبًا بينة أو خفية.

وحسب أبي الطيب أن أديبًا لا يسعه أن يعد عشرة من أعلام الشعر العربي الذي امتد حينًا بين الصين وبحر الظلمات وامتد عمره خمسة عشر قرنًا، إلا كان نظرة في هذه المآخذ أبو الطيب في هؤلاء العشرة، ولا أريد أن أقلل العدد، أو أحكم له بالسبق والاستيلاء على الأمد.

٤

وبعدُ فأختم هذه الخاتمة بكلمة أُثرت عن رجلين في الأدب عظيمين: ضياء الدين بن الأثير، وهو من هو علمًا بالأدب وبصرًا بنقده، والقاضي الفاضل وناهيك به. قال ابن الأثير: «وكنت سافرت إلى مصر سنة ست وتسعين وخمسمائة، ورأيت الناس مكبين على شعر أبي الطيب المتنبي دون غيره، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك، وقلت: إن كان لأن أبا الطيب دخل مصر فقد دخلها قبله من هو مقدَّم عليه، وهو أبو النواس الحسن بن هانئ فلم يذكروا لي في هذا شيئًا.

ثم إني فاوضت عبد الرحيم بن علي البيساني، (القاضي الفاضل) رحمه الله في هذا فقال لي: «إن أبا الطيب يتكلم عن خواطر الناس، ولقد صدق فيما قال».» ا.هـ.

يسر الله تعالى الفراغ من مراجعته، وإجالة القلم في صفحاته بتنقيح يسير، وتغيير قليل، عشية يوم الأربعاء الثلاثين من المحرم سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وألف من

الهجرة (التاسع والعشرين من أيلول سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف من الميلاد) في دار السفارة المصرية من مدينة كراجي عاصمة باكستان.

والحمد لله الملهم المنعم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وكان الفراغ من تأليفه ضحى يوم الجمعة لتسع بقين من شهر.

ربيع الثاني سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة.

(عاشر تموز سنة ست وثلاثين وتسعمائة وألف من الميلاد).

في مدينة السلام بغداد حرسها الله.

وله الحمد في الأولى وفي الآخرة.

والله أعلم.